يوسف القعيد

من أوراق النيل





من أوراق النيل

يوسف القعيد

المحتوى

تعارف

** سبتمبر المصري من سـنة ١٩٨٨، آخـر أيـام الصيف الحارة، وأول تباشير الخريف، أحب فصول السـنة إلى نفسي، فصل الأحزان والتأملات ورحـلات الاسـتبطان الداخلي، يخلو من عرق الصيف، وملابس الشتاء التي تشكل إنساناً فوق الإنسان، ولا يدعي لنفسه زهـو الطبيعـة فـي الربيع، الذي يصل في بعض الأحيان إلى حدود الغرور.

تركت مكتبي بدار الهلال وقت العصاري، في طريقي إلى بيتي بمدينة نصر، رحلة كل يوم، أقـوم بهـا مـرتين، الأولي في الصباح. أترك مدينـة نصـر ومصـر الجديـدة ورائي، وتكون وجهتي السيدة زينب، مروراً بسكان القبور، مدينة الموتى، على يميني، والدويقة ومنشية ناصـر، حيـث يعيش جامعو قمامة القاهرة على يساري.

إنها أحزمة البؤس التي تلف حول القاهرة، مـن كـل جانب، في هذه الأحياء ما يشدني، سكانها قادمون لتوهم من الريف، طردتهم القرى، ولم تستقبلهم القاهرة، لا مفر أمامهم سوى الحياة، على الهوامش، في تجمعـات مصـنوعة مـن

القمامة والصفيح وهياكل السيارات القديمة، هوامش بشـرية تسكن هوامش الأحياء.

في رحلة الصباح، تكـزن الأرض مـلأي بالحليـب، ترتجل الهدوء الأول، وتحاول أن تزرع في مقلتيهـا الحلـم البعيد، وفي رحلة العصاري، تكون نفـس الأرض، مـلأى بالهتافات المخنوقة لكائنات لم تتشكل بعد.

على الرصيف، كتل من الرجالـة، يسـمونها سـوق الرجالة، أياد تبحث عن العمل ولا عمل. تعبير صارخ عـن البطالة، التي تطل برأسها توشك أن تهدد كل ما في مصر.

عيون الرجالة تحدق في، ما أن تبطئ السـيارة، لأي سبب من الأسباب، حتى يهجمون على ، يتصـورون أننـي جئت أبحث عن عامل، يهجمون علـى السـيارة، يسـدون الضوء والهواء وكل مفردات الحياة.

من فوهة الكهوف الرجال وحولهم، الدخان مـن كـل جانب، لكن العاصفة تطـل مـن وراء تعطلهـم السـاذج، والمشكلة الحقيقية أنه لا أحد يرغب في قراءة مفردات هـذه العاصفة التي تلوح في الأفق أبدا.

وفي داخل العمارات القريبة، ينام الأغنيـاء متخمـون حتى الأطراف، يكادون أن يموتوا، ولكن من التخمة، وهنـا في سوق الرجالة، يهدد الفقراء الموت ولكن من الجوع هـذه المرة.

عدت إلى بيتي، لأكتشف أن نبيل خوري قد اتصل بي أكثر من مرة، من باريس، وفي المرة الأخيـرة قـال إنـه سيعاود الاتصال من جديد.

بعد قليل يأتي صوته من باريس، أكثر وضـوحا مـن الأصوات القادمة من القاهرة، كلمات قليلة، وعبارات محددة، يصل إلى ما يريد من أقصر الطرق الممكنة، ويدخل في قلب الموضوع مباشرة بعيدا عن الطرطشه العاطفية التي نمارسها في مصر كثيرا.

قال لي. إن الصفحة الأخيرة من المجلة أصبحت بدون كاتب، خلافات، ومشاكل، وهموم لا علاقة لي بهـا، ولكـن المهم أنني من المفروض أن أتولى كتابتها، وابتداء من هـذا الأسبوع.

لا شئ يسعدني في هذا العالم مثل الكتابة، يخيل إلـي عندما أمسك بالقلم، أنني جئت إلى الدنيا من أجل أن أكـون كاتبا، ذلك هو الجوهر، وما عداه من التفاصيل لا قيمة لها.

سريعا ما اتفقنا، في نفس المكالمة، سـيكون عنـوان الصفحة «من أوراق النيل» وسـأملي علـى المجلـة غـداً المحاولة الأولى، وما إن انتهيت من المكالمة، حتى كنت قـد بدأت في الذهن، عملية الكتابة، أما التدوين الأخير فهو يأتي في النهاية، بعد أن يكون المقال قد كتب علـى ورق الـذهن الخاص.

ولأنني أقدس العمل، وأعتبر أن القدرة على أن أعمل، هي إعلاء لشأن الإنسان، والتعبير الوحيد والأساسـي عنـه إزاء هذا العالم، ففي الموعد الذي اتفقنا عليه، كـان المقـال جاهزاً، لكي أمليه تليفونيا على المستقبل في باريس.

وقد استمرت الصفحة، حتى اللحظة الأخيرة من عمر المستقبل، عندما توقفت عن الصدور في باريس في أبريـل ١٩٨٩، بعد أزمة مالية عنيفة تعرضت المجلة لها، وقيل أن الأزمة حدثت كنوع من العقوبة الموجهة ضد المجلـة، لأن

زمان اقتسام الغنائم الصحفية، كان قد أطل علـى الصـحافة العربية المهاجرة في أوربا.

وكانت علاقتي بالمستقبل قد بدأت قبل ذلك بسـنوات على نحو أرويه هنا، حتى تكتمل القصـة، كنـت أحضـر الاحتفال بذكرى تأسيس حزب التجمع التقدمي الوحدوي، في مقره الرئيسي، عندما انتحى بي جانبا الأستاذ بهاء، وهذا هو الاسم الذي نحب أن ننادي به أستاذنا وأخانا وصديقنا وحبيب قلوبنا: أحمد بهاء الدين.. شفاه ا من مرضه.

قال لي بهاء إنه كان يبحث عني منـذ فتـرة، لأنـه رشحني لكي أصبح مراسل مجلة المستقبل التي تصدر فـي باريس في القاهرة، وكان بهاء أهم كتابها في ذلك الوقت.

اتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي في مكتبه بالأهرام. «وهو المكتب الذي جرى له ما جرى بعد مرضه» ولكن تلك قصه أخرى، لا بد وأن تدون كاملة ذات يوم» فـي الموعـد كنت معه، كان يراجع عموده اليومي في الصفحة الأخيـرة، وهو العمود الذي كان يشكل الضمير المصري والعربي في أنقي وأعذب وأنصح تجلياته.

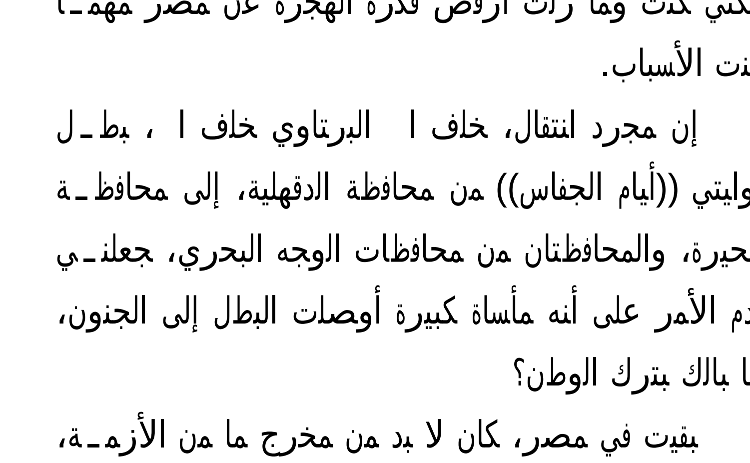
كان الاتفاق بسيطاً، رسالة أسبوعية تغطـى أنشـطة الحياة في مصر، سياسية وثقافية واقتصادية، مقابل مبلغ من المال، أخجل من تدوينه من شدة تواضعه.

وحكاية الكتابة في صحف العرب، سواء التي تصـدر في بعض العواصم العربية، أو في المهجر الأوربي. كانـت قد أصبحت من مفردات الحياة، لنا، لأكثر من سبب.

فبعد أن شط السادات، وقفز بمفرده قفزته الأخيرة نحو المجهول، كنا في حاجة إلى منابر وأمكنة، نتنفس فيهـا عـن رفضنا المشروع لكل ما فعله، كنت أفعل هذا من أجل مصر أولا، لأنني كنت أدرك أن ما يقوم به السادات، لن تدفع ثمنه سوى مصر، سواء على المدى القريب أو البعيد.

وأخطر ما جرى لمصر بعد كامب ديفيـد، أن مصـر القائدة والرائدة، تحولت إلى واحـدة مـن الـدول العربيـة الأخرى، كان هناك اعتبار آخر لفكرة الكتابة في الصـحف العربية، إلا وهو تلك المسافة الرهيبة بين الأجور وتكـاليف الحياة، خاصة بالنسبة لمثلي الذي لا يحصـل سـوى علـى مرتبه من جهة عمله، مع رفض مبدئي وقاطع لكـل أمـوال الأبواب الخلفية في الصحافة، وما أكثرها.

كان هناك من وجد خلاصه في ترك مصر والسفر إلى الدول العربية، حيث يجد حلاً سريعاً لأزمته الفردية، وهناك من تمكن من حل الأزمة، وهناك من قتله القهـر والكمـد، ولكني كنت وما زلت أرفض فكرة الهجرة عن مصر مهمـا كانت الأسباب.



إن مجرد انتقال، خلاف ا   البرتاوي خلاف ا ، بطـل روايتي ((أيام الجفاس)) من محافظة الدقهلية، إلى محافظـة البحيرة، والمحافظتان من محافظات الوجه البحري، جعلنـي أقدم الأمر على أنه مأساة كبيرة أوصلت البطل إلى الجنون، فما بالك بترك الوطن؟

بقيت في مصر، كان لا بد من مخرج ما من الأزمـة، هكذا جاء عرض المستقبل في الوقـت المناسـب، وكانـت تستهويني الكتابة فيها، ذلك أن المجلة كانـت تقـول كلامـاً يصادف هوى في نفسي، وهذا الهوى جعلني أتغاضى عـن بعض الاعتبارات المالية الأخرى.

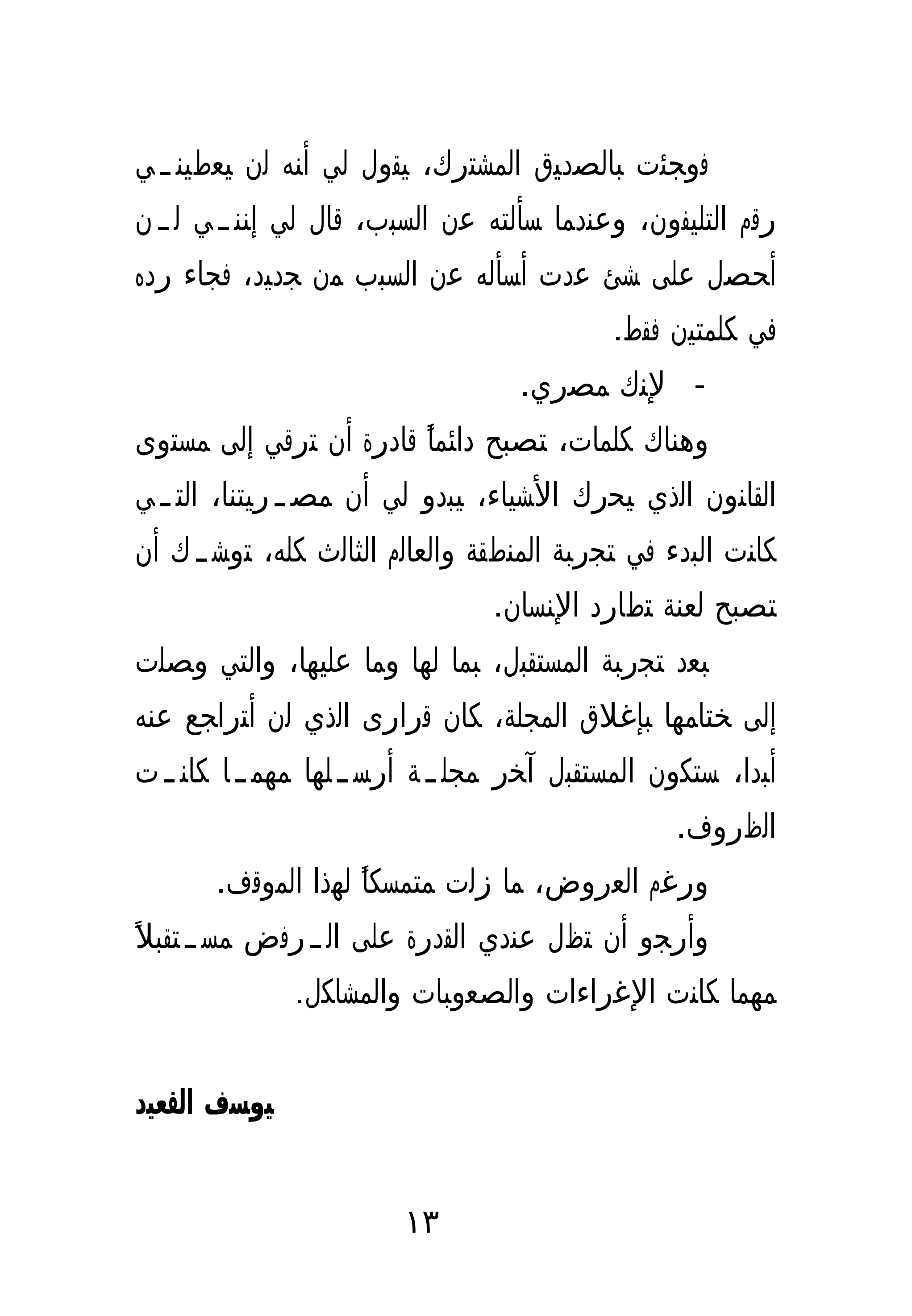
وإن كنت قد أدركت، بعد ذلك، أننا نحن المصـريين، نقدم في هذا الجزء من العالم، أفضل ما لدينا، ثم لا نحصـل في النهاية سوى على فضلات الفضـلات، إن أي مشـروع

جرى في الشرق الأوسط ابتـداء مـن البتـرول، وانتهـاء بصحافة المهجر، يؤكد هذا المعنى.

في أي مشروع، طرف يعمل، وهم أبناء مصر، أحفاد بناة الأهرامات ومبدعي أبي الهول، الذين تحـدوا الأبديـة نفسها، وهناك من يجني الأرباح كاملة، ولا بـد وأن يكـون غير مصري وفي حالة الصحافة فهم الشوام، ولست شوفينيا ولا قطريا في ذلك لسبب بسيط أن هذا ما جرى فعلاً علـى أرض الواقع.

من يومها وأنا أراسل المستقبل حتى لحظـة إغلاقهـا المؤسفة، وعندما أغلقت، كنت الوحيد مـن بـين مراسـليها ومحرريها الذي لم أحصل حتى لحظة كتابة هـذه السـطور على مكافأة نهاية الخدمة.

أذكر أنني اتصلت من القاهرة بصديق مشترك، بينـي وبين نبيل خوري، أريد الحصول منه على رقم تليفون نبيل، من أجل الاتصال به، وكان قد مضى أكثر من السنة علـى إغلاق المجلة، دون الحصول على هذه المكافأة، التي حصل عليها حتى حارس مبني المجلة في باريس.



فوجئت بالصديق المشترك، يقول لي أنه لن يعطيني رقم التليفون، وعندما سألته عن السبب، قال لي إنني لن أحصل على شئ عدت أسأله عن السبب من جديد، فجاء رده في كلمتين فقط.

- لإنك مصري.

وهناك كلمات، تصبح دائماً قادرة أن ترقي إلى مستوى القانون الذي يحرك الأشياء، يبدو لي أن مصريتنا، التي كانت البدء في تجربة المنطقة والعالم الثالث كله، توشك أن تصبح لعنة تطارد الإنسان.

بعد تجربة المستقبل، بما لها وما عليها، والتي وصلت إلى ختامها بإغلاق المجلة، كان قرارى الذي لن أتراجع عنه أبدا، ستكون المستقبل آخر مجلة أرسلها مهما كانت الظروف.

ورغم العروض، ما زلت متمسكاً لهذا الموقف.

وأرجو أن تظل عندي القدرة على الرفض مستقبلاً مهما كانت الإغراءات والصعوبات والمشاكل.

يوسف القعيد

بر مصر بر الشام

عندما بدأت ترجمة روايتي ((الحرب في بر مصـر)) إلى الإنجليزية ، اتصلت بي المترجمة وحـدثني المراجـع وكتبت لي الدكتورة التي كلفتها دار النشـر بتقـديم الطبعـة بالإنكليزية من الرواية.

كان السؤال واحداً:

- ما معنى كلمة بر؟!

قالوا لم نجد للكلمة مرادفاً باللغة الإنجليزية، السؤال يلد السؤال، ولا إجابة. هل الكلمة تعني الأرض؟ أقـول لا هـل تشير إلى الشاطئ؟ أرد أن هناك فارقا بين البـر والشـاطئ احترت، لجأت إلى مكتبتي، تلك الغرفة المبطنة بالمكتب من كل جانب، من الأرض وحتى السقف، رحـت أبحـث فـي معاجم البلدان وقواميس العمران وفهارس الأوطان، وعرجت في طريقي على بحار اللغة العربية باحثا عن معنى كلمة بر.

ونحن عندما يضنينا البحث عن أمر ما، ربما لا نجده، ولكننا في رحلة البحث قد نجد أنفسنا فجأة ودون أن نـدري، في مواجهة ما لم نكن نبحث عنه.

وهنا ما جرى معي.

فالذين كانوا يترجمون الرواية كانت لديهم برامج ومواعيد وعقود وأوراق، لذلك نفذ صبرهم سريعاً، واعتبروا كلمة بر هي نفسها كلمة أرض، وهكذا أصبح عنوان الرواية في الإنكليزية هو ((الحرب على أرض مصر)).

لكن الرحلة لم تكن قد انتهت بعد بالنسبة لي، صحيح أنني عدت من الرحلة بين الأحرف والنقط والفواصل والجمل الاعتراضية دون العثور على ضالتي، ولكن وجدت نفسي أمام ما لم أكن أبحث عنه، اكتشفت أنه ما من مرة يكتب فيها بر مصر حتى تكون الجملة التالية هي بر الشام، قلت لنفسي لا بد وأن الجملتين قد قيلتا في زمن واحد وتوقيت وحيد وظروف شديدة التوحد، سألت الورق والحبر ولم أجد الإجابة لجأت إلى الشيوخ والكبار، صناديق الحكمة المتحركة على الأرض، ابتسموا وهم ينفضون التراب عن الذكريات القديمة استغربوا، لأن حقائق الأزمنة القديمة والجميلة والبريئة ما زالت قادرة على إثارة دهشة واحد من الرجال الجدد كان سؤالي هل ثمة علاقة بين البرين؟ هل إطلاق الكلمة نفسها جاء صدفة، أم أن وراء الأمر حكمة ما؟!

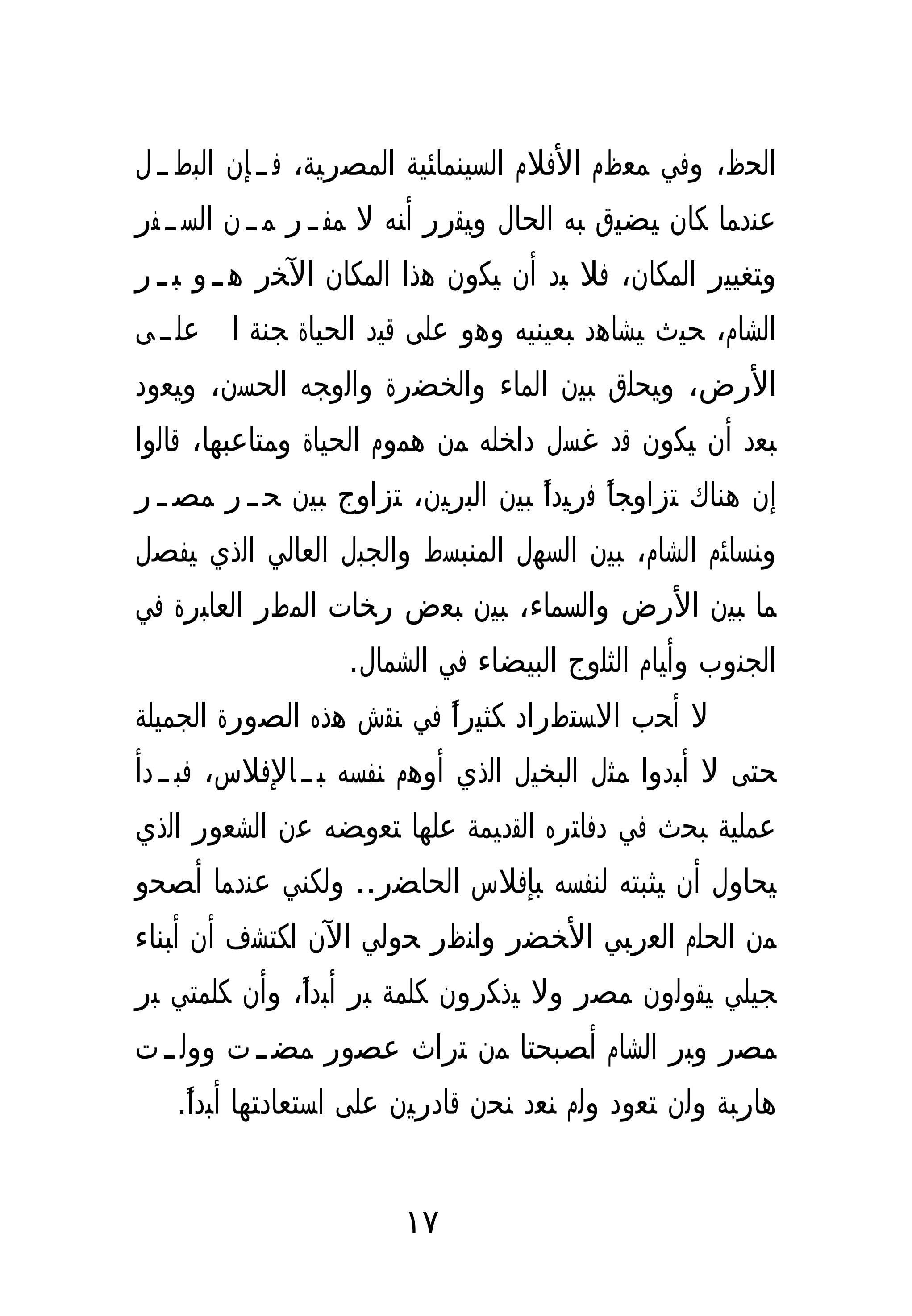
يتحدث الشيوخ، تتشعب الأصوات إلى حدود لا نهايات لها أبداً، يقولون.

إن بر الشام هو الذى يبدأ بفلسطين ويصل إلى حـدود تركيا عندما كنا نتحدث عنه في السنوات الأولى مـن هـذا القرن، كنا نقصد الدول التي أصبحت دول الشام، وكان هناك قطار يتحرك من القاهرة ويصل إلى كل هذه البلدان. وكـان وكنا وكانوا.

خزانة الذكريات لا تنتهي

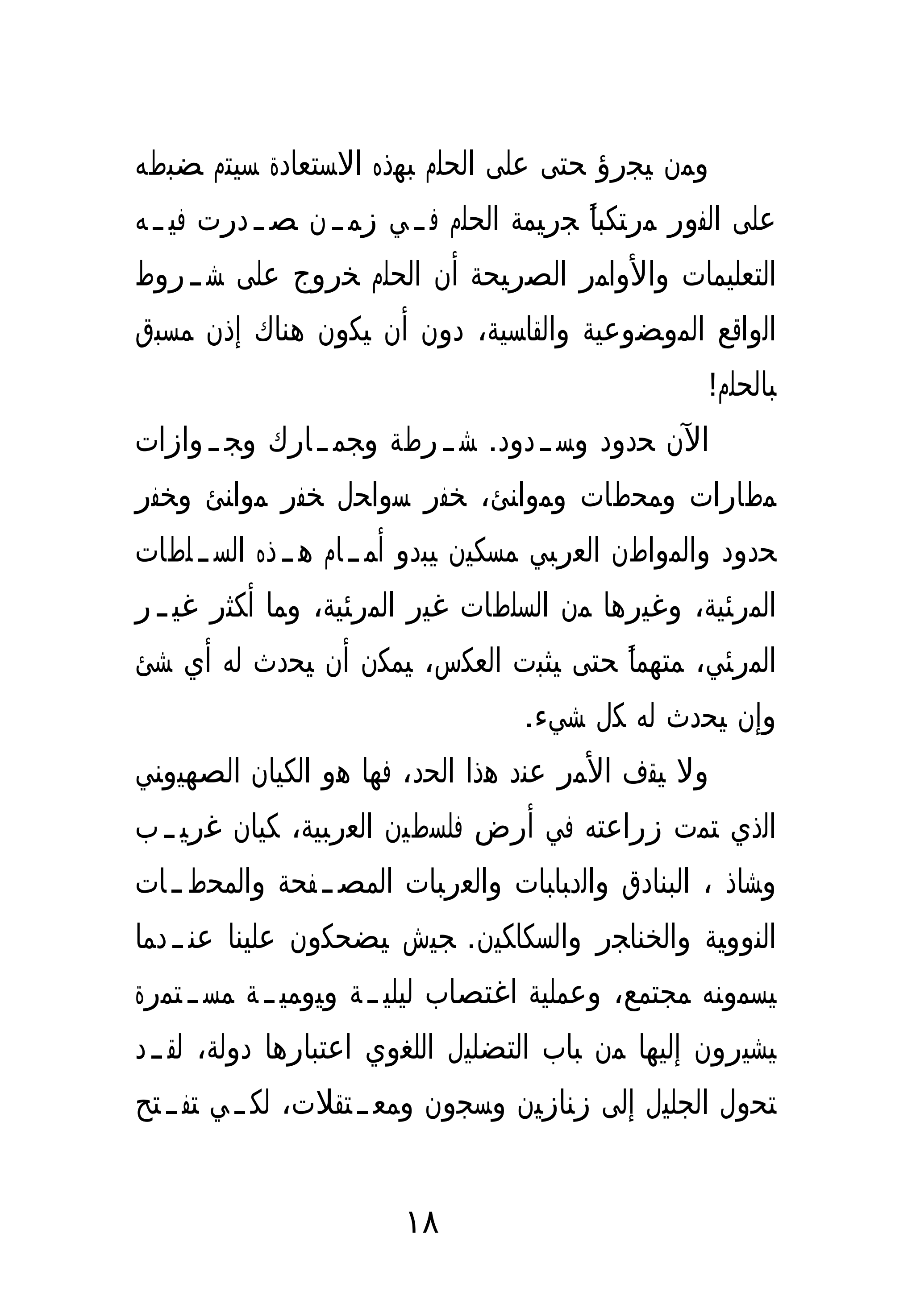
فإن كان أهل بر مصر قـد برعـوا فـي الزراعـة، وارتبطوا بالأرض، يقبلونها صباح مساء، حتى تجود بسرها وتخرج خيراتها، فإن أهل الشام قد أمسكوا بالجانب الآخـر من صناعة الحضارة وإبداعها، أي التجارة، وما بين زراعة بر مصر، وتجارة بر الشام، كانت هناك الصناعة أيضا. في بر مصر ينشبون فى تراب الأرض يستنبتون منه الأخضـر ويستقطرون الماء، وفي بر الشام يمسكون التراب فيتحـول في أياديهم إلى ذهب.

وكان السفر في ذلك الزمان يعني السفر إلى بر الشام، والعودة هي العودة من بر الشام، وحتى منتصف قرننا العاشر



الحظ، وفي معظم الأفلام السينمائية المصرية، فإن البطل عندما كان يضيق به الحال ويقرر أنه لا مفر من السفر وتغيير المكان، فلا بد أن يكون هذا المكان الآخر هو بر الشام، حيث يشاهد بعينيه وهو على قيد الحياة جنة ا على الأرض، ويحلق بين الماء والخضرة والوجه الحسن، ويعود بعد أن يكون قد غسل داخله من هموم الحياة ومتاعبها، قالوا إن هناك تزاوجاً فريداً بين البرين، تزاوج بين حر مصر ونسائم الشام، بين السهل المنبسط والجبل العالي الذي يفصل ما بين الأرض والسماء، بين بعض رخات المطر العابرة في الجنوب وأيام الثلوج البيضاء في الشمال.

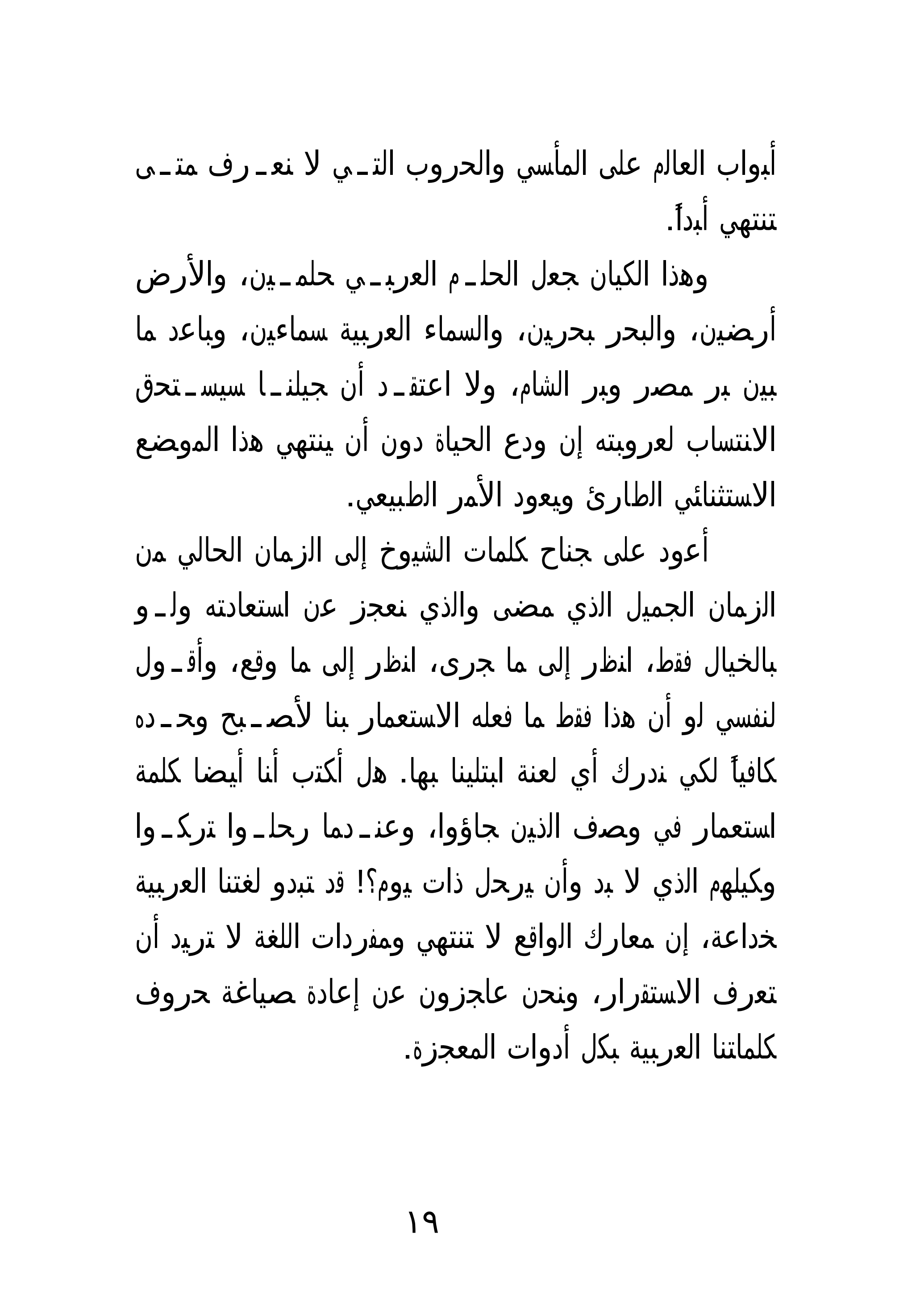
لا أحب الاستطراد كثيراً في نقش هذه الصورة الجميلة حتى لا أبدوا مثل البخيل الذي أوهم نفسه بالإفلاس، فبدأ عملية بحث في دفاتره القديمة علها تعوضه عن الشعور الذي يحاول أن يثبته لنفسه بإفلاس الحاضر.. ولكني عندما أصحو من الحلم العربي الأخضر وانظر حولي الآن اكتشف أن أبناء جيلي يقولون مصر ولا يذكرون كلمة بر أبداً، وأن كلمتي بر مصر وبر الشام أصبحتا من تراث عصور مضت وولت هاربة ولن تعود ولم نعد نحن قادرين على استعادتها أبداً.



ومن يجرؤ حتى على الحلم بهذه الاستعادة سيتم ضبطه على الفور مرتكباً جريمة الحلم فـي زمـن صـدرت فيـه التعليمات والأوامر الصريحة أن الحلم خروج على شـروط الواقع الموضوعية والقاسية، دون أن يكون هناك إذن مسبق بالحلم!

الآن حدود وسـدود. شـرطة وجمـارك وجـوازات مطارات ومحطات وموانئ، خفر سواحل خفر موانئ وخفر حدود والمواطن العربي مسكين يبدو أمـام هـذه السـلطات المرئية، وغيرها من السلطات غير المرئية، وما أكثر غيـر المرئي، متهماً حتى يثبت العكس، يمكن أن يحدث له أي شئ وإن يحدث له كل شيء.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فها هو الكيان الصهيوني الذي تمت زراعته في أرض فلسطين العربية، كيان غريـب وشاذ ، البنادق والدبابات والعربات المصـفحة والمحطـات النووية والخناجر والسكاكين. جيش يضحكون علينا عنـدما يسمونه مجتمع، وعملية اغتصاب ليليـة ويوميـة مسـتمرة يشيرون إليها من باب التضليل اللغوي اعتبارها دولة، لقـد تحول الجليل إلى زنازين وسجون ومعـتقلات، لكـي تفـتح



أبواب العالم على المآسي والحروب التـي لا نعـرف متـى تنتهي أبداً.

وهذا الكيان جعل الحلـم العربـي حلمـين، والأرض أرضين، والبحر بحرين، والسماء العربية سماءين، وباعد ما بين بر مصر وبر الشام، ولا اعتقـد أن جيلنـا سيسـتحق الانتساب لعروبته إن ودع الحياة دون أن ينتهي هذا الموضع الاستثنائي الطارئ ويعود الأمر الطبيعي.

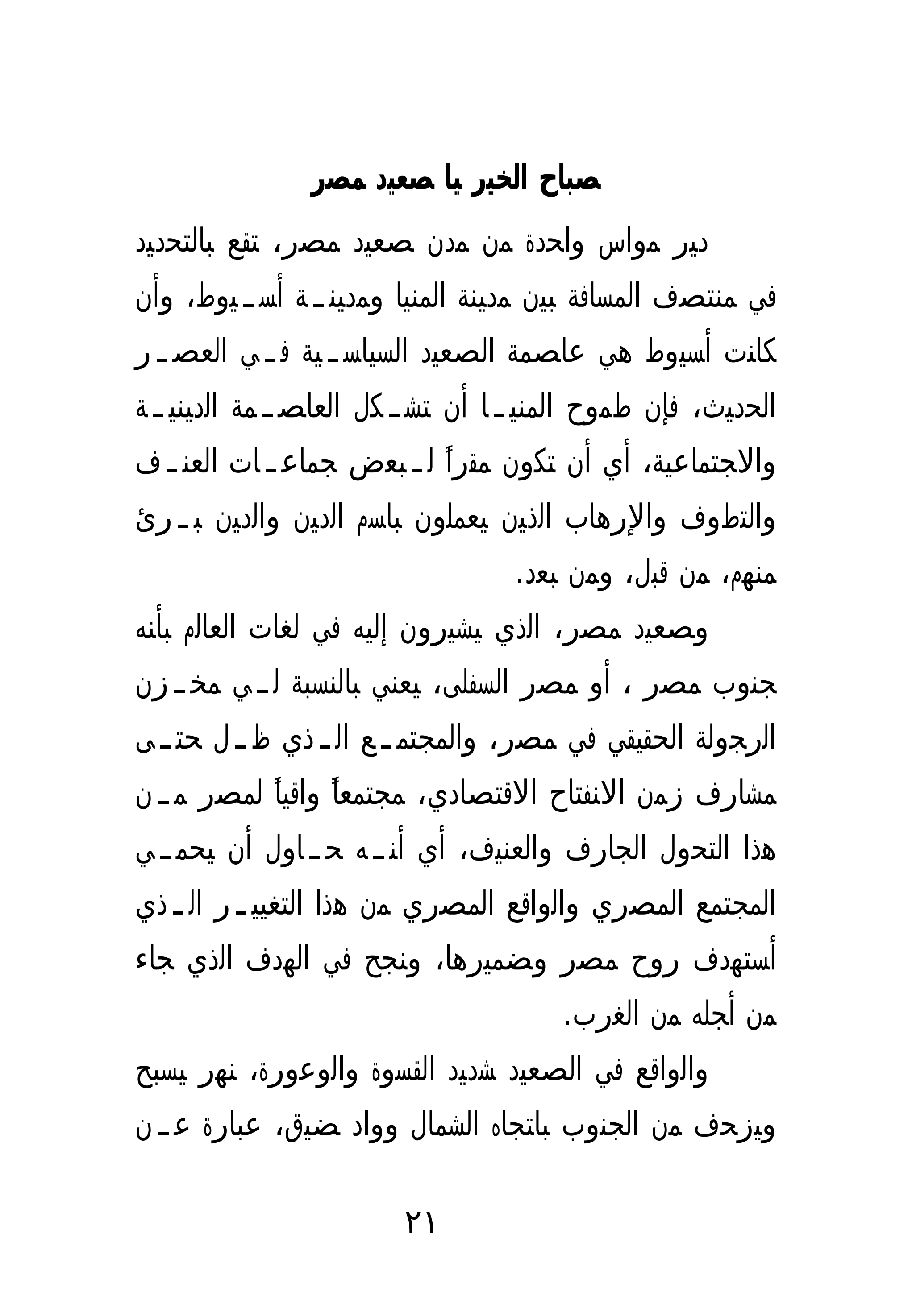
أعود على جناح كلمات الشيوخ إلى الزمان الحالي من الزمان الجميل الذي مضى والذي نعجز عن استعادته ولـو بالخيال فقط، انظر إلى ما جرى، انظر إلى ما وقع، وأقـول لنفسي لو أن هذا فقط ما فعله الاستعمار بنا لأصـبح وحـده كافياً لكي ندرك أي لعنة ابتلينا بها. هل أكتب أنا أيضا كلمة استعمار في وصف الذين جاؤوا، وعنـدما رحلـوا تركـوا وكيلهم الذي لا بد وأن يرحل ذات يوم؟! قد تبدو لغتنا العربية خداعة، إن معارك الواقع لا تنتهي ومفردات اللغة لا تريد أن تعرف الاستقرار، ونحن عاجزون عن إعادة صياغة حروف كلماتنا العربية بكل أدوات المعجزة.

أصبحنا أسرى تعبيراتهم، ولا مفر. من الوريد إلى الحدود، من المطارات إلى المواني إلى المخافر إلى الأوطان.

ولكن الأمل ما زال، أقول لنفسي ما دامت في بر مصر ذاكرة واحدة، ما زالت حية وناضبة بذكريات بالغة القدم والبراءة والقدرة على الإدهاش عن بر مصر وبر الشام، فتلك هي بداية الصوت القادر على أن يزحزح الصخرة الأولى قليلاً، وما أن نتمكن من زحزحة الجبل من مكانه، حتى يقترب الوطن الذي حاولوا إبعاده حتى عن مناطق أحلامنا.

ونصبح التخوم على مدى الشوق، وتلك هي بداية البدايات، بداية الميلاد الجديد.

١٠ سبتمبر ١٩٨٨



صباح الخير يا صعيد مصر

دير مواس واحدة من مدن صعيد مصر، تقع بالتحديد في منتصف المسافة بين مدينة المنيا ومدينـة أسـيوط، وأن كانت أسيوط هي عاصمة الصعيد السياسـية فـي العصـر الحديث، فإن طموح المنيـا أن تشـكل العاصـمة الدينيـة والاجتماعية، أي أن تكون مقراً لـبعض جماعـات العنـف والتطوف والإرهاب الذين يعملون باسم الدين والدين بـرئ منهم، من قبل، ومن بعد.

وصعيد مصر، الذي يشيرون إليه في لغات العالم بأنه جنوب مصر ، أو مصر السفلى، يعني بالنسبة لـي مخـزن الرجولة الحقيقي في مصر، والمجتمـع الـذي ظـل حتـى مشارف زمن الانفتاح الاقتصادي، مجتمعاً واقياً لمصر مـن هذا التحول الجارف والعنيف، أي أنـه حـاول أن يحمـي المجتمع المصري والواقع المصري من هذا التغييـر الـذي أستهدف روح مصر وضميرها، ونجح في الهدف الذي جاء من أجله من الغرب.

والواقع في الصعيد شديد القسوة والوعورة، نهر يسبح ويزحف من الجنوب باتجاه الشمال وواد ضيق، عبارة عـن

شريط من الخضرة حول النهـر، والاثنـان معـاً، النهـر والوادي، تحيط بهما من كل جانب صحارى واسعة، بحـار من الرمال التي لا أول لها ولا آخر هذا الواقع تصله بالشمال سكة حديد وطريق بري صغير ونهر النيل، ولـذلك كانـت العزلة الشديدة هي الطابع الأساسي الذي ميز تطـور هـذا الواقع على مر التاريخ المصري.

ولذلك عندما نجح المستعمرون والمحتلون في احتلال مصر، سواء كانوا من الفرنسيين أو الإنجليز أو العثمـانيين، فقد كانت آخر الحدود التي وصلوا إليها الجيزة في جنـوب مدينة القاهرة، أما الصعيد فقد بقي مغلقاً في وجوههم تماماً. لم ينجح أحد في التسلل إليه أبداً.

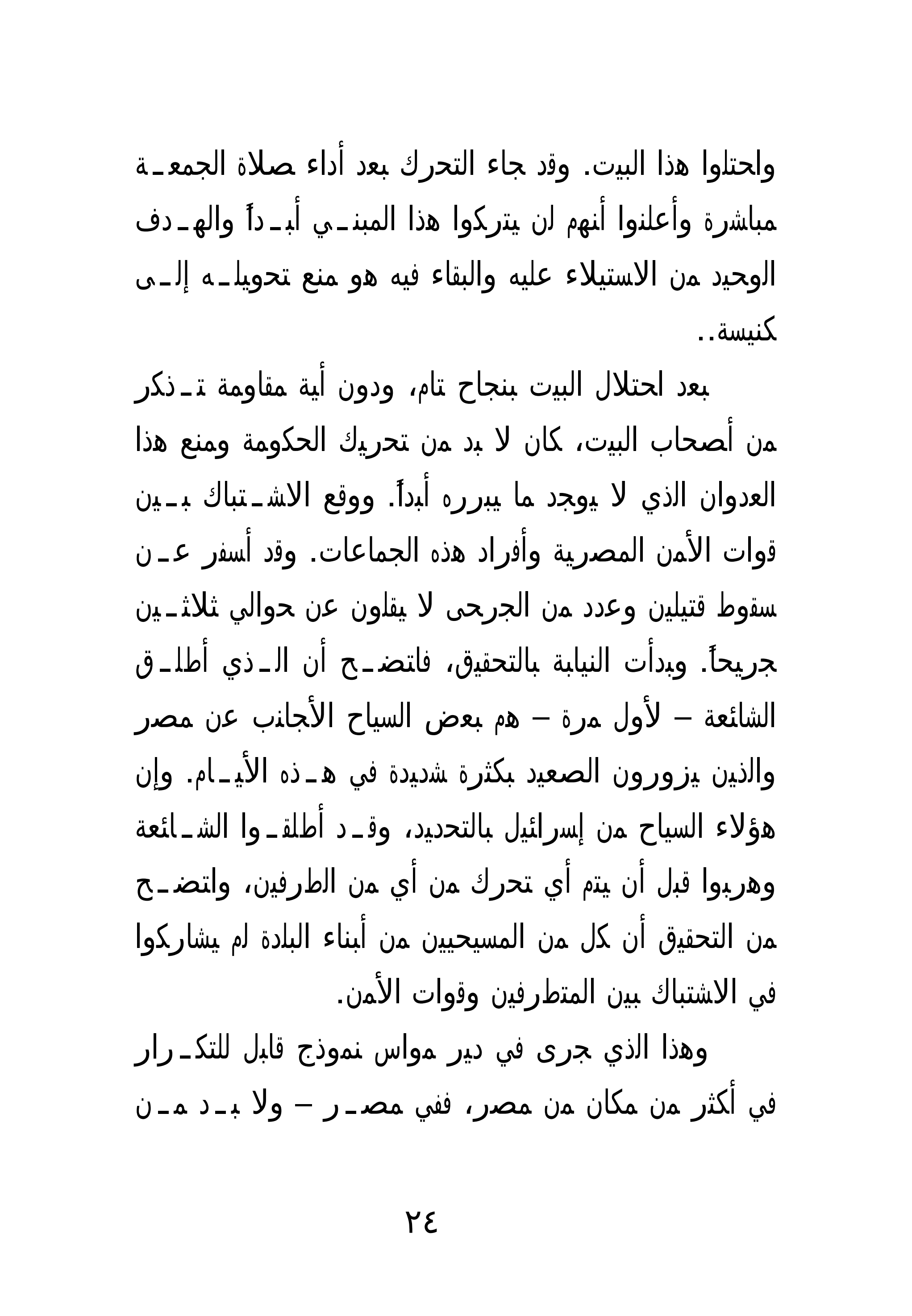
غير أن هذا التميز إنما يتم في سياق أن هذا الصـعيد جزء أصيل وفريد من مصر كلها، فالتشابه بين قرى الصعيد وقرى الوجه البحري ودلتا نهر النيل كثير، ومـن الصـعب إحصاؤه، والملامح المشتركة بين مدن الصـعيد الصـغيرة ومراكزه وبنادره ومدن الوجه البحري والـدلتا ومراكزهـا وبنادرها قائمة وموجودة.

فماذا جرى في مدينة دير مواس مؤخراً حتى أصبحت علماً يرد ذكره في كل إذاعات العالم ووكالات الأنباء بعد أن كانت مدينة منسية في منتصف الصعيد المصـري تمامـاً، والذي يمتد جنوب مدينة القاهرة حوالي ألف كيلو متر؟!

الذي حدث أنه سرت في البلدة شائعة تقـول أن أحـد البيوت المهجورة منذ فترة في المدينة سيتم تحويله إلى كنيسة في القريب العاجل. وأن الحكومة لم تصرح بتحويـل هـذا البيت القديم المهجور إلى كنيسة ومما أعطي هذه المسألة قوة التصديق، أن مالك هذا البيت أحد القسس من أبناء ديرمواس.

في الأسبوع الماضي قرر بعض الشبان من المتطرفين منع حدوث هذا، ولو لجأوا إلى القوة المسلحة، على الـرغم من أن الجهات المعنية في الكنيسة القبطية أعلنت بوضـوح تام أن الشائعة التي أطلقها مجهولون عن قرب تحويل البيت إلى كنيسة لا أساس لها من الصحة، وقد كررت السـلطات الدينية هذا الإعلان أكثر من مرة وبصـورة تضـمن بهـا وصوله إلى أكبر عدد من الناس.

وتحرك الشبان، وبعـد أن رفضـوا الاسـتماع إلـى التأكيدات الكثيرة بعدم تحويل البيت إلى كنيسة، ومعهم السلاح



واحتلوا هذا البيت. وقد جاء التحرك بعد أداء صلاة الجمعـة مباشرة وأعلنوا أنهم لن يتركوا هذا المبنـي أبـداً والهـدف الوحيد من الاستيلاء عليه والبقاء فيه هو منع تحويلـه إلـى كنيسة..

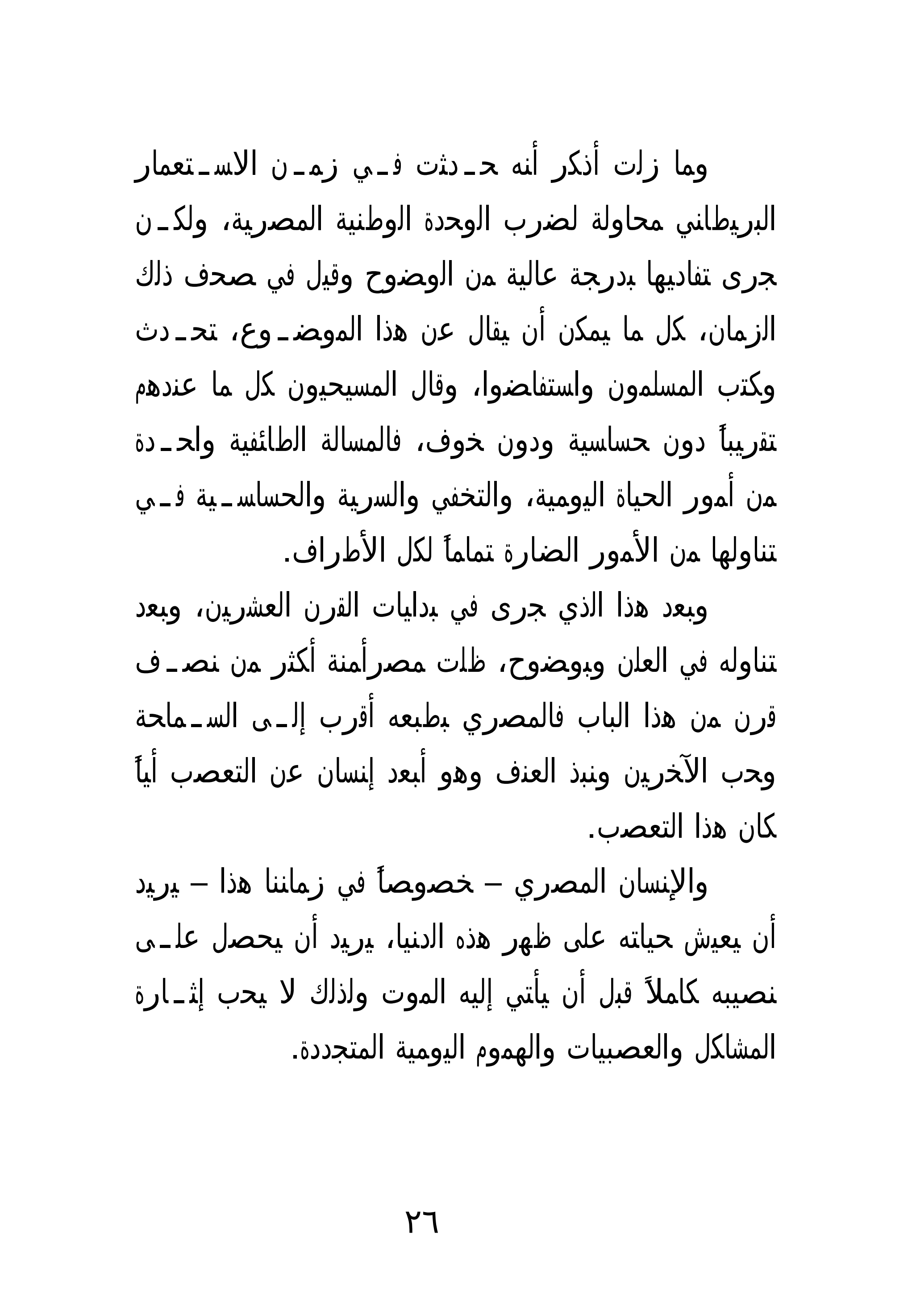
بعد احتلال البيت بنجاح تام، ودون أية مقاومة تـذكر من أصحاب البيت، كان لا بد من تحريك الحكومة ومنع هذا العدوان الذي لا يوجد ما يبرره أبداً. ووقع الاشـتباك بـين قوات الأمن المصرية وأفراد هذه الجماعات. وقد أسفر عـن سقوط قتيلين وعدد من الجرحى لا يقلون عن حوالي ثلاثـين جريحاً. وبدأت النيابة بالتحقيق، فاتضـح أن الـذي أطلـق الشائعة – لأول مرة – هم بعض السياح الأجانب عن مصر والذين يزورون الصعيد بكثرة شديدة في هـذه الأيـام. وإن هؤلاء السياح من إسرائيل بالتحديد، وقـد أطلقـوا الشـائعة وهربوا قبل أن يتم أي تحرك من أي من الطرفين، واتضـح من التحقيق أن كل من المسيحيين من أبناء البلدة لم يشاركوا في الاشتباك بين المتطرفين وقوات الأمن.

وهذا الذي جرى في دير مواس نموذج قابل للتكـرار في أكثر من مكان من مصر، ففي مصـر – ولا بـد مـن

الاعتراف بذلك – مسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة، وفيهـا أيضاً مسيحيون فيهم كل ملامح الأقليات النفسية وتصرفاتهم القريبة من ردود الأفعال عادة، هذه الردود التي تضخم كثيراً من أفعال الطرف الآخر وتحملهـا الكثيـر مـن الـدلالات والتفسيرات التي قد لا تحتملها مثل هذه التصرفات، ومهمـا كان في هذه التصرفات من حسن النوايا فإن حسن النية فـي ظل هذه الأجواء لا يكفي أبداً.

وهناك الطرف الذي يحاول كل يوم إشعال الموقف وله مصالح كثيرة في هذا، وأقصد الطرف الإسرائيلي الذي يتخذ من معاهدة كامب ديفيد شعاراً للتسلل إلى مصر، في الليـل وفي النهار، ويلعب على الورقة الطائفية دائماً في مصر.

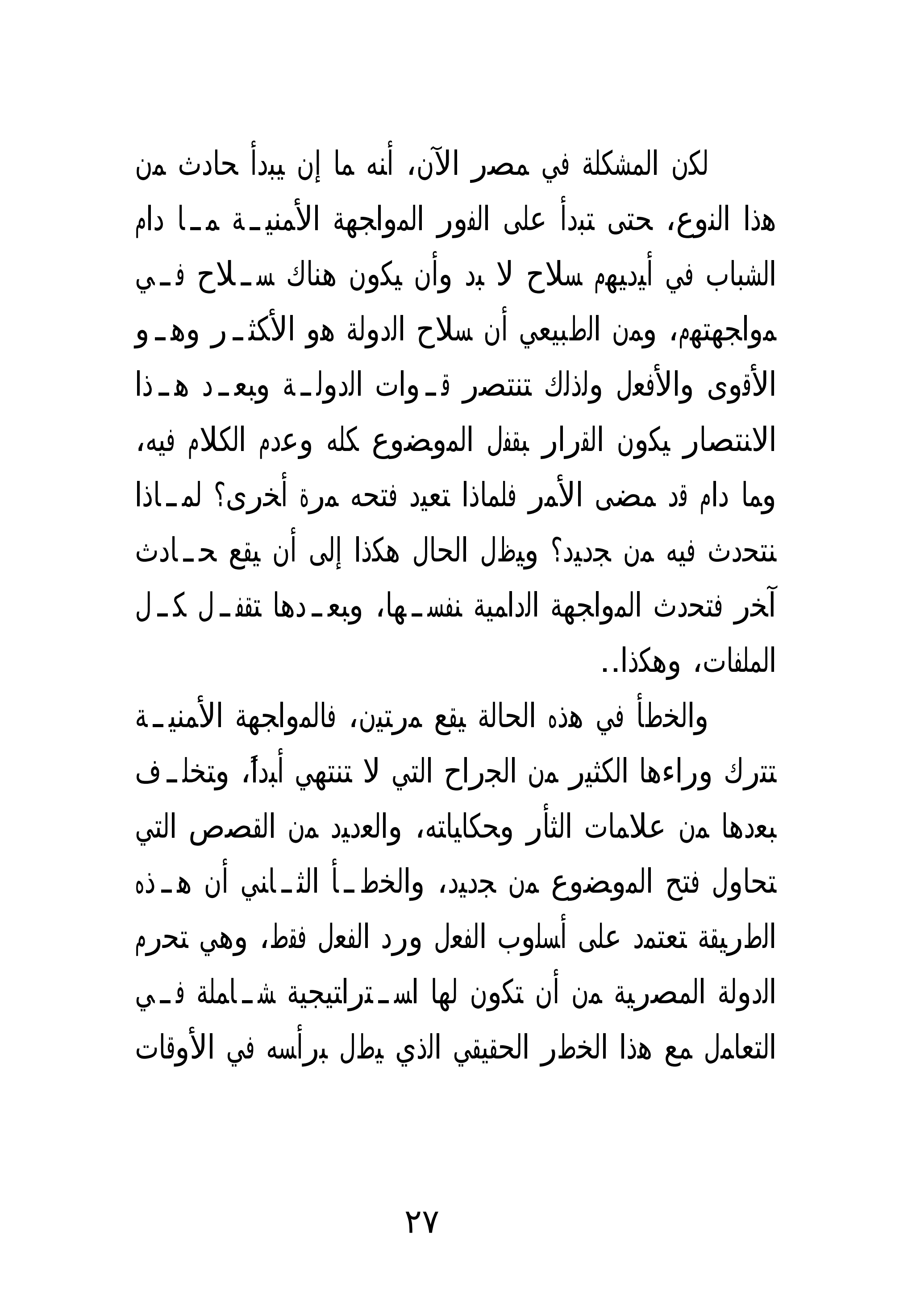
ولكن هذا في جانب، وفي الجانـب الأكثـر أهميـة، الطريقة التي نعالج بها قضية البعد الطـائفي فـي مصـر، وهناك دائماً حساسية شديدة من الحديث في هذا الموضـوع، ومحاولات دائمة لإخفائه وإبعاده عن النور والعلن والهـواء والمناقشات المفتوحة، مع أن العلنية والصراحة فـي النـور والهواء أفضل من إبعاده إلى سـراديب السـرية وضـبابية التناولات الغامضة.



وما زلت أذكر أنه حـدثت فـي زمـن الاسـتعمار البريطاني محاولة لضرب الوحدة الوطنية المصرية، ولكـن جرى تفاديها بدرجة عالية من الوضوح وقيل في صحف ذلك الزمان، كل ما يمكن أن يقال عن هذا الموضـوع، تحـدث وكتب المسلمون واستفاضوا، وقال المسيحيون كل ما عندهم تقريباً دون حساسية ودون خوف، فالمسالة الطائفية واحـدة من أمور الحياة اليومية، والتخفي والسرية والحساسـية فـي تناولها من الأمور الضارة تماماً لكل الأطراف.

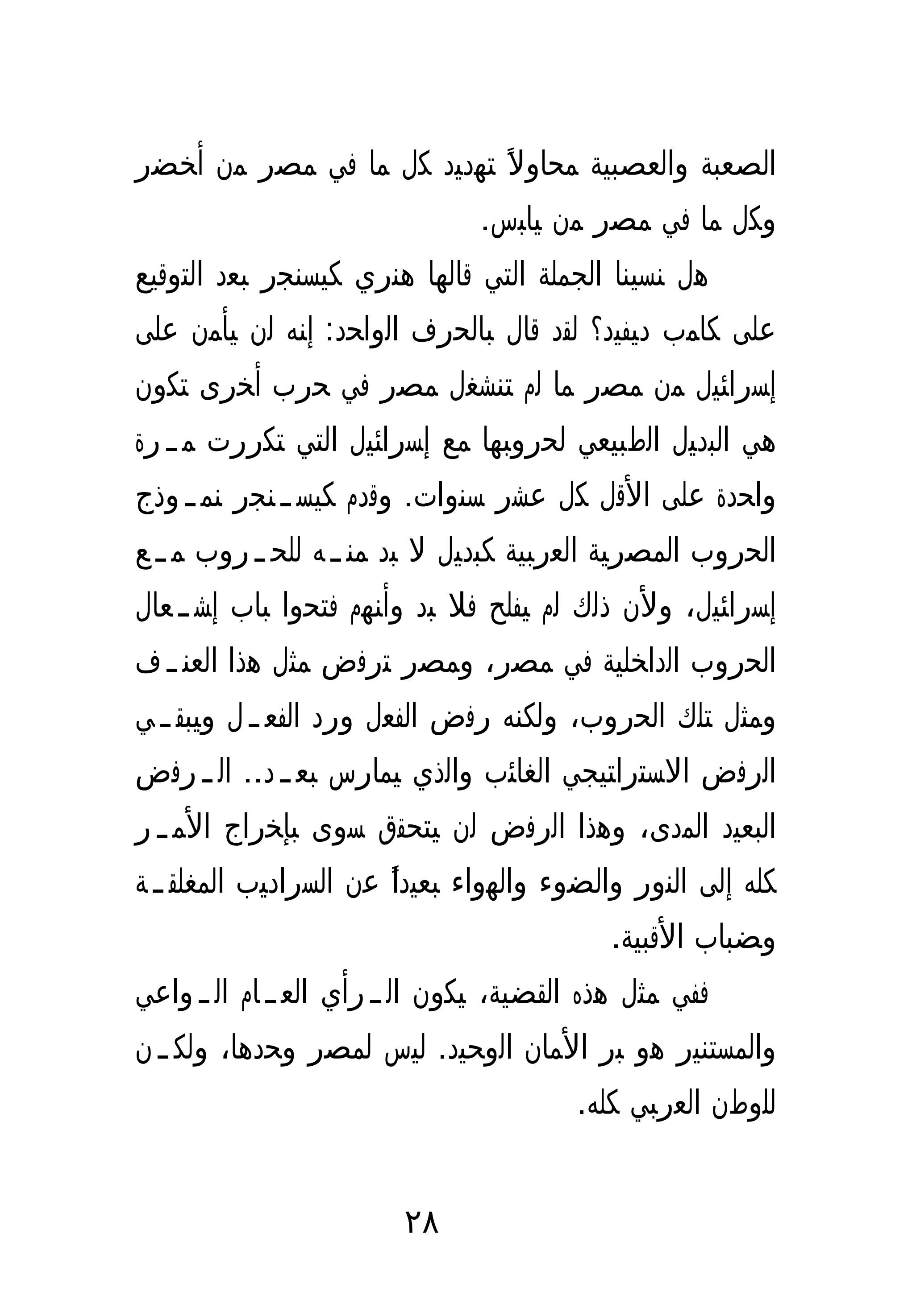
وبعد هذا الذي جرى في بدايات القرن العشرين، وبعد تناوله في العلن وبوضوح، ظلت مصرأمنة أكثر من نصـف قرن من هذا الباب فالمصري بطبعه أقرب إلـى السـماحة وحب الآخرين ونبذ العنف وهو أبعد إنسان عن التعصب أياً كان هذا التعصب.

والإنسان المصري – خصوصاً في زماننا هذا – يريد أن يعيش حياته على ظهر هذه الدنيا، يريد أن يحصل علـى نصيبه كاملاً قبل أن يأتي إليه الموت ولذلك لا يحب إثـارة المشاكل والعصبيات والهموم اليومية المتجددة.



لكن المشكلة في مصر الآن، أنه ما إن يبدأ حادث من هذا النوع، حتى تبدأ على الفور المواجهة الأمنيـة مـا دام الشباب في أيديهم سلاح لا بد وأن يكون هناك سـلاح فـي مواجهتهم، ومن الطبيعي أن سلاح الدولة هو الأكثـر وهـو الأقوى والأفعل ولذلك تنتصر قـوات الدولـة وبعـد هـذا الانتصار يكون القرار بقفل الموضوع كله وعدم الكلام فيه، وما دام قد مضى الأمر فلماذا تعيد فتحه مرة أخرى؟ لمـاذا نتحدث فيه من جديد؟ ويظل الحال هكذا إلى أن يقع حـادث آخر فتحدث المواجهة الدامية نفسـها، وبعـدها تقفـل كـل الملفات، وهكذا..

والخطأ في هذه الحالة يقع مرتين، فالمواجهة الأمنيـة تترك وراءها الكثير من الجراح التي لا تنتهي أبداً، وتخلـف بعدها من علامات الثأر وحكاياته، والعديد من القصص التي تحاول فتح الموضوع من جديد، والخطـأ الثـاني أن هـذه الطريقة تعتمد على أسلوب الفعل ورد الفعل فقط، وهي تحرم الدولة المصرية من أن تكون لها اسـتراتيجية شـاملة فـي التعامل مع هذا الخطر الحقيقي الذي يطل برأسه في الأوقات



الصعبة والعصبية محاولاً تهديد كل ما في مصر من أخضر وكل ما في مصر من يابس.

هل نسينا الجملة التي قالها هنري كيسنجر بعد التوقيع على كامب ديفيد؟ لقد قال بالحرف الواحد: إنه لن يأمن على إسرائيل من مصر ما لم تنشغل مصر في حرب أخرى تكون هي البديل الطبيعي لحروبها مع إسرائيل التي تكررت مـرة واحدة على الأقل كل عشر سنوات. وقدم كيسـنجر نمـوذج الحروب المصرية العربية كبديل لا بد منـه للحـروب مـع إسرائيل، ولأن ذلك لم يفلح فلا بد وأنهم فتحوا باب إشـعال الحروب الداخلية في مصر، ومصر ترفض مثل هذا العنـف ومثل تلك الحروب، ولكنه رفض الفعل ورد الفعـل ويبقـي الرفض الاستراتيجي الغائب والذي يمارس بعـد.. الـرفض البعيد المدى، وهذا الرفض لن يتحقق سوى بإخراج الأمـر كله إلى النور والضوء والهواء بعيداً عن السراديب المغلقـة وضباب الأقبية.

ففي مثل هذه القضية، يكون الـرأي العـام الـواعي والمستنير هو بر الأمان الوحيد. ليس لمصر وحدها، ولكـن للوطن العربي كله.

١٧ سبتمبر ١٩٨٨

اعترافات روائي

..عجيب أمر الروائيين العرب، ما أكثر مـا يكتبونـه عن الآخرين، وما أقل، بل ما أندر، ما يكتبونه عن أنفسـهم، صحيح أن بلزاك قال إنه وجد أقصى درجة من الحرية فـي الكتابة عن نفسه، وهو يفعل ذلك عندما كـان يكتـب عـن الآخرين.

لكن ما أقصده بالكتابة عن الذات المبدعـة للروائـي العربي المعاصر أمر آخر، أعني كتابة السـيرة الذاتيـة أو الترجمة الشخصية. أو كتابة تجربة العملية الإبداعية الروائية من خلال تجارب هذا الروائي أو ذاك.

هذا على الرغم من أن البدايات الأولى في الاجتهـاد الروائي العربي كانت كلها – أو معظمها – تجارب في كتابة السيرة الذاتية. سواء أكانت «زينب» محمد حسين هيكـل، أم «أيام» طه حسين، أم يوميات نائب في الأريـاف» لتوفيـق الحكيم، أم ((إبراهيم الكاتب)) لإبراهيم عبد القادر المـازني. وهذه كلها نصوص روائية لبست ثوب السيرة الذاتية.

الأجيال التالية في المغامرة الروائية العربية حاولـت الابتعاد تماما عن ذواتها ونفسياتها، واستبدلت هذا بالكتابـة

عن الآخرين. وأصبح ضمير الغائـب «هـو» هـو أكثـر الضمائر حضوراً في التجارب الروائية العربية.

صحيح أن هناك محاولة جريئة قام بها جمال الغيطاني مع نجيب محفوظ عندما حصل على اعترافات هامـة منـه ضمنها كتابه الفريد «نجيب محفوظ يتذكر» الذي قال نجيـب نفسه عنه: أنه بعد هذه المحاولة لم يعد لديه ما يقولـه عـن حياته الشخصية. وكان نجيب محفوظ قد قال من قبـل أنـه عندما انتهى من كتابة الثلاثية لم يعد لديه ما يكتبه عن حياته الشخصية.

وصحيح أن هناك كتاباً لعبد الحميد جودة السحار هو: «القصة من خلال تجاربي الذاتية» وكان الكتاب في الأصـل عبارة عن عدد من المحاضرات ألقاها الكاتب على طـلاب معهد الدراسات العربية في القاهرة ولكن هـاتين الحـالتين تؤكدان القاعدة ولا تقومان بنفيها.

فما زال الروائي العربي عاجزاً عن التحديق بداخلـه، وليست لديه الجرأة لكي يقدم تجاربه الحقيقيـة فـي الحيـاة والحب والموت. وكذلك تجاربه في الإبداع الروائي. وربمـا كانت طبيعة المجتمع العربي هي المسئولة عن ذلك، وثنائية

المواقف ولعبة الوجه الحقيقي والقناع المزيف هي السبب في هذه الحالة.

مع أن أدب البوح والاعتراف ومفاجأة النفس من أرقى أشكال الكتابة الأدبية على مر العصور كلها، وبقدر صـدق هذا النوع من الكتابة، فإنها تصل إلى قلـب مـن يقرؤهـا مباشرة دون وسيط حتى لو كان هذا الوسـيط عبـارة عـن الورق والحبر والأقلام.

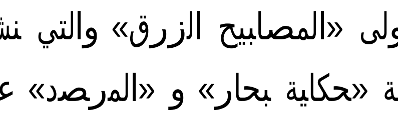
أكتب هذا كله، لأن روائياً عربياً كبيراً خرج مـؤخراً على هذه القاعدة . غير المكتوبة – وكتب اعترافاتـه فـي الكتابة الروائية، والروائي هو حنا مينه الذي أصدر مـؤخراً كتابه الجديد «هواجس في التجربة الروائية» الصـادر فـي بيروت، هذه المدينة التي ما زال لها دورها الفريد في حركة النشر العربية، برغم سنوات الحرب.

الكتاب سيرة ذاتية في مجال الإبداع الروائي، وإن كان يقدم الكثير من مفردات الحياة الشخصية والروحية لحنا مينه، أي أن الكتاب يقف في منتصف المسافة ما بـين المـذكرات الشخصية والترجمة الذاتية من ناحيـة، وتجـارب الكتابـة الإبداعية في ميدان الرواية من ناحية أخرى.

وحنا مينه واحد من أبناء هذا الجيل الذي عبر الفن الروائي على يديه، ليصبح فناً عربياً بالنسب والدم واللحم والحدث والشخوص، وهو التطور الذي يقوده الآن الروائي جمال الغيطاني في محاولة للوصول إلى نص روائي عربي مستوحى من التراث العربي.

وقد قابلت حنا مينه مرتين في حياتي، الأولى في القاهرة والثانية في دمشق، وذلك قبل أن يجري ما جرى وأن يحدث ما حدث، وتصبح سكة دمشق القاهرة غير سالكة.

وقرأت منذ سنوات الشباب المبكر إبداعاته الروائية. ابتداء من محاولته الأولى «المصابيح الزرق» والتي نشرت في مصر، وحتى عملية «حكاية بحار» و «المرصد» علاوة على كتابه عن ناظم حكمت وكتابه عن أدب الحرب الذي كتبه بالاشتراك مع الدكتورة نجاح العطار الكاتبة والناقدة والباحثة قبل أن تكون وزير للثقافة في سوريا.



على أن روايته «الشراع والعاصفة» تبقى عندي علامة هامة سواء في مسيرة حنا مينة الروائية أو مسار الرواية العربية. ذلك أنها تضع اللبنة الأولى في كتابه أدب البحر باللغة العربية. فالوطن العربي يطل على كل هذه

المساحات من البحار، ومع هذا فإن أدب البحار لدينا شاحب وباهت وهزيل. وفي تصوري أن «الشراع والعاصفة» فيهـا ذلك الحضور القوي والفريد لملحمة الإنسان والبحر، التـي كان من المفروض أن يكون لها حضور أقوى وأبعد وأعمق في التجربة الروائية العربية.

أهمية هواجس أو اعترافـات حنـا مينـه الروائيـة والحياتية أنها مكتوبة بدرجة عالية من الصدق الفني والصدق الإنساني، وتخلو من نرجسية المثقفين ونزيف الحديث الزائف عن الذات حيث تبدأ كل الجمل بكلمة «أنا» وأنها تقدم كاتبـاً عصامياً، كون نفسه بنفسه وثقف نفسه بنفسه. تخـرج مـن مدرسة الحياة الدنيا بكل ما فيها. ودخل إلى الكتابة الأدبيـة من بابا العمل الوطني والكفـاح الـوطنى ضـد المسـتعمر والمحتمل الأجنبي.

ويعجبني في هذا الروائي العربي الكبير ثباتـه علـى موقفه المتقدم من قضايا واقعه، في زمن يمتلئ فيه المسـرح الثقافي بالذين ارتدوا وغيروا مواقفهم حسب الريح المؤاتيـة، وما أكثر المفكرين والكتاب الذين انحنوا أمام التيار السـلفي وتراجعوا عن قناعات سابقة بحجة إعادة النظـر ومراجعـة

النفس، وإن كان السبب الحقيقي في هذه المواقف هو حالة من الانتهازية السياسية.

أيضاً أقدر في حنا مينه بقاءه في الوطن، وعدم هجرته له، مهما كانت الظروف الأسباب، ومهما كانت تضاريس العلاقة بين الكاتب والمفكر والسلطة الحاكمة في وطنه وترمومتر هذه العلاقة، ألا إن البقاء على أرض الوطن والمرابطة في الديار أغلى وأعز من أي هجره كانت بصرف النظر إلى أية أرض كانت هذه الهجرة.

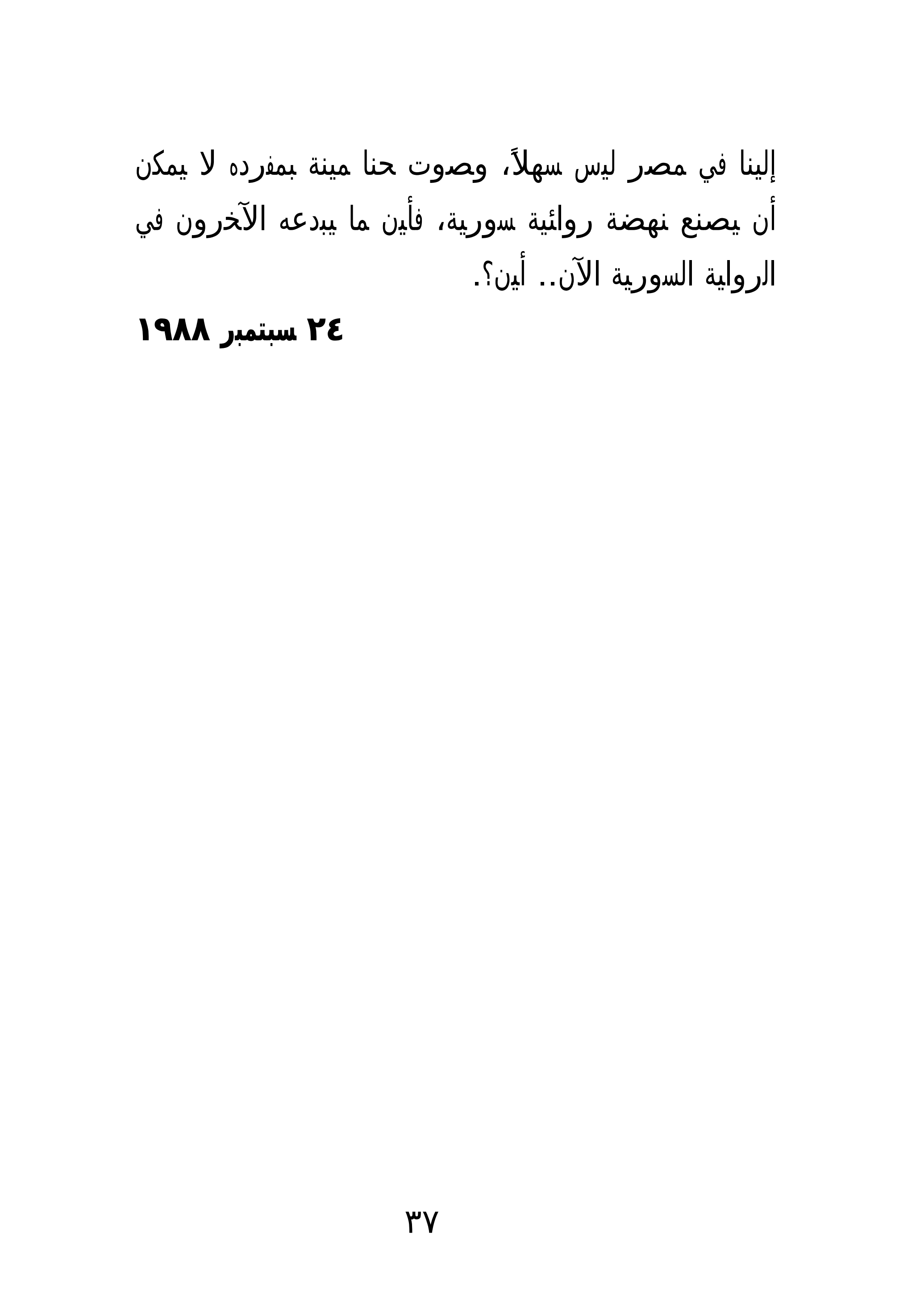
كل سطور كتاب حنا مينه الجميل، تنطق بحب هذا الرائد لفن القصة والرواية، بل إن الكتاب نفسه مكتوب بروح حكاء من الطراز الأول، جاء إلى هذا العالم ليحكي ولكن بطريقته الخاصة والفريدة. وكل روائي كبير لا بد وأن يحب الناس، وأقصد الناس البسطاء والعاديين ويرتبط بهم، ويكون جزءاً من الزمان والمكان الذي جاء إليه. وذلك أحد أسرار الحياة الصاخبة في روايات حنا مينه.

وحنا مينه يقول في كل سطر من كتابه الهام، أنه شديد الارتباط بأهله وناسه ومكانه وزمانه، وحاول عبر نتاجه الروائي أن يعبر عنهم بصورة فنيه جميلة ونادرة.

إن هواجس حنا مينه في التجربة الروائية درس هـام وبسيط لنا نحن الروائيين العرب، فـي التواضـع والرغبـة الصادقة في التعلم والمعرفة منذ اليوم الأول وحتـى اليـوم الأخير من العمر، ذلك أنه لأول مرة أجد مثقفاً عربياً يفتخر أنه كان حلاقاً وكان له صالوناً وفي هذا الصـالون.. بـدأت علاقته بالعمل العام والرواية، في حين أن هذا الكلام لو كتب عن روائي آخر من الروائيين إياهم لاعتبره نوعاً من الهجوم عليه، وبدأ على الفور في الدفاع والرد وكأن هذا القول يقلل من قيمته.

في تجربة حنا مينة كثير من القـراءات الهامـة فـي التجربة الإنسانية، وقد بقى لهذه القـراءات صـداها، لأنهـا مورست مثل فعل الكتابة وفعل الحياة بأكبر قدر من الصدق، أن الصدق هو كلمة السر والإكسير النادر لكل مـن يكتـب. واللغة لا تسلم نفسها لغير الصادقين، وما كتبـه حنـا مينـة وصل إلى القلب لأنه خرج من قلب صادق، قبل أي اعتبـار آخر.

إن ما كان يشغلني طوال قراءة هذا الكتاب – الوثيقـة هو حال الرواية في سوريا الآن. إن وصول الكتاب السوري



إلينا في مصر ليس سهلاً، وصوت حنا مينة بمفرده لا يمكن أن يصنع نهضة روائية سورية، فأين ما يبدعه الآخرون في الرواية السورية الآن.. أين؟.

٢٤ سبتمبر ١٩٨٨

العيش والملح

... ((الخبز الطبـاقي)) تعبيـر جديـد، يمـلأ حيـاة المصريين الآن ليلاً ونهاراً والتعبير الجديد لـيس اختراعـاً لغوياً، ولكنه كان موجوداً في الأسواق منذ سـنوات ولكـن دخوله إلى حياة مصر السياسية، بدأ في احتفالات عيد الفلاح المصري التي جرت في الأسبوع الأول من أيلون (سبتمبر* الماضي.

في هذه الاحتفالات تحدث الرئيس حسني مبارك وقال إنه فكر في أن تقوم الحكومة بعمل (العيش الطباقي) بدلاً من ترك صناعته للقطاع الخاص الذي يصـنعه ويبيعـه غاليـاً للناس.

والعيش الطباقي هو الذي يطبق أكثر من مـرة أثنـاء عملية خبزه، وهو أفضل وأجود وأحسن من الخبـز الـذي تصنعه مخابز الدولة ولكن لا بد من القول أنه أغلى فخبـز الدولة المدعوم يباع الرغيف بقرشين . أما هذا الطباقي فيباع بسعر يبدأ من الخمسة قروش ويصل إلى العشرة قروش في بعض الأحيان.

وهو خبز خارج على القانون، وبعضـه يصـنع فـي البيوت، وهو لا يباع في أى محلات، ولكن يقف به الأطفال والنسوة والشيوخ على طرق السيارات السريعة في القـاهرة لكي يشتريه أصحاب السيارات، لأن من يصنعون هذا النوع من الخبز يعرفون أن هناك فئة معينة قادرة على دفع خمسة قروش أو عشرة قروش أو أي رقم بينهما، ثمنـاً لرغيـف خبز، هذه الظاهرة كانت في القاهرة فقط وعند مدخل الأحياء الراقية بالتحديد.

كان كل مصري ينتظر من الدولة أن تقـوم بـأمرين، أولهما: أن تحسن إنتاج الخبز المسعر من قبل الدولة، حتى لا يضطر الفقراء أيضا للشراء من خبز أصـحاب السـيارات وثانيهما أن تقنن وتسعر هذا الخبز الخارج على القانون.

في هذه الأثناء كانت وفود صندوق المتاعب في العالم الثالث، عدو الفقراء الأول في عالم اليوم، الذي نقول عنه من باب الخطأ في التعامل اللغوى: «صندوق النقد الدولي» كانت وفود الصندوق تروح وتجيء وتتحدث في كل مرة عن سعر الخبز وأن السبب الوحيد في ارتفاع معدلات استهلاك الخبز هو رخص ثمنه وأن من يربون الماشية يقدمون لها الخبـز

لأنه أرخص من العلاف، وهكذا لا حل، في نظر الصـندوق، سوى رفع أسعار الخبز في مصر أولاً، ثم يبدأ الكـلام بعـد ذلك وعلاقة مصر بأي رفـع للأسـعار شـديدة الحساسـية والتعقيد معاً، فعندما كان يتم رفع أي سعر لأي سلعة، كـان يقال تحريك السعر، ولا بد من تغيير شكل السلعة حتى يكون هناك مبرر قوي لتحريك سعرها وليس لرفعه، فقد كانت آخر مرة تعلن فيها زيادة للأسعار هى سنة ١٩٧٧ والتي أدت إلى التظاهرات الشهيرة.

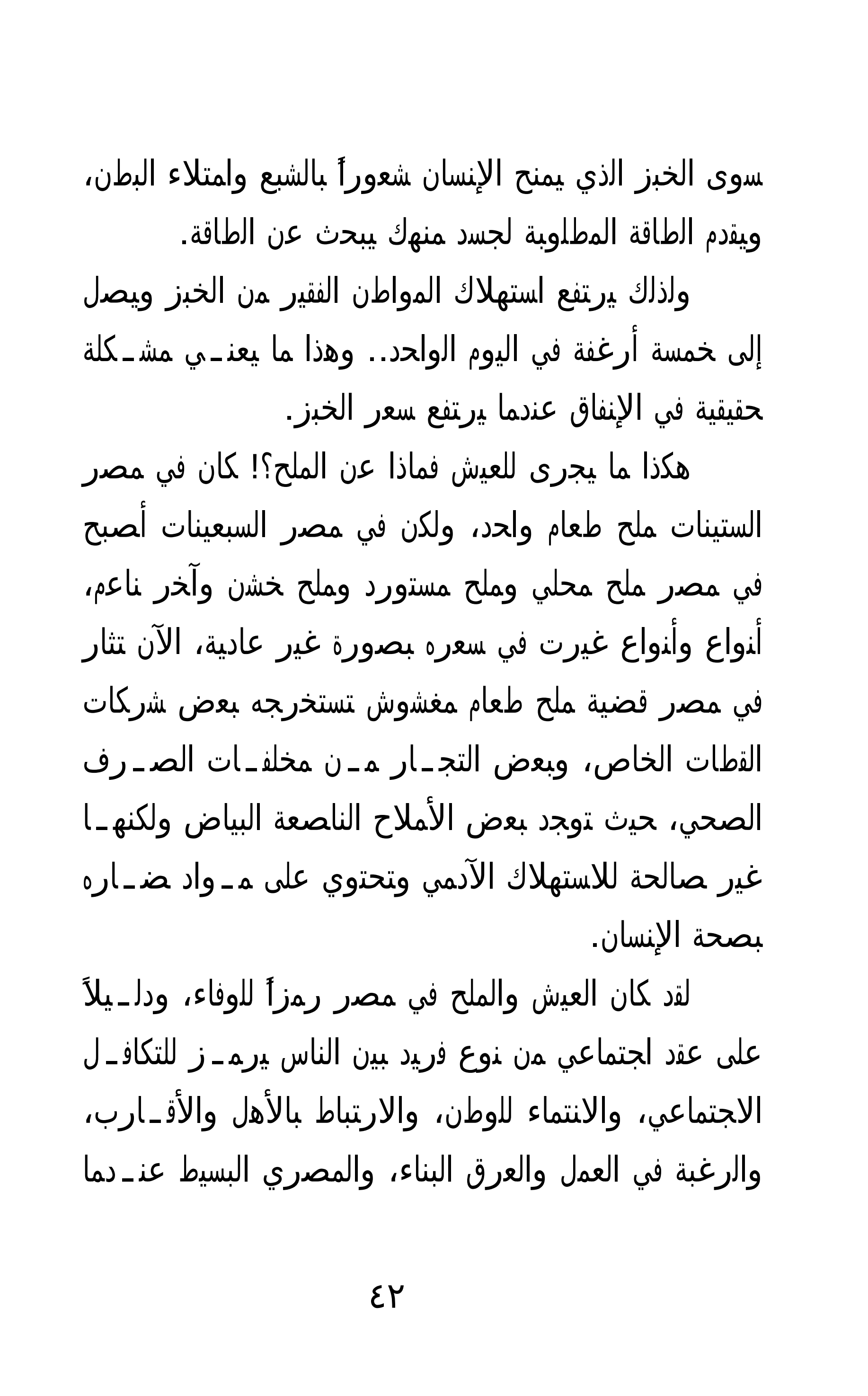
ولكن صندوق إثارة المتاعب، أقصد صـندوق النقـد الدولي، وضع العقدة أمام المنشار وسد أذناً بالطين والأخرى بالعجين، ومضى، وكان لا بد من حل، وجاء الحل من سماء صندوق النقد الدولي السابعة وكان اسمه ((الخبز الطباقي)).

وفي اليوم التالي مباشرة قال الناس في الشوارع عنـه «العيش الطبقي» لأن قيام الدولة بصناعته معناه أن الأسعار سترتفع أكثر من ٣٠٠% لقد استشهد عبد الناصـر وسـعر الرغيف خمسة مليمات. وكان رغيفاً واحداً وموحـداً لكـل المصريين من باب الشعرية حتى الزمالك، ولكـن السـادات أحال رغيف الخمسة مليمات إلى المعاش ولا وجود لـه الآن

سوى في متحف الخبز المصري، الكائن في وزارة الزراعة، وأصبح سعر الرغيف عشرة مليمات، ثم ظهرت في مصـر تضاريس طبقية، واجتماعية أخرى جعلت هناك أكثـر مـن رغيف له أكثر من سعر، وهكذا استقر سعر الرغيف عنـد العشرين مليماً، أي قرشان وبعد سـقوط رغيـف العشـرة مليمات فإن رغيف العشرين مليما يبدو مهدداً بـالزوال فـي هذه الأيام لكي يدخل إلى الساحة رغيف يبـدأ سـعره مـن الخمسين مليماً ويصل إلى المائة مليم. أي من خمسـة إلـى عشرة قروش.

بعد أن تحدث الرئيس في خطابه على الهـواء عـن الرغيف الطباقي بساعات، أعطـى رئـيس وزراء مصـر تعليماته لوضع دراسة عاجلة حول الموضوع، ثم يومان فقط وكانت وزارة التموين على أهبة الاستعداد للبدء في التجربة، وهكذا تحولت الفكرة إلى قرار سياسي.

والخبز هو الآن المادة الرئيسية على المائدة المصرية للسواد الأعظم من شعب مصر. وذلك بعد اختفاء اللحوم التي تمثل البروتين وتراجـع الخضـر والفواكـه التـي تقـوم الفيتامينات، حيث لم يبق من المواد التي تقدم الطاقة للإنسان



سوى الخبز الذي يمنح الإنسان شعوراً بالشبع وامتلاء البطن، ويقدم الطاقة المطلوبة لجسد منهك يبحث عن الطاقة.

ولذلك يرتفع استهلاك المواطن الفقير من الخبز ويصل إلى خمسة أرغفة في اليوم الواحد.. وهذا ما يعنـي مشـكلة حقيقية في الإنفاق عندما يرتفع سعر الخبز.

هكذا ما يجرى للعيش فماذا عن الملح؟! كان في مصر الستينات ملح طعام واحد، ولكن في مصر السبعينات أصبح في مصر ملح محلي وملح مستورد وملح خشن وآخر ناعم، أنواع وأنواع غيرت في سعره بصورة غير عادية، الآن تثار في مصر قضية ملح طعام مغشوش تستخرجه بعض شركات القطات الخاص، وبعض التجـار مـن مخلفـات الصـرف الصحي، حيث توجد بعض الأملاح الناصعة البياض ولكنهـا غير صالحة للاستهلاك الآدمي وتحتوي على مـواد ضـاره بصحة الإنسان.

لقد كان العيش والملح في مصر رمزاً للوفاء، ودلـيلاً على عقد اجتماعي من نوع فريد بين الناس يرمـز للتكافـل الاجتماعي، والانتماء للوطن، والارتباط بالأهل والأقـارب، والرغبة في العمل والعرق البناء، والمصري البسيط عنـدما

كان يجد قطعة خبز في الأرض يأخذها ويقبلها ويضعها فـي مكان عزيز فهي نعمة من ا ، والنعمة لا بـد وأن تقـدس وعندما يخرج المصري إلى العمل، يقول أنه يجـري وراء لقمته.

إن العيش والملح هما آخر حصون التماسك الاجتماعي في مصر الراهنة، دعونا من الأسعار، فلـن أتحـدث عـن ميزانية الأسرة المصرية ولا عن العبء الجديـدة، فحـديث الأرقام خداع لا يجب أن ننصت لعلمـاء الاقتصـاد عنـدما يقولون أن رفع سعر الخبز سيؤدي إلى التقليل من الاستهلاك ويعود لخزانة الدولة بكذا مليون من الدولارات لتذهب كـل دولارات العالم إلى الجحيم، ولكن الخبز ليس سـلعه تبـاع وتشترى ويتم التحكم بسعرها عن طريق الدولة. أنـه كلمـة السر النادرة في سر استقرار هذا المجتمع على مدى سـبعة الاف سنة. أنه مفتاح الضبط الاجتماعي ومنظم إيقاع الواقع الاجتماعي في مصر ليقل صندوق النقد الدولي مـا يريـده، فالمصريون أدرى بشعاب مصر ودروبها، ودلوني على دولة واحدة في العالم أوصلتها وصفة هذا الصندوق إلى أي أمـان

من أي نوع كان. إن وصفات الصندوق عـادة هـي بدايـة المتاعب.

يقول البسطاء والقراء في مصر أن العيش هو مسمار البطن، أي الأساس لكيان الإنسان نفسه فهل يستطيع العـيش الطبقي أن يكون مسمار بطن مصر؟! وهـل يقبـل العـيش الطبقي أن يكون مسماراً من الأساس؟ خصوصاً عندما يكون هذا المسمار من أجل بطون الفقراء والغلابة؟!.

١ أكتوبر ١٩٨٨

في بيت عبد الناصر

عندما أبلغت صديقي وزميلي في «المستقبل» أسعد حيدر أننا سنذهب في المساء إلى بيت جمال عبد الناصر، طلب مني أن أبحث له عن ربطة عنق تناسب الرحلة، فكل ما معه من أربطة العنق التي أحضرها من باريس لا تصلح، فيها ألوان حمراء، فحمدت ا أنني لا أتعامل أبداً مع أي رباط للعنق وأن بيني وبين أربطة العنق جميعا مهما كانت ألوانها وأنواعها وأقمشتها وداً مفقوداً.

اليوم هو الأربعاء الثامن والعشرون من أيلول (سبتمبر)، اليوم هو ذكرى رحيل جمال عبد الناصر عن عالمنا منذ ١٨ عاماً ومنذ الرحيل وأسرة عبد الناصر تعودت على أن تذهب إلى ضريحه في الصباح وأن تستقبل من يشاركون الأسرة المناسبة سواء من مصر أو من الوطن العربي أو من العالم في منزله في المساء، أما الندوة أو الاحتفال السياسي بذكرى رحيله فيقام في اليوم التالي في نقابة المحامين المصريين وتحضره كافة القوى الوطنية.

وأنا شخصياً لا أفهم لماذا نحتفل نحن المصريين بالموت أكثر من احتفالنا بالحياة؟ لماذا نحتفل بذكرى رحيل

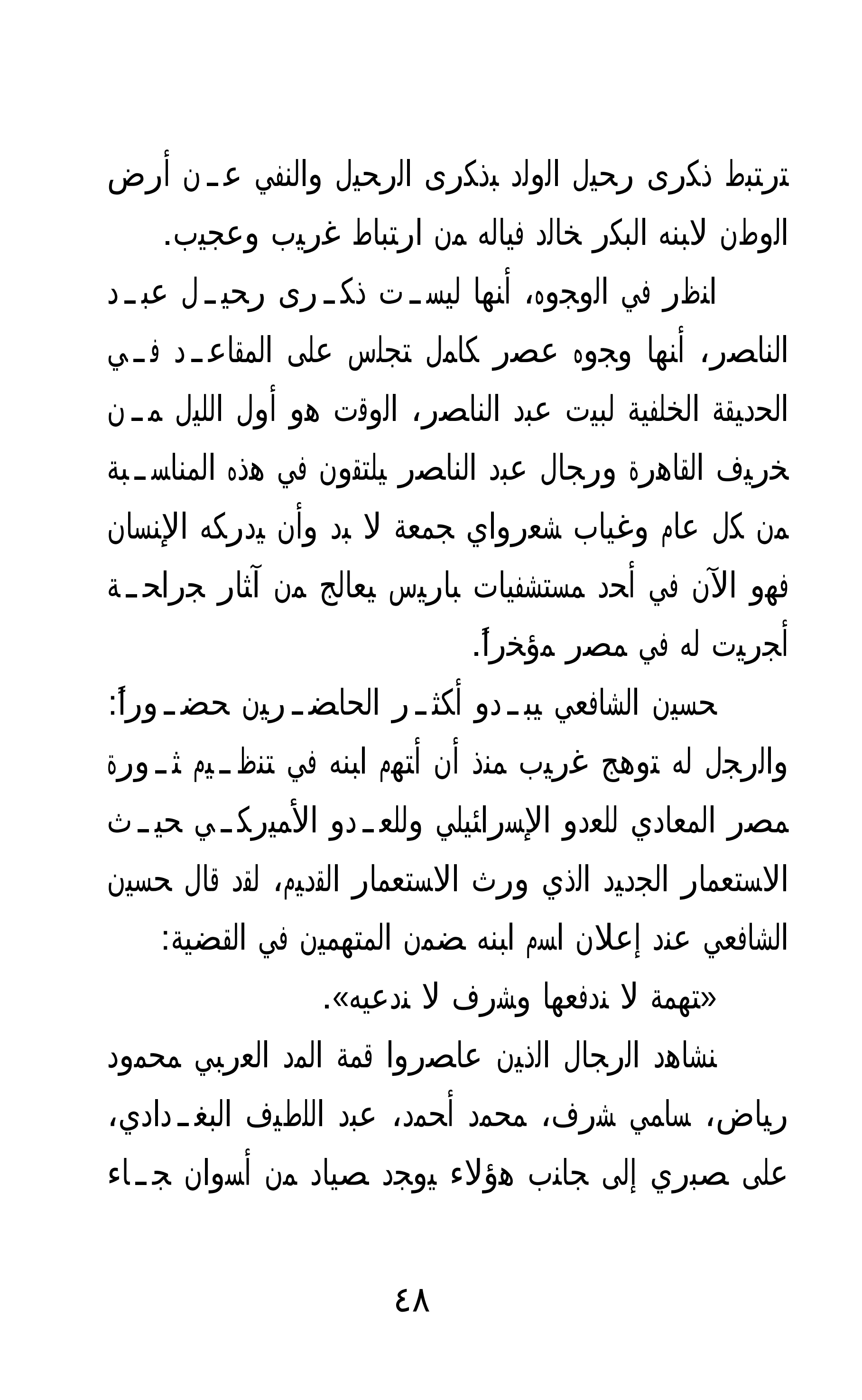
عبد الناصر أكثر مما نحتفل بذكرى ميلاده؟ فـي منتصـف كانون الثاني (يناير) مرة كل عام، إن لنا علاقة غريبة مـع الموت أكثر من علاقتنا بالبعث والنشوء والحياة.

الشارع الذي يقع فيه البيت معتم، من أن الرجل الـذي أقام هنا عشرين عاماً أضاء مصر والـدنيا والعـالم الثالـث بثورته الشامخة، وفي العتمة ثمة سـيارة دوريـة شـرطة عسكرية تمسح الشارع الخالي المفروش بالصمت والظـلام، وأمام البيت عدد من رجال الحراسة، منهم الأوفيـاء الـذين ظلوا مع الأسرة منذ زمان عبد الناصر، ومنهم من أتى بهـم زمان ما بعد عبد الناصر إلى هذا المكان. دخلنا البيت هنـا كان الرجل في هذه الحديقة، كان يجلس يقرأ الصحف يتـابع ما يجرى في عالم اليوم، هنا بيت الـروح لأجيـال جديـدة خرجت إلى الحياة هذا الرجل بثورته العظيمة فـي مصـر، اتجهنا إلى المبني، فلحق بنا أحد رجال الحراسة ولفت نظرنا إلى أن الصالون الداخلي مخصص للنساء، أما الرجال فلهـم الحديقة الخلفية للبيت، تعجبت في سري لقد كان عبد الناصر مشغولا بقضية تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، وبالتأكيـد فهو لا يرضى بهذه التفرقة الغريبة بـين النسـاء والرجـال

وطوال عمره لم ينظر للمرأة المصرية على أنها امرأة، ولكن على أنها إنسانة أولا وقبل أي اعتبار آخر، لقد حاول جهـده طوال عمره أن يغلق الباب نهائيا على عصر الحريم الـذي امتد منذ زمن الترك المظلم، وأول صحفية وأول سفيرة وأول وزيرة وأول عاملة كلهن جئن إلى مصر في زمانـه وفـي عصره.

في الحديقة يجلس في المقدمة الدكتور حـاتم صـادق وهو يتوسط عبد الحميد عبد الناصر وعبـد الحكـيم عبـد الناصر نجلا عبد الناصر وحاتم صادق موجود وحاضر في أي مناسبة تخص عبد الناصر.

هو أول الحاضرين دائماً وآخر المنصـرفين أيضـاً، ووجوده علامة هامة لا تخطئها العين، في هذا المكان كـان يقف الدكتور المهندس خالد جمال عبد الناصر بقامته الفارعة وطوله الذي يحاكي الشجرة العالية التي يقف تحتها، ولكـن خالد عبد الناصر هذا العام، ولأول مرة، بعيد عـن مصـر، غائب حاضر، موجود وغير موجود، حيث يعيش الآن فـي المنفى في بلغراد عاصمة يوغسلافيا، منذ أن أعلنت قضـية ثورة مصر في مثل هذه الأيام من العام الماضـي، وهكـذا



ترتبط ذكرى رحيل الوالد بذكرى الرحيل والنفي عـن أرض الوطن لابنه البكر خالد فياله من ارتباط غريب وعجيب.

انظر في الوجوه، أنها ليسـت ذكـرى رحيـل عبـد الناصر، أنها وجوه عصر كامل تجلس على المقاعـد فـي الحديقة الخلفية لبيت عبد الناصر، الوقت هو أول الليل مـن خريف القاهرة ورجال عبد الناصر يلتقون في هذه المناسـبة من كل عام وغياب شعرواي جمعة لا بد وأن يدركه الإنسان فهو الآن في أحد مستشفيات باريس يعالج من آثار جراحـة أجريت له في مصر مؤخراً.

حسين الشافعي يبـدو أكثـر الحاضـرين حضـوراً: والرجل له توهج غريب منذ أن أتهم ابنه في تنظـيم ثـورة مصر المعادي للعدو الإسرائيلي وللعـدو الأميركـي حيـث الاستعمار الجديد الذي ورث الاستعمار القديم، لقد قال حسين الشافعي عند إعلان اسم ابنه ضمن المتهمين في القضية:

«تهمة لا ندفعها وشرف لا ندعيه».

نشاهد الرجال الذين عاصروا قمة المد العربي محمود رياض، سامي شرف، محمد أحمد، عبد اللطيف البغـدادي، على صبري إلى جانب هؤلاء يوجد صياد من أسوان جـاء

من آخر نقطة في جنوب مصر لكي يشارك فـي المناسـبة، يجلس حزيناً يداه متشابكتان بين فخديه وعيناه مثبتتان علـى قدميه ودموع مقدسة تفح في هدوء غير عادي وتنحدر الدمعة الواحدة في خده تسير في التجاعيد، والوجه كله يبدو غابـة من التجاعيد تمشي الدمعة بين شعيرات بيضاء لـم يحلقهـا الرجل إلى أن تستقر في احد التجاويف الكبيرة في الخد.

عامل من كفر الدوار، جاء من أبعد مكان في شـمال مصر، فلاح، من مديرية التحرير حلم عبد الناصر في غزو الصحراء وتحويلها إلى أرض زراعية، لكني عندما شـاهدته وعرفته همست بداخلي: سائق، حلاق، مواطن فلسطيني من لندن حيث يعمل جاء ليشارك في هـذه المناسـبة، مناضـل عربي سافر خصيصاً من منفاه لكي يجلس هـذه اللحظـات العابرة في بيت عبد الناصر، إنهم رموز عبد الناصر الـذي امتد حتى شمل داخله كل الوطن العربي.

هذا العام تأتي ذكرى استشهاد عبد الناصر في مواجهة أقسى درجة من درجات الحملة ضده، سواء بكتاب اعتمـاد خورشيد أو بهجمة إسرائيل وأمريكا الشرسة وفلول ما قبـل يوليو أو بكتاب أنيس منصور الذي نزل إلى الأسـواق يـوم

ذكراه ((عبد الناصر المفتري عليه والمفتري علينـا)) لقـد تصوروا جميعاً أن الفرصة قد جاءت أخيراً، وهكذا خرجت الخطط من أجل الإجهاز على عبد الناصـر الـذي يـزداد التمسك العربي والمصري والعالمي به يوماً بعد يـوم، لأن كل ما يجري لنا يجعلنا أن اختياره كان هو الاختيار الأقرب إلى الصواب، إن لم يكن هو الصواب نفسه، وأخطـاء مـن جاءوا بعده هي التي جعلتنا ندرك أنه كان الصواب يمشـي على قدميه، أقول الصواب الوطني أولا وأخيراً.

لكننا قابلنا عبد الناصر مرة أخرى في الليلـة نفسـها، فعندما قادتنا أقدامنا إلى حي سيدنا الحسين الشعبي حيث غابة من المآذن التي تشرب من قلب سماء القاهرة، أبـدي أسـعد حيدر رغبته بأن يشرب عصير المانجو، وقفنا أمـام محـل لعصير القصب وبينما نحن نطلب من ابـن البلـد صـاحب المحل عصى المانجو إذا بعبد الناصر يطل علينا بابتسـامته التي كانت قادرة على امتصاص كـل اضـطرابات الكـون ونظراته القادرة على قراءة كل ملامح الزمن الآتي.

اكتشف صاحب محل العصير أننا نحدق بعبد الناصـر فاستدار إلينا وغسل التراب عن الصورة، وكأن الرجل قـد

أحب أن يعلن رأيه في كافة الحملات الموجهة ضد الرجـل والتي اشتدت بصورة لم تحدث منذ رحيله فـي مثـل هـذه الأيام، عندما مددت يدي لأدفع ثمن العصير الذي شربه أسعد حيدر، فأنا لم أشرب عصيراً ولا أشربه منذ أن أتاني السكر هذا الضيف الغريب والسخيف، رفض الرجـل أن يحصـل على الثمن. لقد أدرك أنه يجمعنا بـه حـب صـاحب هـذه الصورة المعلقة خلفه.

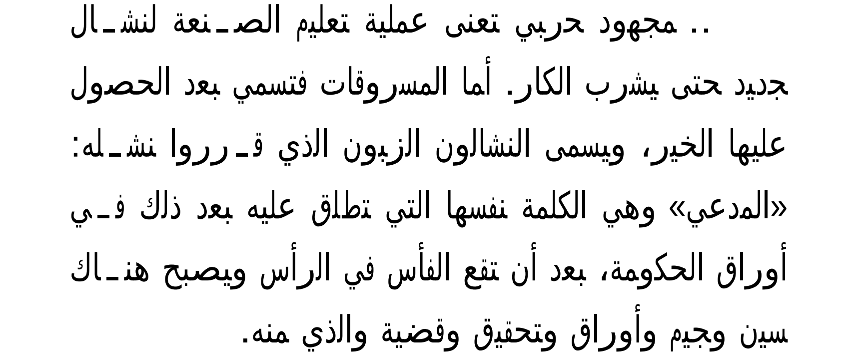
لقد تزامنت ذكرى مرور ١٨ عاماً على رحيـل عبـد الناصر مع ذكرى مرور عشر سنوات على توقيـع كامـب ديفيد، تقابلت الذكريات فأي سخرية مريرة يفعلها بنـا هـذا الكائن الخرافي الذي اسمه التاريخ، فكـرت أن أقـف فـي منتصف شارع الأزهر لكي أقول له رحمـة بنـا يـا أيهـا التاريخ، ولكن هل رحمنا أنفسنا أولا ورحمناه ثانياً باعتبـاره تاريخنا حتى يرحمنا نحن.

جئت من بيت الروح إلى جحيم الأسئلة، لا أجرؤ على الاقتراب من الإجابات الحقيقية عليها كانت الذكريات ذكرى استشهاد عبد الناصر منذ ١٨ عاماً وذكرى توقيع كامب ديفيد منذ عشر سنوات تتصارعان في سماء القاهرة، قاهرة الألف

مئذنة والألف ذكرى وذكرى، قلت لنفسي لن يرحمنا التاريخ، هذا الكائن المهول والخرافي ما لم نستطع نحن أولا أن نرحم أنفسنا.

٨ أكتوبر ١٩٨٨

لغة النشالين والحرامية



.. مجهود حربي تعنى عملية تعليم الصنعة لنشال جديد حتى يشرب الكار. أما المسروقات فتسمي بعد الحصول عليها الخير، ويسمى النشالون الزبون الذي قرروا نشله: «المدعي» وهي الكلمة نفسها التي تطلق عليه بعد ذلك في أوراق الحكومة، بعد أن تقع الفأس في الرأس ويصبح هناك سين وجيم وأوراق وتحقيق وقضية والذي منه.

والنشل أنواع وأشكال، هناك النشل على الطاير والنشل على المساجد، والنشل على الماشي بالهزار أما النشل على الطاير فيتم من خلال الاصطدام بشخص يمشي في طريق عام، ويجب أن يتم الأمر كله بمجرد وقوع عملية الصدام وليس قبلها وليس بعده، ولا بد أن تتم العملية في أقل من لمح البصر.

والنشال يعتمد بدرجة أساسية على المهارة في أصابع اليدين، فيقال أن أصابعه يجب أن يتم لفها في الحرير، ويتدرج الأمر من الحرير إلى القماش العادي إلى الخشب إلى القصدير إلى الحديد.

وإن كان لف الأصابع في الخشب يقال عـن النشـال الخائب، غير الماهر، فإن اللف في الحديد يقال عـادة عـن النشال الذي يخون العشرة والعيش والملح سواء في اقتسـام ((الخير)) أي الوارد من النشل أو ربما فـي إبـلاغ رجـال الشرطة عن الأخرين.

وفي دراسة غريبة من نوعها، صادرة فـي القـاهرة مؤخراً عن «اللغات السرية» حيث يكشف مؤلفها عن لغـات النشالين والحرامية والنصابين، يأخذنا الباحث إلى هذا العالم الغريب، ويدخله معنا من باب اللغة السرية التي يتعامل بهـا هؤلاء الناس مع أنفسهم.

والأصل في اللغة السرية هو الرغبة في التخفي عـن رجال الشرطة، وكذلك محاولة خلق واقع اجتماعي خـاص بهم، وتحويل النشالين والنصابين والحرامية إلى مجموعـات لها درجات من الصلات الاجتماعية واللغوية المغلقة عليهم، وأهم من كل هذا خلق لغة متفردة لا يعرفها الضحايا وهـم الذين يتم نشلهم في العادة وحتى هذه اللغة لها اسـم خـاص عندهم، حيث يقولون عنها ((السيم)).

والنشل والسرقة لهما أصول وقواعد ومـدارس فـي العمل. وتمر عملية النشل نفسها بعدد من المراحل تبدأ مـن الأعداد والدراسة وتصل إلى التنفيذ ثم الهروب من مسـرح عملية النشل بسلام، وشعار النشال واللص واحد هو البحـث عما خف وزنه وغلا ثمنه وسهلت عملية إخفائه عن الأعين.

والنشالون أنواع وأشكال، مـنهم الهنـاجره والغجـر والبهلوان ونشال البحر والنشال الكيجان وهناك من ينشل من بلده ومن ينشل من بلاد أخرى، وهناك من ينشل ويسرق في كل أوقات السنة ومن يعين مواسم للنشل، مثل موسم الحـج والعمرة والأعياد السنوية مثل عيد الفطر وعيد الأضـحي ، بل إن هناك من ينشل في مباريات كرة القدم فقط، أو الموالد الشعبية، بل إن هناك الذي لا ينشل سـوى فـي الـدورات الأولمبية التي تقام كل أربع سنوات ويسافر إلى مكان انعقاد الدورة من أجل النشل فقط.

وكل فئة من النشالين واللصوص لها قواعـدها فـي العمل وقوانينها الخاصة ولها ما يميزها عن الفئات الأخرى، فالنشال البهلواني هو الذي يعتني جداً بمظهره وبيته وأولاده ولا ينشل سوى الحريم لأن ذلك يكون أسهل بالنسـبة ، لـه

والنشال الهنجري لا يسرق سوى من بلد غير بلده، ولذلك فهو ينظر إلى أولاد البلد على أنهم متخلفون ويتعامل معهم بتكبر وأولاد البلد يقولون عنه: ((الخبير الأجنبي)) والطرفان يرفضان تماماً التعاون معاً.

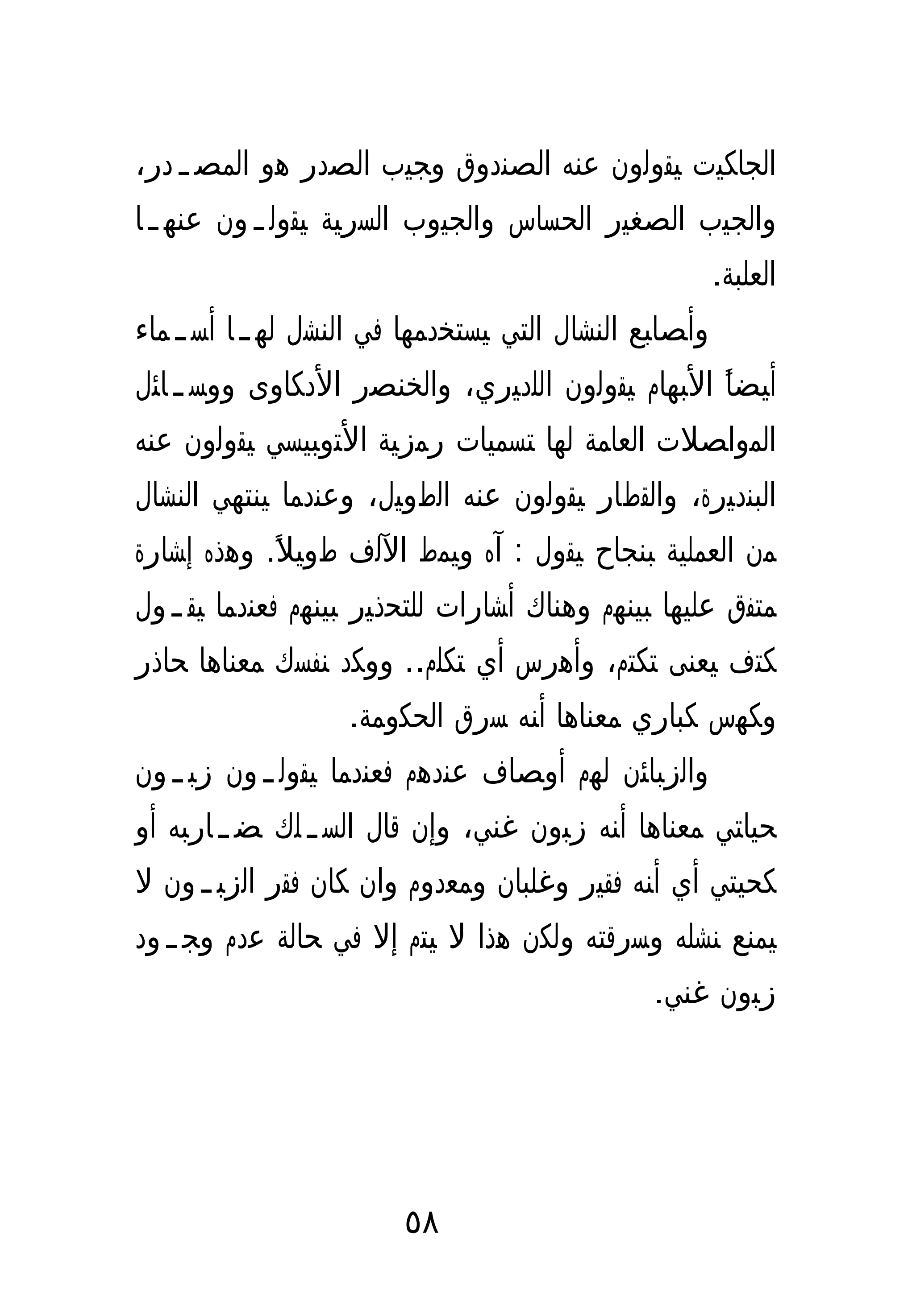
والنشال الكيجان أقل قيمة في عالم النشالين واللصوص لأنه يتعامل مع سرقات صغيرة مثل الحقائب والأقلام والساعات وإن كان أكثر مهارة، والنشالون الهناجرة يعملون عادة في السعودية، الأردن والكويت، أما الكيجان فيعملون في أوروبا لأنهم أصحاب مؤهلات جامعية، والهناجرة يقال عنهم أن أساليبهم جامد وتقليدي وأن النشال منهم لا يعرف سوى النشل الأرضي وفي مواسم الزحام الشديد فقط مثل الحج والعمرة والأعياد والموالد الشعبية.

أما النشالون من الغجر فالأمر معهم يختلف، فالبنت أهم من الولد لأنها في نظر الغجر أكثر دربة ومهارة وخفة يد من الرجل، ولذلك فإن سعادة الغجري بولادة طفلة تفوق ألف مرة فرحة بمجئ طفل وعندما يتم إعداد هذه الطفلة لكي تصبح نشالة يقولون عنها (أرابوه صوان).

والأرقام لها دلالات أخرى وأسماء مغايرة في عـالم النشالين واللصوص فالواحد يقولون عنه «ياكي» والاثنـان «دو» والثلاثة «سـوس» والأربعـة «روبـه» والخمسـة «مدوره» والعشرة «بريزه» والمائة «أستك» والألف «باكو» والمليون «أرنب» وبعض هذه التسميات لها أصول فالمائـة تحتاج إلى استك لكي يضمها مع بعضها والألف لا بد له من باكو من أجل وضعه فيه أما المليون فيقال عنه أرنب بمعنى أنه يتكاثر من تلقاء نفسـه. واللصـوص يقولـون أن كـل المطلوب هو الأرنب فقط ثم الباقي كله مسهل بعد ذلك.

ومن يسرق الشقق يقولون عنـه هجـام، والنشـالون واللصوص لا يعتبرون أنفسهم مـن المجـرمين، لأن كـل عملياتهم لا تسيل بسببها نقطة دماء واحدة، وهو يقولون عن العملية التي تتم بدون دماء بعد الانتهاء منها: ((عملية نضيفة مية المية)) أما المجرم في نظرهم فهو الذي يقتل أو يعذب أو يغتصب، لأن عملياتهم تتم بدون اغتصاب أو قتل أو تعذيب فهم شرفاء وليسوا مجرمين.

وجيوب الناس لها أسماء كودية عند النشالين فالجيـب الجانبي يمسى الطويل، والجيب الخلفي يمسى السية، وجيـب



الجاكيت يقولون عنه الصندوق وجيب الصدر هو المصـدر، والجيب الصغير الحساس والجيوب السرية يقولـون عنهـا العلبة.

وأصابع النشال التي يستخدمها في النشل لهـا أسـماء أيضاً الأبهام يقولون اللاديري، والخنصر الأدكاوى ووسـائل المواصلات العامة لها تسميات رمزية الأتوبيسي يقولون عنه البنديرة، والقطار يقولون عنه الطويل، وعندما ينتهي النشال من العملية بنجاح يقول : آه ويمط الآآف طويلاً. وهذه إشارة متفق عليها بينهم وهناك أشارات للتحذير بينهم فعندما يقـول كتف يعنى تكتم، وأهرس أي تكلم.. ووكد نفسك معناها حاذر وكهس كباري معناها أنه سرق الحكومة.

والزبائن لهم أوصاف عندهم فعندما يقولـون زبـون حياتي معناها أنه زبون غني، وإن قال السـاك ضـاربه أو كحيتي أي أنه فقير وغلبان ومعدوم وان كان فقر الزبـون لا يمنع نشله وسرقته ولكن هذا لا يتم إلا في حالة عدم وجـود زبون غني.

والنقود السائلة تسمى السيله، وإن قال نشال لزميله عن زبون في خده طباشيرة أي أنه معه قلم ثمين وغال في جيب الجاكيت.

وخلال عملية السرقة والنشل فإن من يقوم بـالتخطيط للعمليـة يسـمى الـدكتور ومـن ينبـه للبـوليس يسـمى الناضورجي.. ومن يغطى عملية الانسحاب ويشاغل النـاس والشرطة يقولون عند الددبان.

وتجار المخدرات لهم اللغـة السـرية الخاصـة بهـم فالحشيش يسمى الأخضر، والأفيون الأسود والبرشـام أبـو دقن. وأفضل أنواع المخدرات يقال عنها بضاعة هبـو. وإن كانت هناك أنواع متعددة من الحشيش يقولون شـويه كنسـه ويسمى المهرب الريس، ويطلق علـى الصـفقة مصـلحة، ويقولون عن المتعاطين اقطون، بينما يقولـون عـن تـاجر المخدرات المجوع. ولكن التاجر النذل أو مرشـد البـوليس والذي يحاول أن يبدو قلقاً وخائفاً من الشرطة يقولون عنه ده عباس.

والعقوبات في عالمهم أسماء أخرى؛ الأشغال الشـاقة المؤبدة هي العباية، وعشر سـنوات سـجن هـى أحمـرة،

والخمس سنوات أخضره والأعوام العمة والدولار يقولـون عنه الأخضر والجنيه المصري: أبو مادنة.

لقد احترت بعد قراءة هذه الدراسة هل هي لغة سرية، أم نوع من الإبداع الجماعي لعدد من الخارجين على القوانين والمجتمع، لا يعترفون بذلك ويتصورون أنهم يقومون بأعمال أخرى في هذا الواقع، بصرف النظر عن رأي الناس فـيهم، أم أن هذا شكل من أشكالا لاحتجاج غير الواعي على لغـة المجتمع الذي يسرقون منه.

مرة أخرى.. حيرتني كثيراً هذه الدراسة!..

١٥ أكتوبر ١٩٨٨

وزير محظوظ وشعب قليل البخت

قليل البخت فعلاً هـذا الشـعب المصـري، الطيـب والمسكين، فالفقرة الوحيدة في احتفالات افتتاح الأوبرا، التي كان سيشاهدها بالمجان، ألغيت في اللحظة الأخيرة.

والفقرة كانت عبارة عن مجموعة من الألعاب النارية تطلق في سماء القاهرة لحظة الافتتاح، رصدت لها حكومـة اليابان نصف مليون دولار وقد لفت الرقم أنظـار الفقـراء أكثر من أية أرقام أخرى، بمبأ وحـرب أطاليـا وبالونـات ودخان ملون، وكل هذا تتم فرقعته في نصـف سـاعة فـي الهواء ويتكلف نصف مليون دولار، أي أكثر من مليون جنيه مصري،

لكن المثل الشعبي يقول إن قليل البخت يلاقي العضـم في الكرشه، وقليل البخت يتكعبل في الصديري ومـن قلـت بخت هذا الشعب المصري الطيب والبسيط، فإن امبراطـور اليابان الذي حكم بلاده أكثر من ستين عاماً، وعاش أكثر من تسعين عاماً، قد دخل مرض الموت الأخيـر قبـل افتتـاح الأوبرا.

وهكذا قرر ولي عهد اليابان، أن يلغي سفره إلى مصر لحضور افتتاح الأوبرا في القاهرة، وسحب على الفور النصف مليون دولار، وتم إلغاء الألعاب النارية من سماء القاهرة. فإذا كانت هذه الألعاب ستسعد الشعب المصري، خصوصاً البسطاء والفقراء فإن ولي عهد اليوم وامبراطور الغد في اليابان لن يحضر، وكل هذه الألعاب كانت من أجل سواد عيونه هو أولاً وأخيراً، أما الشعب المصرى فله ا .

دخول الأوبرا قضية أخري، فإن كانت الأوبرا في العالم كله هي فن الصفوة، فإنها في مصر ستصبح فن الطبقة القادرة على دفع أسعار تذاكرها، فمن سوء بخت أبناء مصر أن الأوبرا افتتحت والمسئولون عن ثقافة مصر يفكرون في الثقافة باعتبارها رافداً للسياحة مرة، وعلى أنها عمل من أعمال الاستثمار المالي مرات، ويفكرون في تحويل وزارة الثقافة المصرية من وزارة خدمات إلى وزارة للاستثمار.

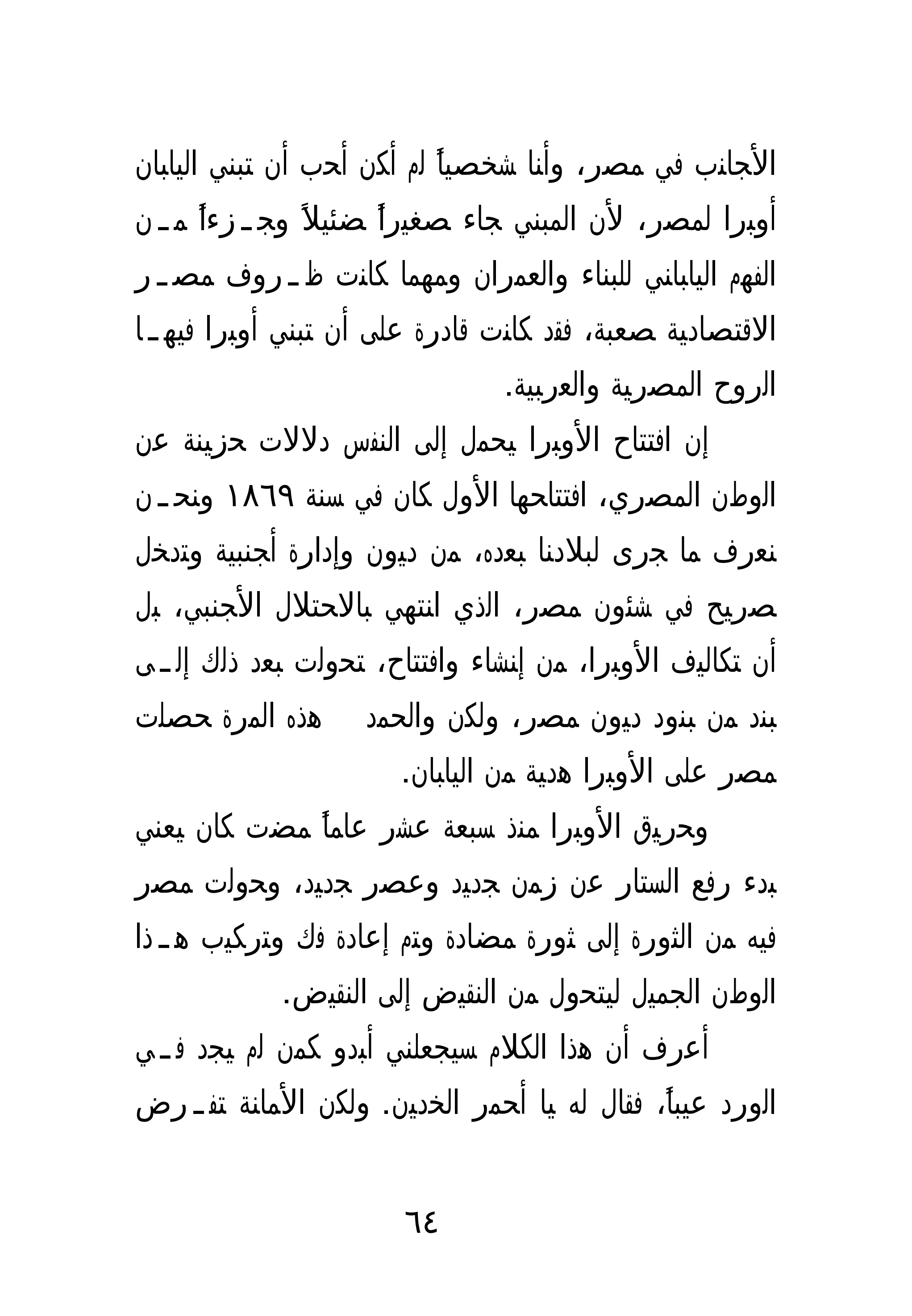
وهكذا أصبحت أسعار تذاكر الدخول إلى الأوبرا تبدأ من ثلاثين جنيهاً، وتنتهي عند الخمسة جنيهات، ولن أتوقف طويلاً أمام القدرات المالية للمواطن المصري، ولن أحسب

ما يمكن أن تدفعه أسرة مصرية متوسطة الحال إذا فكـرت بالذهاب إلى الأوبرا!!.

وقلة البخت وسوء الحظ لم تكن وقفاً علـى الشـعب المصري وحده، ولكن الأشقاء العرب نابهم من الحب جانب فلدخول الأوبرا أسعار مختلفة، هنـاك أسـعار للمصـريين وأخرى للأجانب وقد اعتبر الأشقاء العرب وفي زمن تضميد جراح علاقات مصر بالعرب من الأجانب، وسعر التذكرة في هذه الحالة لا بد وأن يدفع بالدولار الأمريكـي، ويبـدأ مـن سبعين دولاراً وينتهي عند عشرين دولاراً.

هناك من يفكر بمنطق حسابات الربح والخسارة ويقول أن السائح العربي قادر على الدفع وهو يـدفع فـي الفنـدق والمطعم والملهي، وهذا صحيح ولكن أرقـام مـا يـدفع لا تساوي أن نعيد لمصر وجهها العربي، والعلاقات العربية – المصرية لن تعيدها ابتسامات الرؤساء والقادرة في الزيارات الرسمية، ولكن من خلال العلاقات اليومية الحميمة بين الناس العاديين.

وإذا كانت أسعار التذاكر ستحول رواد الأوبـرا إلـى طبقة، فإن نوعية ما يقدم ستجعل المكان أقرب إلى منتـدى



الأجانب في مصر، وأنا شخصياً لم أكن أحب أن تبني اليابان أوبرا لمصر، لأن المبني جاء صغيراً ضئيلاً وجزءاً من الفهم الياباني للبناء والعمران ومهما كانت ظروف مصر الاقتصادية صعبة، فقد كانت قادرة على أن تبني أوبرا فيها الروح المصرية والعربية.

إن افتتاح الأوبرا يحمل إلى النفس دلالات حزينة عن الوطن المصري، افتتاحها الأول كان في سنة ١٨٦٩ ونحن نعرف ما جرى لبلادنا بعده، من ديون وإدارة أجنبية وتدخل صريح في شئون مصر، الذي انتهي بالاحتلال الأجنبي، بل أن تكاليف الأوبرا، من إنشاء وافتتاح، تحولت بعد ذلك إلى بند من بنود ديون مصر، ولكن والحمد   هذه المرة حصلت مصر على الأوبرا هدية من اليابان.

وحريق الأوبرا منذ سبعة عشر عاماً مضت كان يعني بدء رفع الستار عن زمن جديد وعصر جديد، وحولت مصر فيه من الثورة إلى ثورة مضادة وتم إعادة فك وتركيب هذا الوطن الجميل ليتحول من النقيض إلى النقيض.

أعرف أن هذا الكلام سيجعلني أبدو كمن لم يجد في الورد عيباً، فقال له يا أحمر الخدين. ولكن الأمانة تفرض

على الإنسان قوله، فنحن أمام حدث يقولون أنه هام وخطيـر ويضع مصر على عتبة عصر حضاري جديـد لا بـد وأن نستعد له من الآن، وبسبب خطورة الحدث جرى في صمت تغيير اسم الأوبرا إلى المركز الثقافي والتعليمي، هكذا يكتب اسمها، وبعد هذا الاسم وبين قوسين ويكتبون «دار الأوبرا» وقد حاولت جاهداً أن أفهم السر والسبب وراء تغيير الاسـم، وعندما لم أصل إلى أي سبب حقيقـي ومقنـع اكتشـفت أن الجري وراء المحاولة هو نوع من العبث وتضييع الوقت.

ولكني أسأل سؤالاً مشروعاً: أيهما كان أجدي وأفيـد وأكثر جدوي بالنسبة للثقافة المصرية، أن نعيد ترميمها وأن تقوم بعمل البنية الأساسية لعمل ثقافي مصري سليم، أم نجي وراء الأوبرا؟! أيهما أكثر أهمية، ثقافية الفلاحـين والعمـال والناس البسطاء في القرى والمدن أم ثقافة الصفوة والنخبـة؟ ببساطة وهدوء: القاعدة العريضة أم القمة الضيقة؟

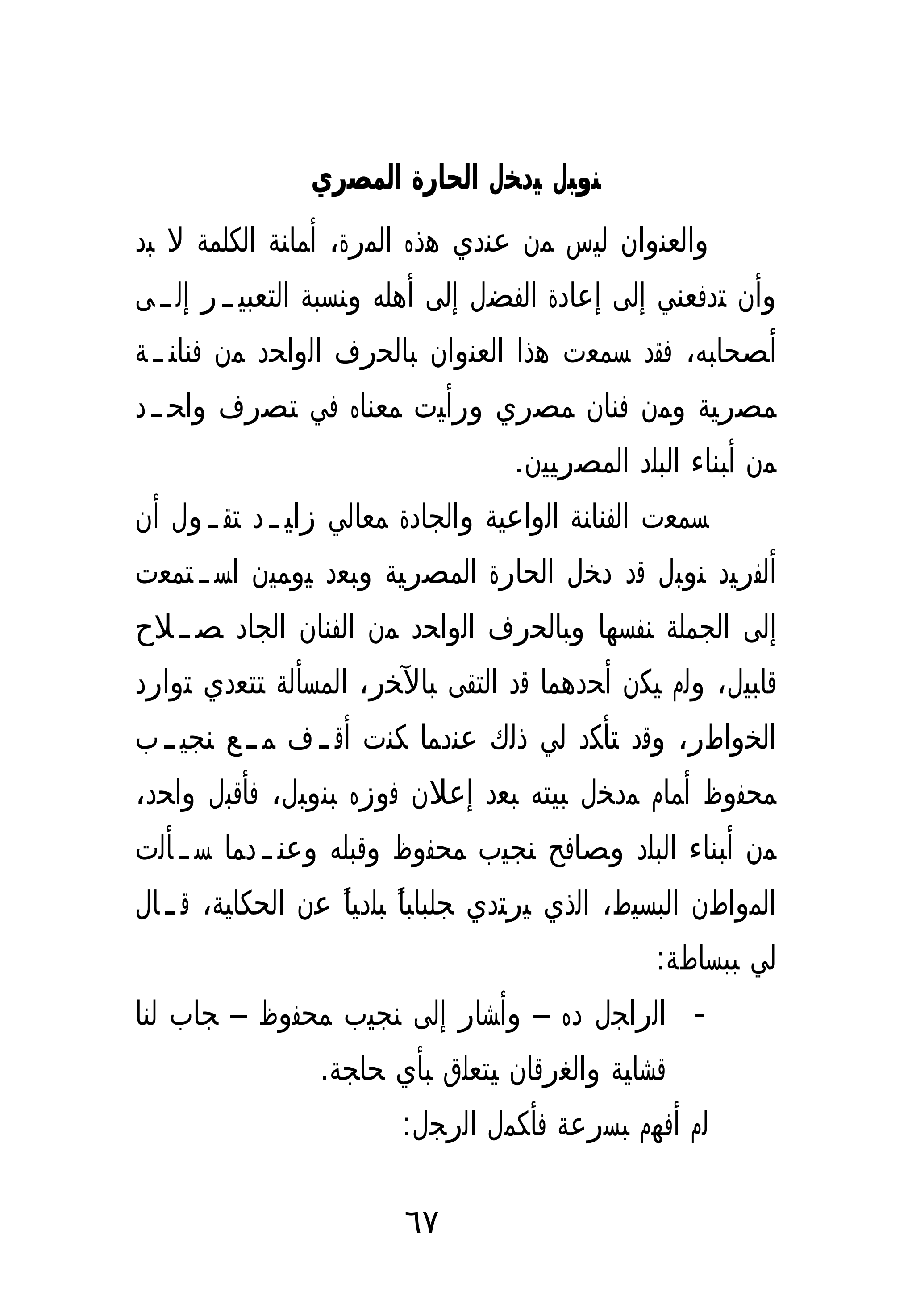
في القمم أضواء وتلفزيون وصـحافة وإذاعـة ودوى هائل ومخيف اسمه الأوبرا، تعود إلى بر مصر، وتحت هذا العنوان كثير جدا مما يمكن أن يقال ولكن وسط القاعدة عرق

صامت وجهد حقيقي وعمل دؤوب، والكل يهرب الآن مـن العمل إلى الأضواء والدوى.

بدأت الكتابة بالبخت والحظ والقسمة النصيب وإن كان الشعب المصري الطيب يبدو قليل الحظ مع الأوبـرا، فـإن واحداً من أبنائه يبدو حظه مع الأوبرا بدون حـدود، وهـذا الواحد اسمه فاروق حسني، وهو يعمل وزير ثقافة مصـر، فعلى الرغم من أن وزير الثقافة الأسبق محمد عبـد الحميـد رضوان صاحب تعبير «مصريتنا حماها ا » الذي تحـول بعد ذلك إلى أغنية، هو الذي اتفق مع اليابان علـى مسـألة الأوبرا، من الألف إلى الياء.

وعلى الرغم من أن وزير الثقافة السابق الدكتور أحمد هيكل هو الذي بدأ العمل التنفيذي لبناء الأوبرا، فإن الأوبـرا هي الآن إنجاز الوزير الحالي، من الألف إلى اليـاء، ومـن الإبرة إلى الصاروخ، وعموماً إن كان الشعب المصري قليل البخت سيئ الحظ، فيكفي أن أحد أبنائه حظه عظيم وبختـه يفوق كل الحدود، فالشعب المصري أيضاً هو الـذي قـال: قيراط حظ ولا فدان شطارة.

٢٢ أكتوبر ١٩٨٨



نوبل يدخل الحارة المصري

والعنوان ليس من عندي هذه المرة، أمانة الكلمة لا بد وأن تدفعني إلى إعادة الفضل إلى أهله ونسبة التعبيـر إلـى أصحابه، فقد سمعت هذا العنوان بالحرف الواحد من فنانـة مصرية ومن فنان مصري ورأيت معناه في تصرف واحـد من أبناء البلد المصريين.

سمعت الفنانة الواعية والجادة معالي زايـد تقـول أن ألفريد نوبل قد دخل الحارة المصرية وبعد يومين اسـتمعت إلى الجملة نفسها وبالحرف الواحد من الفنان الجاد صـلاح قابيل، ولم يكن أحدهما قد التقى بالآخر، المسألة تتعدي توارد الخواطر، وقد تأكد لي ذلك عندما كنت أقـف مـع نجيـب محفوظ أمام مدخل بيته بعد إعلان فوزه بنوبل، فأقبل واحد، من أبناء البلد وصافح نجيب محفوظ وقبله وعنـدما سـألت المواطن البسيط، الذي يرتدي جلباباً بلدياً عن الحكاية، قـال لي ببساطة:

- الراجل ده – وأشار إلى نجيب محفوظ – جاب لنا قشاية والغرقان يتعلق بأي حاجة.

لم أفهم بسرعة فأكمل الرجل:

- دا هوا بعد سنين الكتمة والزهقـان.. هـو يـرد الروح.

إذا كان يجمع بين معالي زايد وصلاح قابيل إنهما من أهل الفن، أي من صفوة المجتمع، يعرفان جيداً ما يقولانـه، وأنهما قاما بأدوار بعض شخوصه في أعمال فنية فإن ابـن البلد طيب القلب يكمل ما يقولانـه ويوضـح بتصـرفه أن المصرى، بعد التعب والإجهاد والضني، يحتاج إلـى شـيء يصاب طوله عليه، حتى لو كان هذا الشيء جائزة أدبية.

ونجيب محفوظ نفسه عندما سألته لمـن يهـدي هـذه الجائزة من أبطال شخوصه، قال: لزنوبه العالمة في الثلاثية. قلت له إن الفنانة معالي زايد تستعد لكي تمثل هذا الدور في مسلسل عن الثلاثية، قال لي إن أداء معالي لشخصية حميـدة في المسرحية المأخوذة عن «زقاق المدق» أفضـل – ألـف مرة – من أداء شادية في الفيلم المأخوذ عن الرواية نفسها.

والناس العاديون فرحوا بالجائزة لأنـه قبلهـا بأيـام أرسلت مصر بعثة رياضية ضخمة إلى سيول فـي الـدورة الأولمبية وتكلفت مصر أموالاً طائلة، ومع هذا عادت البعثة كما ذهبن وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا.

لكن الأزمة المصرية والعربية الراهنة دفعتنا إلى نوع من الاحتفال بالجائزة شابه العديد من الأخطاء. ففي الوقـت الذي نظر الجميع إلى مجيء الجائزة على أنه معجزة ، تفوق حتى الخيال بما في ذلك نجيب محفوظ نفسه، فأنا أعتقـد أن منح الجائزة لكاتب عربي هو رد اعتبـار للجـائزة نفسـها ومحاولة لإزالة الغبار السياسي من فوق وجهها.

ومنذ أن نشئت جائزة نوبل وهي تهدي علـى أسـاس سياسي صرف في المرحلة الأولى كانت تمنح لمن ينشـقون ويصبحون ضد الأمور في الاتحاد السوفيتي ، طبعاً يحصـل عليها أبناء أوروبا أولاً، ولكن السوفييت لا بد وأن يكونـوا منشقين. وفي المرحلة الثانية قدمت الكتاب الصهاينة، حتـى الذين لا يمثلون أي قيمة فنية أو فكرية، وعندما كثر الحديث عن حرمان أبناء العالم الثالث منها قدموا بعـض الجـوائز لأبناء آسيا وأمريكا اللاتينية، وأخيراً إلى الأفارقة.

وبعد أن خلا جراب الحاوي لم يعد هناك مفر أمامـه من أن يقدمها لعربي، للأدب الذي جرى تجاهله مع انه يشكل مع الأدبين الإغريقي والأوروبي تراث الإنسانية الحقيقي كله منذ فجر البشرية وحتى الآن.

لم تعجبني الطريقة المصرية العربية في التعامل مع الحدث، أصبحت الجائزة وكأنها شهادة ميلاد لنجيب محفوظ وكأنها شهادة ميلاد للأدب العربي كله مع أن نجيب محفوظ يحفر بأظافره في الصخر منذ خمسين عاماً والأدب العربي موجود من قبل نوبل بأكثر من قرنين من الزمان.

أن تأتي هذه الجائزة خير وبركة، وأن تفتح الآفاق أمام الأدب العربي واللسان العربي، أهلاً وسهلاً، ولكن هذا لا يسقط مرارات الأمس القريب والبعيد من نوبل وجائزته باعتبارها في النهاية والبداية جائزة منحازة ضد التقدم والعرب وفقراء العالم، وأن هناك دوائر صهيونية تحاول أن توحي أن لها تأثير على صنع القرار فيها.

علينا أن ندرك أنهم يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سمعة هذه الجائزة، ولذلك جرى التفكير في أديب عربي المطلوب منا الآن، عربياً ، أن نحول هذه الجائزة إلى استفادة عربية، إلى دفعة جديدة للأدب العربي إن حصول نجيب محفوظ على نوبل جعل الصحف في مصر تصدر والمانشيت الرئيسي فيها عن الأدب، وحتى في عصور الازدهار الأدبي، كانت الصحف تنشر قصيدة لأحمد شوقي في

الصفحة الأولى، ولكن القصيدة شيء والمانشيت أمـر آخـر تماماً، فمنذ أن وجدت الصـحافة اليوميـة وأهـل السياسـة والاقتصاد والعسكر ونجوم الكرة يحتلون هذا المكان، فها هو كتاب يزحف نحوه ويحتله.

إنها فرصة نادرة أن نعيد الاعتبـار للعقـل العربـي والفكر العربي والإبداع العربي. أن يصبح المثقف العربـي مرة أخرى زرقاء اليمامة التي تحاول أن ترى ما هو أبعـد من المكان وأشمل من اللحظة، وأن تقرأ ملامح الزمن القادم من بعيد، وأن يجلس المثقف العربي في برج مراقبة، لكـي ينبه كل العرب إلى أي خطر قادم من بعيد.

لتكن جائزة نوبل ما تكون، ولكنها مناسبة لأن يكتشف المواطن العربي أن هناك ثقافة عربية هامة وأن ثمة إبـداعاً عربياً متميزاً، وأن واجبه كمواطن عربي حقيقـي أن يتـابع هذا النتاج ويعرف كل ما هو جديد فيه.

أعرف مدى مجاملة الجائزة للصهاينة، ولكن لمـاذا لا نستخدم مكر الثعالب جاءت له متأخرة، ولنسأل عن قيمة هذا العملاق ونقارنها بقيمة عشرات من الذين حصلوا عليها فـي السنوات الأخيرة لكي نعرف الفارق الحقيقي.

إن العرق الذي بذله الرجل في الكتابة، ونـور عينيـة وخفق فؤاده يستحق ما هو أكثر من الجائزة ألف مرة.. التي جاءت له متأخرة ولم تقدم لعمالقة قبله في مصـر والـوطن العربي..

تبقي آخر القضايا. لقد أشارت حيثيات مـنح الجـائزة إلى روايته الجميلة «أولاد حارتنا» ثم أليس غريباً أن هـذه الرواية ما زالت حتى الآن – ومنذ سنة ١٩٧٠ – ممنوعـة في كل الدول العربية باستثناء لبنان؟! ألا يتطلب ذلك إعـادة نظر في الموقف من هذه الرواية؟! وهل يظل قرار صـادر منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً ساري المفعول حتى الآن؟!

كيف هذا؟!

ثم لا أحب أن نبدو وكأننا اكتشفنا نجيب محفوظ مـن جديد لأن الخواجات منحوه جائزة نوبل، لا أحب أن تطاردنا عقدة الخواجة حتى ونحن نحصل على نوبل لأول مرة فـي التاريخ.

المهم في وسط كل هذا، لقد قرأت الحدث على النحـو التالي:

ها هو قم عربي يغطـي علـى أنبـاء قمـر العـدو الإسرائيلي..

قمرنا أديب وروائي وكاتب ومبدع..

وقمرهم ليس له هدف سوى التجسس..

وذلك هو الفارق بين صناع الحياة وبنـاة الحضـارة ودولة الأشرار وشذاذ الآفاق.

٢٩ أكتوبر ١٩٨٨

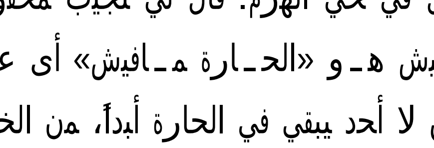
يوم خاص في بيت نجيب محفوظ

كان الاختيار دقيقاً وحاسماً، والاختيار هـو الرجـل، وهكذا جاء السؤال الأول إلى ذهني، بعد إعلان فوز نجيـب محفوظ بجائزة نوبل: هل يضحي نجيب محفوظ ببرنامجـه اليومي الصارم لأنه حصل على جائزة نوبل؟ أي هل يتنازل عن طقوسه التي تعود عليها منذ أكثر من نصف قـرن، لأن الفريد نوبل جاء ومع كل أعلام العالم وأضـوائه؟ أم يبقـي النظام الحديدي الذي لم يخرج عليه أبدا من قبل كما هو؟

كان اليوم هو الخميس، وبعد تناول طعام الغداء الـذي يبدأ في الثانية الأربعاء بعد الظهر، ولا بد وأن ينتهي لكـي يبدأ النوم الذي يمتد إلى الثالثة والنصف.

بعد النوم بقليل جاء الزلزال، اهتز الكون وأصبح سيد البنائين العظام في الرواية العربية أول عربي يحصل علـى نوبل دخلت زوجته التي لم يكن يعرفها أحـد مـن قبـل.. واسمها عطية ا إبراهيم – وهو يناديها عطيات – دخلـت غرفة النوم لكي توقظه: ((نجيب نجيب.. أصحى، أنت أخدت نوبل)) قال لها: «يا شيخة كفاية أحلام.. سيبيني أنام شوية».

كان سفير السويد في البيت. جاء بدون موعد سابق لكي يبلغه القرار. كان من المفروض أن يتحرك نجيب محفوظ في الرابعة والنصف سيراً على الأقدام إلى كازينو قصر النيل حيث يلتقي بجماعة الحرافيش ويبقي معهم حتى الثامنة مساء، ومن الكازينو يتوجهون جميعاً إلى منزل الكاتب عادل كامل في حي الهرم. قال لي نجيب محفوظ أن أصل كلمة الحرافيش هو «الحارة مافيش» أى عندما يظهرون في الأفق لا أحد يبقي في الحارة أبداً، من الخوف والرعب والقهر ويكمل جمال الغيطاني أن الكلمة وردت لأول مرة في كتابات ابن إياس والجبرتي.



وقفت في بيت نجيب محفوظ الذي أدخله لأول مرة في حياتي، وشكراً لنوبل فهو السبب في هذا الاقتحام جاء الوقت وسألت نفسي عن اختيار الرجل. كنت في انتظار التصرف في الموقف الذي سيعكس جوهر الرجل بعد نوبل.

قبل أن أتخيل شكل الإجابة كان قد تصرف، ترك نوبل وجائزته والدنيا كلها والعالم بما فيه وذهب إلى أصدقاء عمره من أجل سهرة حافظ عليها طوال سنوات عمره، بقيت زوجته في البيت ومعها ابنتاه: أم كلثوم التي تعمل في شركة

لأدوات تصوير المستندات وفاطمة التي تعمل فـي شـركة لتجار السلاح، قالت لي زوجته أن الأولى تحمل اسم أم كلثوم والثانية تحمل اسم أم كلثوم في فيلم فاطمة. بعد مشيه، فصلت زوجته الرجال والنساء الرجال في الصالون، والنسـاء فـي غرفة النوم.

انتقلت الزفة من البيت إلى الكازينو ببسـاطة وهـدوء تحدث مع الدنيا كلها ولكن ما أن أتت الساعة الثامنة، وبدون أن ينظر في سـاعته أدرك الوقـت الحقيقـي لأن السـاعة المزروعة في أعصابه الداخلية نبهته إلى ذلك.

قال لي الفنان أحمد مظهر، وهو أحـد الحـرافيش أن الجائزة جاءت يوم الخميس لأنه يوم سهرنا.

وهنا فقط أدركت سر هذا الرجل الـذي أعرفـه أنـا وصديق عمري جمال الغيطاني عن قرب شديد منذ ربع قرن مضى ، وضعت فوضى حياتنا أمام نظامه الصارم وبعثـرة أيامنا التي نمارسها في كل لحظة تمر مـن العمـر، أمـام الالتزام الذي يصل إلى حدود قهر الـنفس، وعمرنـا الـذي يضيع في الكلمات والثرثرة أمام هذا الاستخدام الاقتصـادي والدقيق والصارم للوقت.

إن هذا الإنسان في أعماقة ساعة مضبوطة على جوهر الأشياء وذلك هو سر – عظمته – نحن نتصـور دائمـاً أن الإبداع هو عملية فوضى يومية، نقـول أن النظـام والدقـة يقتلان العملية الإبداعية، وإن النظام يحـول الكتابـة إلـى وظيفة، بكل ما في الوظائف من روتين، أما هو فيقول لـي دائما أنه يكتب كل يوم، في ساعة معينة، وإن لم يكن لديه ما يكتبه فإنه يحضر ورقة وقلماً ويكتب حتى لو كتب رسالة إلى نفسه.

هل تتصور إن هذا الرجل الذي تعدى السـبعين مـن العمر لا يغفل الرد على رسالة واحدة تصل إليه من قـارئ؟ وإنه يخصص يوماً محدداً كل أسبوع لكتابة الردود بخط يده! وأنه لم يهد إليه كتاب لم يقرأه؟ أهديت له روايتـي الأولـي «الحداد» وبعد أسبوع قال لي رأيه فيها، العيوب والحسـنات واكتشفت بعد سنوات أنه كان على حق ويفعل الشيء نفسـه حتى الآن معي ومع الآخرين جميعاً.

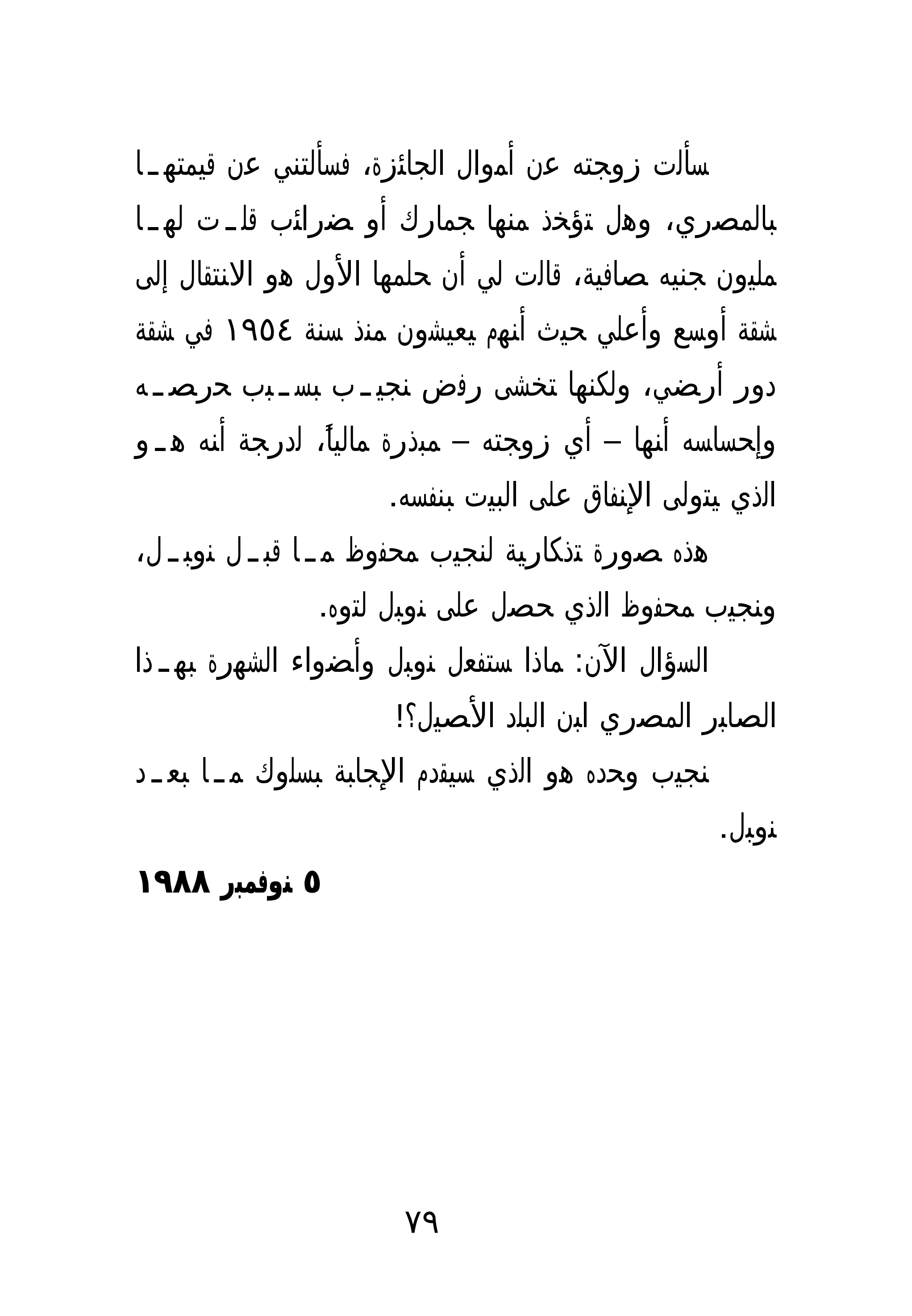
في السادسة والنصف، بعد أن يكون قد أفطـر وقـرأ بعض الأشعار يمشي علي قدميه من العجوزة، حيث بيتـه، غلى مقهى على بابا في ميدان التحرير، يصل المقهـي فـي

السابعة والنصف يبقي في المقهي ساعتين يقرأ الصحف ويلمع حذاءه ويشرب فنجاناً من القهوة السادة كل ساعة ومعه سيجارة خفيفة.

الصحف والمجلات، يقدمها هدية للجرسون في المقهى ويعود إلى البيت، حيث يصل إليه في العاشرة والنصف صباحاً يبدأ في الكتابة حتى الثانية إلا ربعا.

ولا يخرج من البيت في المساء إلا يومي الخميس والجمعة في الخميس يذهب إلى شلة الحرافيش وفي الجمعة يجلس مع الأدباء في كازينو قصر النيل، وباقي أيام الأسبوع يبقي في البيت يقرأ حتى تتعب عيناه فيبدأ في الفرجة على التليفزيون ويفضل الأفلام والمسلسلات الأجنبية لأن سمعه ثقيل ويقرأ الترجمة بسهولة أكثر من سماع الحوار. يخرج في وسط النهار مرتين في الأسبوع أيضا، مرة يوم الخميس حيث يذهب إلى مكتبه في الأهرام، ويجلس في مكتب مشترك مع الدكتورة بنت الشاطئ ويوسف جوهر ويوم

الجمعة يخرج مع العائلة إلى مطعم «خرستو» في الهرم لكي يتناولوا طعام الغداء من السمك.



سألت زوجته عن أموال الجائزة، فسألتني عن قيمتها بالمصري، وهل تؤخذ منها جمارك أو ضرائب قلت لها مليون جنيه صافية، قالت لي أن حلمها الأول هو الانتقال إلى شقة أوسع وأعلي حيث أنهم يعيشون منذ سنة ١٩٥٤ في شقة دور أرضي، ولكنها تخشى رفض نجيب بسبب حرصه وإحساسه أنها – أي زوجته – مبذرة مالياً، لدرجة أنه هو الذي يتولى الإنفاق على البيت بنفسه.

هذه صورة تذكارية لنجيب محفوظ ما قبل نوبل، ونجيب محفوظ الذي حصل على نوبل لتوه.

السؤال الآن: ماذا ستفعل نوبل وأضواء الشهرة بهذا الصابر المصري ابن البلد الأصيل؟!

نجيب وحده هو الذي سيقدم الإجابة بسلوك ما بعد نوبل.

٥ نوفمبر ١٩٨٨

القراءة في خطر

هل صحيح أن زمن القراءة قد ولى وأصبح من مخلفات القرون الماضية؟ وهل من المعقول أن العصر الذهبي للقراءة يمتد فقط من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن العشرين؟

لا مفر إذن من مواجهة الأسئلة الصعبة التي حاولنا ونحاول الهروب منها منذ سنوات.

عن نفسي، أعيش منذ فترة يقيناً صعبا، وهو أن لا أحد يقرأ، وأننا معشر الأدباء نكتب لكي نقرأ نحن ما نكتبه، بعيداً عن جماهير القراء التي كانت، والتي لم يعد لها وجود.

كنت أتصور من قبل أن الأمية الرهيبة، ذلك الغول الذي يتضخم سنة بعد أخرى، وأن زمن الإعلام الذي وصل حتى إلى غرف النوم، قد تآمر معا على القراءة لدرجة أن عملية القراءة تصبح في هذه الحالة نوعا من الاختيار الصعب، وأن ارتفاع أسعار الكتب، ذلك الوافد الجديد، قد أتى لكي يزيد من صعوبة الأمر حيث إن المواطن العادي يجد نفسه في مواجهة غلاء كل شيء فيقوم بعمل أولويات تصبح الثقافة ترفاً لا يجرؤ حتى على الحلم به.

متابعتي للواقع الثقافي العربي الراهن كانت تؤكد لـي أن الأدباء والكتاب والمفكرين الذين خرجوا من دائرة هـذا الحصار اللعين وأصبحوا جمـاهيريين، أي مـؤثرين فـي الجماهير، خارج نخبة المثقفين وصفوة الساسة، إنما عرفـوا طريقهم إلى الناس عبر وسائل أخرى غير الكلمة المكتوبة.

معظم الذين عرفوا نجيب محفوظ ويوسـف إدريـس وعبد الحليم عبد ا وإحسان عبد القدوس، إنما جاءت هـذه المعرفة من خلال السينما والمسرح والإذاعة والتليفزيـون، وبعد ذلك ربما كانت هناك قراءات للبعض منهم، لكن جوهر العلاقة إنما تم عبر المشاهدة.

كان الخيال يصل بي إلى تصور أن العـرب ظـاهرة صوتية، وإن الأذان تقود المواطن العربي أكثر مـن العـين ولذلك فهو يفضل أن يستمع أكثر مما يقرأ وحتى عندما يقرر أن يستخدم عينيه فان هذا الاستخدام يتم من أجل المشـاهدة والرؤية أكثر من استخدامها من أجل القراءة.

ذلك أن القراءة عملية متعبة، حيث تقوم العين ومعهـا المخيلة بإعادة خلق ما هو مكتوب، تمنع الأحرف الحياة لهذه الخطوط التي ربما كانت ميتة فتتحول إلى تجارب حية.

هكذا كنت أتصور الأزمة خاصة بنا في وطننا العربي، وإلى حد ما في العالم الثالث إلى أن جاء الاكتشاف الأخير.

في منتصف حزيران (يونيو) الماضي، عقد الاتحاد الدولي للناشرين في لندن مؤتمراً عن الكتاب وصناعة النشر تحت سؤال محدد: هل أفل نجم الكتاب؟

وفي الوقت نفسه طلب ملحق (التايمز) الأدبي من محررين أدبيين ونقاد وأمناء مكتبات عامة أن يكتبوا عن التطورات التي حدثت في عالم النشر في الصين، اليابان، جنوب أفريقيا، أستراليا، مصر، إسرائيل، الاتحاد السوفيتي، بلدان وسط أوروبا وشرقها، إيطاليا ، فرنسا، السويد والولايات المتحدة الأمريكية.

ونشر ملف الندوة اللندنية، ورسائل المراسلين عن حال النشر في عدد ايلول (سبتمبر) من مجلة الثقافة العالمية التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، تحت عنوان: الكتاب وصناعة النشر.

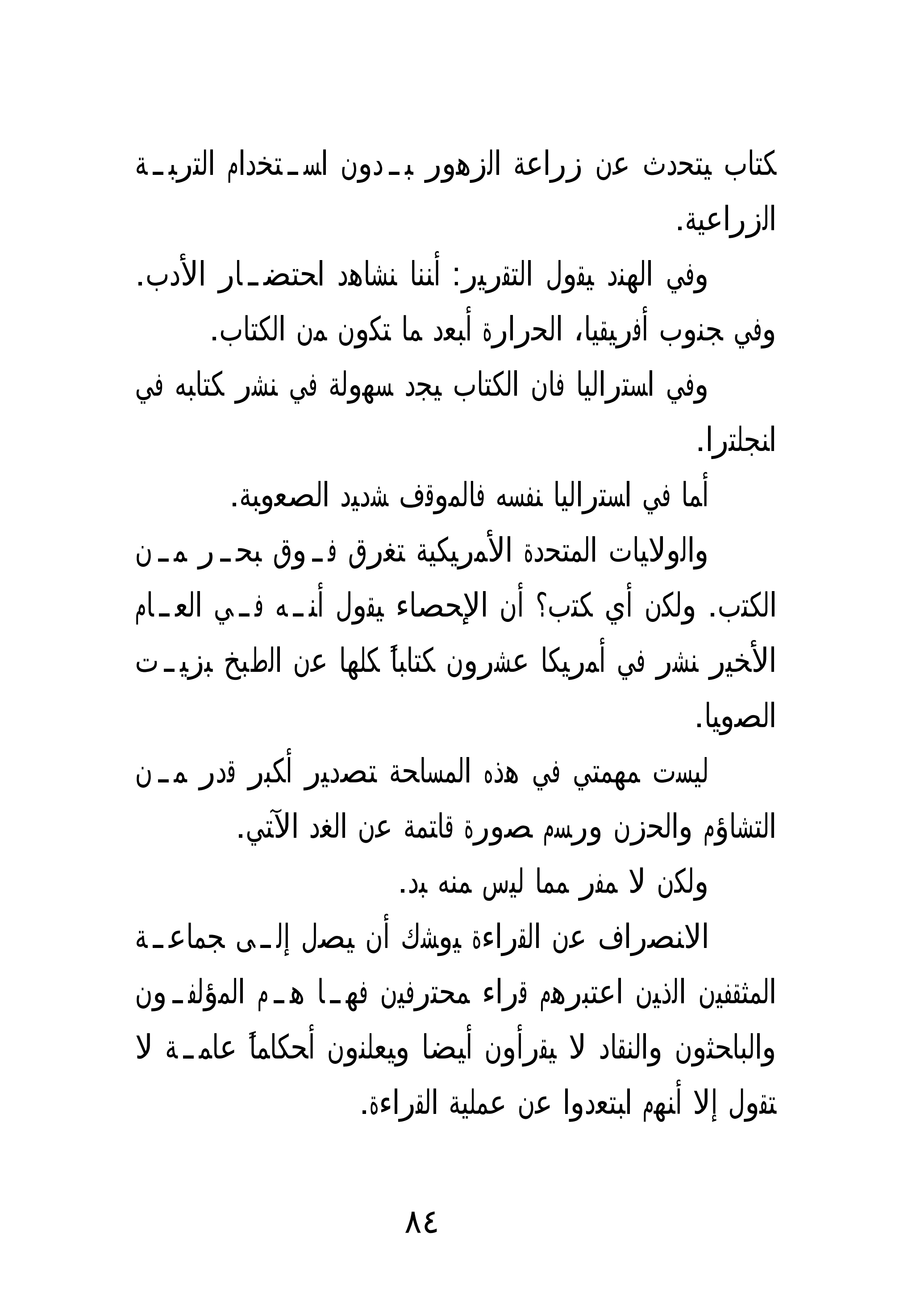
فكيف جاءت الصورة؟!!

الحقيقة المؤلمة الأولى أن الخطر الذي يتهدد القـراءة واحد وفي كافة أنحاء العالم، وأننا لسـنا وحـدنا فـي هـذه الكارثة التي لا بد وأن ندرك أبعادها جيداً من الآن.

فالقراءة تعنى القدرة على امتلاك مساحة من فتـرات الصمت، وهذا الصمت أصبح مستحيلاً بعد هذه الحياة فـي مدن الصخب والضجيج، بل أن البيوت الحديثـة أصـبحت تخلو حتى من مكان يمكن أن يصلح لوضـع الكتـب فيـه، والمكتبة العامة، تلك البيوت الخاصـة بـالقراءة، تتراجـع وتختفي من حياتنا.

أن البيوت الحديثة تغطى جدرانها خزائن الاسطوانات ورفوف أشرطة التسجيل، في المكان نفسه الذي كـان مـن المفروض أن توجد فيه الكتب.

عن دول العالم تبدو الصورة هكذا، في الصين يعـاني النشر من الرقابة وارتفـاع الأسـعار ومشـكلة التحـولات السياسية العنيفة، أما اليابان فإنهـا ليسـت أرض الكتـاب . وأكبر دور النشر فيها اسمها لا كتب، أي أنها معينة بنشـر كل ما هو خفيف وتافه من الكتابات وأكثر الكتـب شـهرة،



كتاب يتحدث عن زراعة الزهور بـدون اسـتخدام التربـة الزراعية.

وفي الهند يقول التقرير: أننا نشاهد احتضـار الأدب.

وفي جنوب أفريقيا، الحرارة أبعد ما تكون من الكتاب.

وفي استراليا فان الكتاب يجد سهولة في نشر كتابه في انجلترا.

أما في استراليا نفسه فالموقف شديد الصعوبة.

والولايات المتحدة الأمريكية تغرق فـوق بحـر مـن الكتب. ولكن أي كتب؟ أن الإحصاء يقول أنـه فـي العـام الأخير نشر في أمريكا عشرون كتاباً كلها عن الطبخ بزيـت الصويا.

ليست مهمتي في هذه المساحة تصدير أكبر قدر مـن التشاؤم والحزن ورسم صورة قاتمة عن الغد الآتي.

ولكن لا مفر مما ليس منه بد.

الانصراف عن القراءة يوشك أن يصل إلـى جماعـة المثقفين الذين اعتبرهم قراء محترفين فهـا هـم المؤلفـون والباحثون والنقاد لا يقرأون أيضا ويعلنون أحكاماً عامـة لا تقول إلا أنهم ابتعدوا عن عملية القراءة.

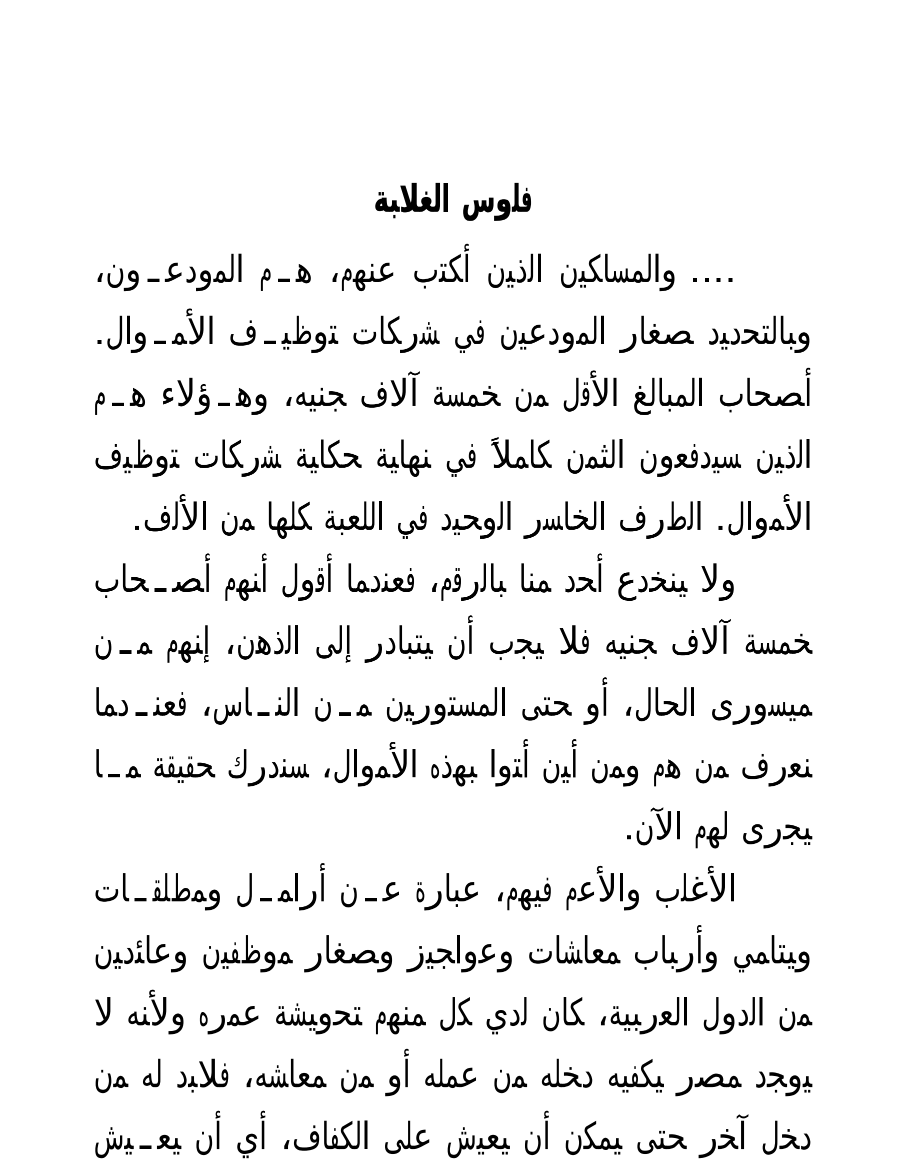
والآن ما معنى هذا كله؟

هل معناه أن القراءة تنقرض؟!

أما أن معناه أننا ندخل إلى عصر آخر يمكن أن يكون فيه نوع من التعامل الشفهي مع الأدب والكلمة المكتوبة؟ أي أننا ندخل إلى زمان آخر مغاير ومختلف، على الكاتب فيه أن يسجل قصته على شريط أو أسطوانة بصـوته، أو أن يقـف وسط الناس لكي يقول ما عنده، وهي نفسها الصـورة التـي كانت موجودة قبل اختراع المطبعة، هل تعود البشرية إلـى زمن ما قبل التدوين؟!!

إنها أسئلة حائرة لا بد من مواجهتها نحن الذين ننـتج الحرف المكتوب قبل أن ينصرف عنا العدد الضئيل والباقي من القراء. فما نكتبه لا قيمة له ما لم يجد من يقرأه.

١٢ نوفمبر ١٩٨٨



.... والمساكين الذين أكتب عنهم، هم المودعون، وبالتحديد صغار المودعين في شركات توظيف الأموال. أصحاب المبالغ الأقل من خمسة آلاف جنيه، وهؤلاء هم الذين سيدفعون الثمن كاملاً في نهاية حكاية شركات توظيف الأموال. الطرف الخاسر الوحيد في اللعبة كلها من الألف.

ولا ينخدع أحد منا بالرقم، فعندما أقول أنهم أصحاب خمسة آلاف جنيه فلا يجب أن يتبادر إلى الذهن، إنهم من ميسورى الحال، أو حتى المستورين من الناس، فعندما نعرف من هم ومن أين أتوا بهذه الأموال، سندرك حقيقة ما يجرى لهم الآن.

الأغلب والأعم فيهم، عبارة عن أرامل ومطلقات ويتامي وأرباب معاشات وعواجيز وصغار موظفين وعائدين من الدول العربية، كان لدي كل منهم تحويشة عمره ولأنه لا يوجد مصر يكفيه دخله من عمله أو من معاشه، فلابد له من دخل آخر حتى يمكن أن يعيش على الكفاف، أي أن يعيش في حدود الحد الأدنى.

والحالات كثيرة، مواطن استبدل جزءا مـن معاشـه وذهب به إلى شركات توظيف الأموال، وأرملـة صـرفت مكافأة نهاية الخدمة لزوجها المتوفي وأودعتها فـي إحـدى الشركات لأنها تعول عشرة من الأطفال، والمعـاش الـذي تركه له زوجها الراحل لا يزيد عن المائة وخمسين جنيهـا، وسائق تاكسي باع سيارته وأودع ثمنها في هذه الشـركات، وفلاح كان يملك قطعة من الأرض يزرعها ويعـيش منهـا، فقرر أن يبيعها ويستثمر ثمنها حتى ينعم بالبطالـة والكسـل وعدم العمل.

بل إن هناك من باع شقته التي يسكن فيها مع أسرته، ووزع الأسرة لكي تعيش عند الأقارب وكل هذا حتى يصبح من المودعين في هذه الشركات.

أن الأمر يصل إلى حدود المأساة، عنـدما نعـرف أن البعض ذهب إلى بنوك الحكومة المصرية، وهى البنوك التي تعانى من أزمة سيولة مالية بصورة رهيبة حيث اقترض من هذه البنوك أموالاً بسعر فائدة يصل إلى ١٥% سنوياً وأخـذ المبلغ وذهب به إلى هذه الشركات لكي يودع المبالغ نفسـها ثم يستفيد من فارق سعر الفائدة بين هذا وذاك.

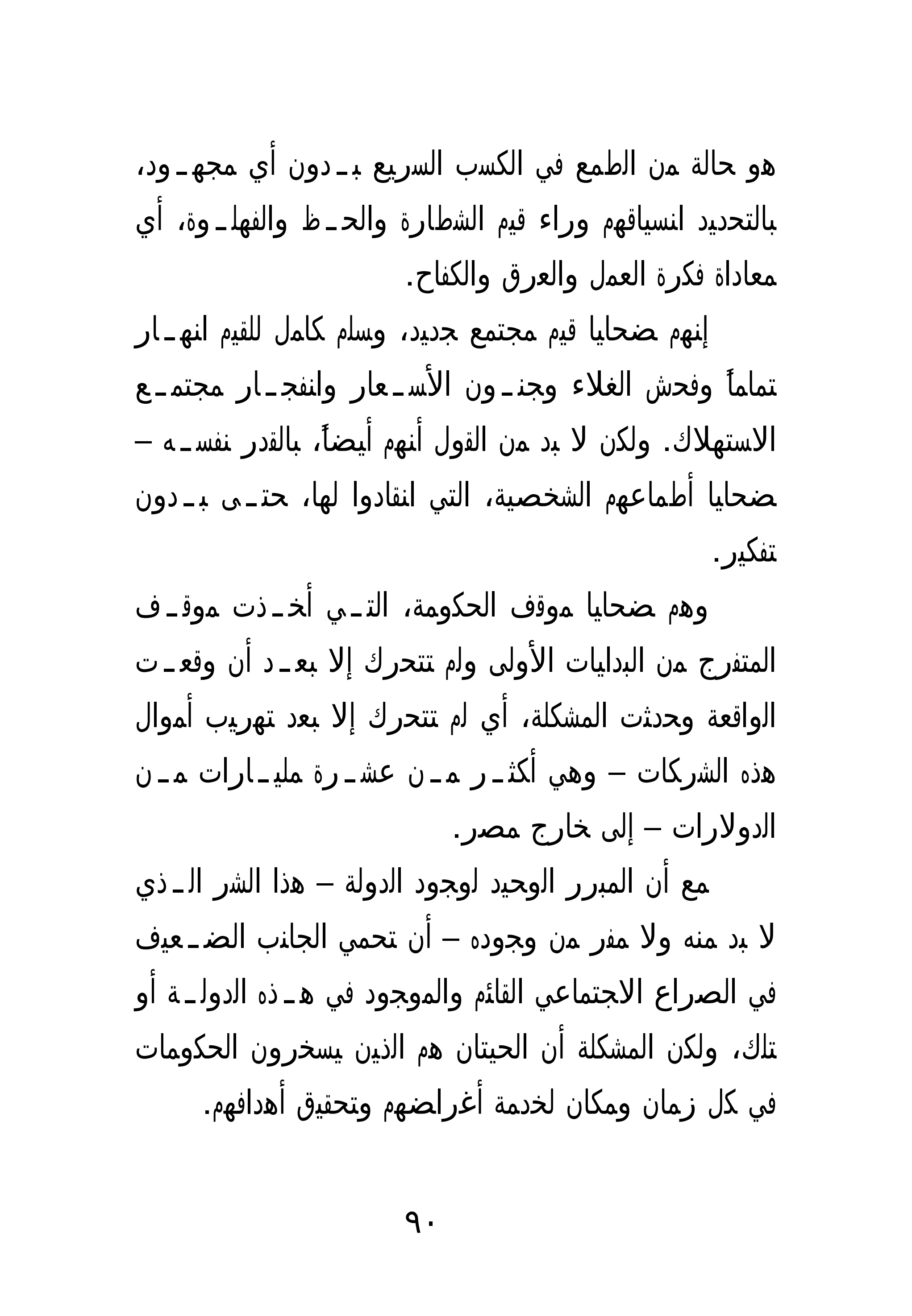
كان الناس لديهم أكثر من عذر، فالشركات تدفع فوائد وتعلن عنها بأكثر من وسيلة، وهذه الفوائد وصلت في بعض الأحيان إلى ٥٠% سنوياً، أي أن من يدفع مائة جنيه مصري يحصل على خمسين جنيهاً كفوائد على المبلغ الذي أودعـه. وبحسبة بسيطة ندرك أنه يسترد أصل المبلغ الذي دفعه فـي عامين فقط.

ثم إن هذه الشركات تدفع الربح بصورة شهرية، دخل ثابت يأتي من خلال هذه اللعبة الجديدة، تضع مبلغاً من المال وتذهب أول كل شهر لكي تحصل على مرتب بدون عمل، أو تعب، ويبقي الإنسان سابحاً في الفضاء والفـراغ بـدون أي عمل أكثر من هذا فإن هذه الشركات ترفع شعارات الـدين. أصحاب الشركات لكل منهم لحية طويلة تذكر الإنسان بشكل لحية راسبوتين شخصيا، وفي منتصـف جبهتـه ((زبيبـه)) سوداء من المفروض إنها تكون من كثرة الركوع والسـجود وهذا معناه – بالنسبة لوعي المـواطن العـادي – أي هـذه الشركات لا تعمل في الربا الذي يحرمـه الـدين والأربـاح العائدة منها محللة شرعا ودينا.

وهكذا عرفت مصر طبقة جديدة لا يقل عـددها عـن ثلاثة ملايين مصري، هم المودعون في شـركات توظيـف الأموال كانوا يعيشون من العائد لهم مـن هـذه الشـركات والبعض منهم لم يكن له أي عائد لكي يعـيش منـه سـوى أمواله التي أودعها لدي شركات توظيف الأموال.

أعرف أنه هناك الكثير من حيتان المصريين أودعـوا أموالهم التي تحسب بالملايين، وأن هنـاك الكثيـرين مـن المسئولين أدعوا أموالهم ولكن هؤلاء وأولئك عندما أودعوا، فإنما ضحوا بجزء من أموالهم، وبقي لهم الكثير من الأموال الأخرى، ثم أنهم استردوا ِأموالهم أو جزءاً منها عندما جـاء الخراب الرهيب لأن قوانين اللعبة تفرض على الحيتان مـن المودعين فالحوت لا بد وأن يجامل الحوت لأن ذلك بند ثابت وأساسي في العقد الاجتماعي والاقتصادي غير المعروف في مصر الآن. فالحوت سيد البحار والحوت يبقي دائمـاً حوتـاً بصرف النظر عن تغير موقعه في اللعبة الراهنة في مصر.

أعرف أيضاً أن صغار المودعين، هؤلاء الفقراء الذين أوشكوا أن يضيعوا تحت أرجل الحيتان، ليسوا من الملائكـة إنهم ضحايا اللعب، الجهنمية، ولكن الذي أدخلهم هذه اللعبـة



هو حالة من الطمع في الكسب السريع بـدون أي مجهـود، بالتحديد انسياقهم وراء قيم الشطارة والحـظ والفهلـوة، أي معاداة فكرة العمل والعرق والكفاح.

إنهم ضحايا قيم مجتمع جديد، وسلم كامل للقيم انهـار تماماً وفحش الغلاء وجنـون الأسـعار وانفجـار مجتمـع الاستهلاك. ولكن لا بد من القول أنهم أيضاً، بالقدر نفسـه – ضحايا أطماعهم الشخصية، التي انقادوا لها، حتـى بـدون تفكير.

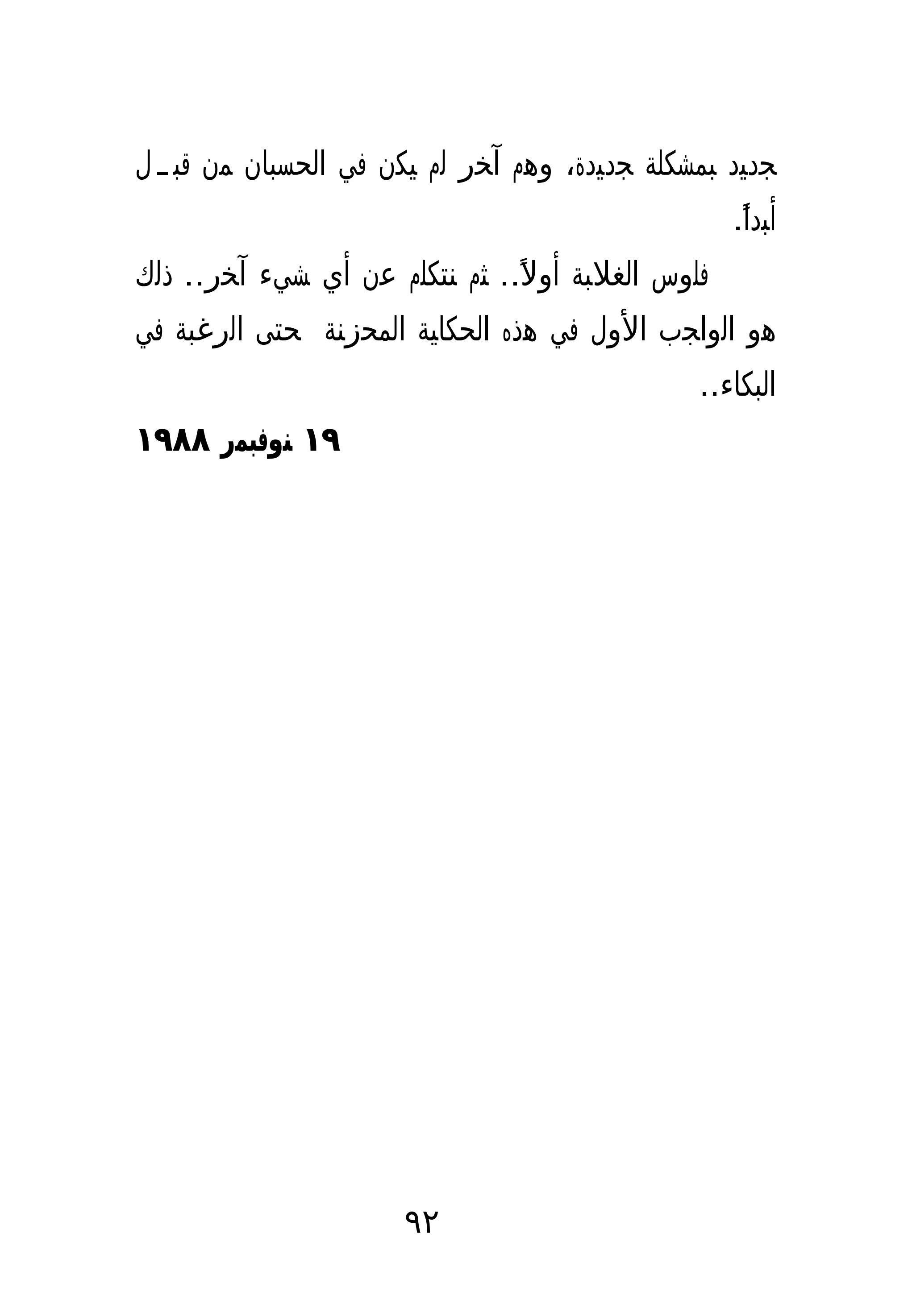
وهم ضحايا موقف الحكومة، التـي أخـذت موقـف المتفرج من البدايات الأولى ولم تتحرك إلا بعـد أن وقعـت الواقعة وحدثت المشكلة، أي لم تتحرك إلا بعد تهريب أموال هذه الشركات – وهي أكثـر مـن عشـرة مليـارات مـن الدولارات – إلى خارج مصر.

مع أن المبرر الوحيد لوجود الدولة – هذا الشر الـذي لا بد منه ولا مفر من وجوده – أن تحمي الجانب الضـعيف في الصراع الاجتماعي القائم والموجود في هـذه الدولـة أو تلك، ولكن المشكلة أن الحيتان هم الذين يسخرون الحكومات في كل زمان ومكان لخدمة أغراضهم وتحقيق أهدافهم.

في مصر الآن دراما يومية اسمها أموال المودعين في شركات توظيف الأموال. وكل يوم تسير مظاهرة أمام مقـر هذه أو تلك، بل أن مظاهرة نسائية – مائـة فـي المائـة – اتجهت منذ فترة إلى مقر القصر الجمهوري لكي تقدم مذكرة للرئيس حول وضعها.

وفي هذه التراجيديا وعـود مـن الدولـة وقصـص وحكايات عن أصحاب هذه الشركات، وأصحاب الشـركات يهددون بإعلان ما لديهم من أسـرار وخفايـا – لا بـد وأن تتحول ذات يوم إلى أفلام سينمائية مثيـرة – إن أصـحاب الشركات يهددون كل يوم بفضح من دفعوا لهم من المسئولين والكتاب وشـباب الصـحفيين «للأسـف الشـديد.. شـباب الصحفيين».

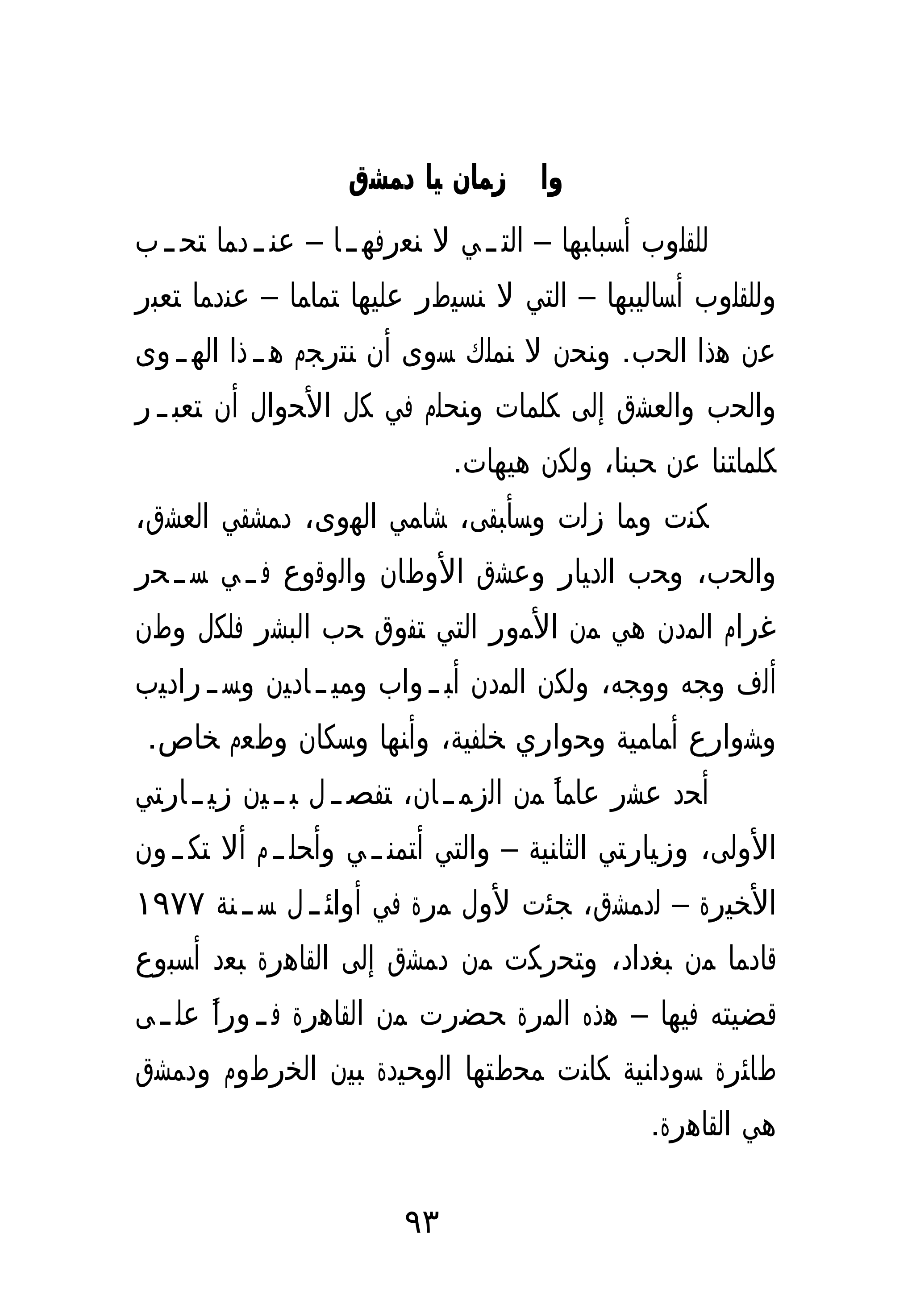
ولكن الأمر الذي لا يجب أن يغيب عن أي ذهن هـو فلوس الغلابة، هؤلاء الناس الـذي أفقـدهم الطمـع الرشـد والصواب، إن كل منهم يعول كوماً من اللحم عبـارة عـن أطفال يبدون الآن وكأنهم بدون مستقبل حقيقي، ويشكلون هما جديداً يضاف إلى هموم هذا الوطن، الذي يأتي له كل يـوم



جديد بمشكلة جديدة، وهم آخر لم يكن في الحسبان من قبـل أبداً.

فلوس الغلابة أولاً.. ثم نتكلم عن أي شيء آخر.. ذلك هو الواجب الأول في هذه الحكاية المحزنة حتى الرغبة في البكاء..

١٩ نوفمبر ١٩٨٨



وا زمان يا دمشق

للقلوب أسبابها – التي لا نعرفها – عندما تحب وللقلوب أساليبها – التي لا نسيطر عليها تماما – عندما تعبر عن هذا الحب. ونحن لا نملك سوى أن نترجم هذا الهوى والحب والعشق إلى كلمات ونحلم في كل الأحوال أن تعبر كلماتنا عن حبنا، ولكن هيهات.

كنت وما زلت وسأبقى، شامي الهوى، دمشقي العشق، والحب، وحب الديار وعشق الأوطان والوقوع في سحر غرام المدن هي من الأمور التي تفوق حب البشر فلكل وطن ألف وجه ووجه، ولكن المدن أبواب وميادين وسراديب وشوارع أمامية وحواري خلفية، وأنها وسكان وطعم خاص.

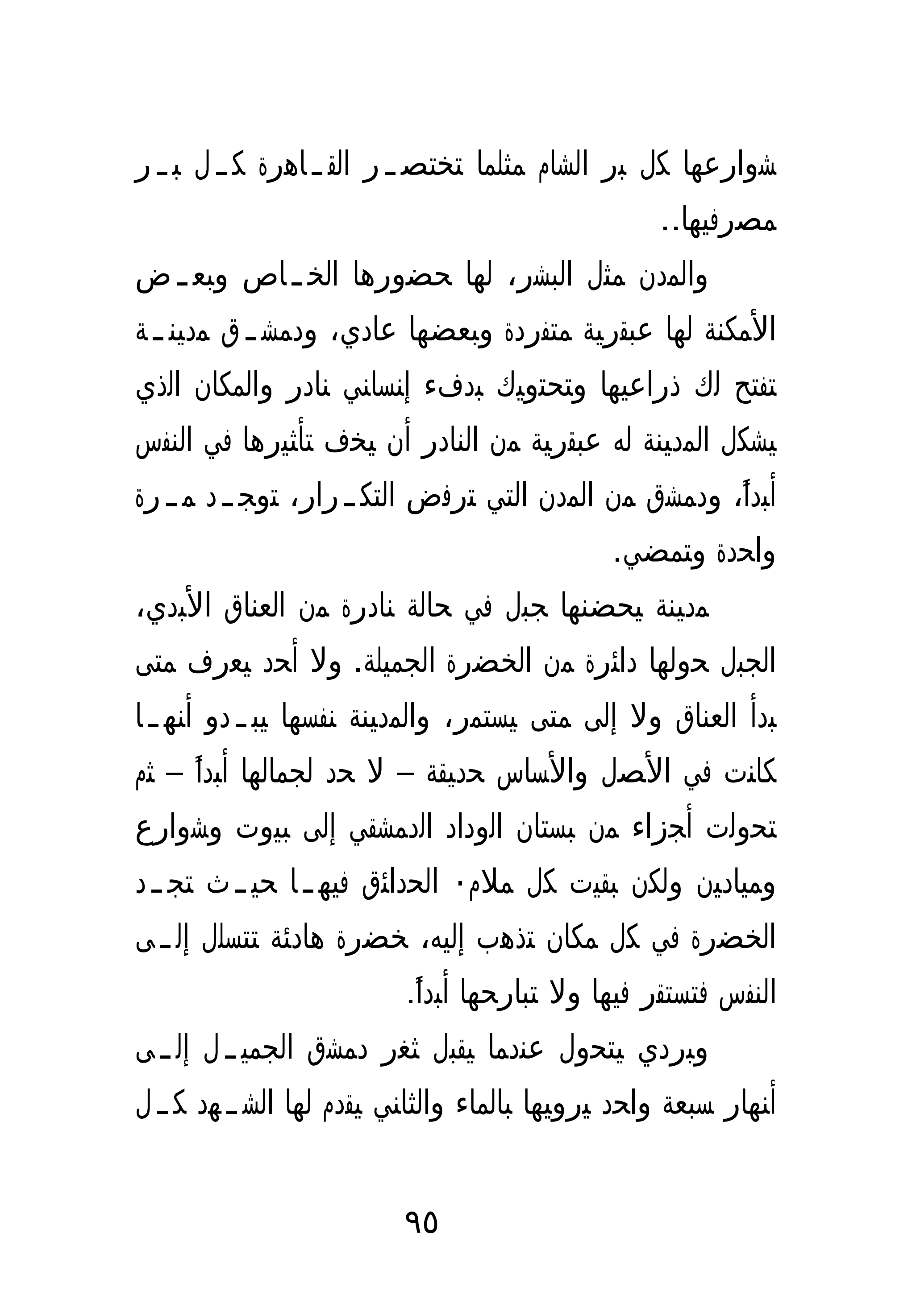
أحد عشر عاماً من الزمان، تفصل بين زيارتي الأولى، وزيارتي الثانية – والتي أتمنى وأحلم ألا تكون الأخيرة – لدمشق، جئت لأول مرة في أوائل سنة ١٩٧٧ قادما من بغداد، وتحركت من دمشق إلى القاهرة بعد أسبوع قضيته فيها – هذه المرة حضرت من القاهرة فوراً على طائرة سودانية كانت محطتها الوحيدة بين الخرطوم ودمشق هي القاهرة.

في الزمان الأخضر الجميل، ونحن في عمـر الصـبا الباكر كنت أفتح الراديو في قريتي البعيدة فيأتيني الصـوت الذي يتحدث عن الرحلة القصيرة من الموسكي إلـى سـوق الحميدية، وكيف أن القلب يعرف الطريق بمفردة لا يحتاج إل من يقوده أو يدله على طريق العشاق.

كانت الرحلة قصيرة، حتى في زمننا هذا العصـيب، وكان يمكن أن تكون أقصر لو كانت فلسطين قد اسـتعيدت والقدس قد تحررت، وعندما كنا على ارتفاع شاهق، جاشت النفس بحلم الزمان الذي مضى، والذي لا نجرؤ حتى علـى التحديق به في أعماقنا، ولو في السر في تلك الأيـام التـي باعدت بيننا وبين أشيائنا الجميلة كلها مرة واحدة.

يبدو أنه مكتوب علينا، أن تصبح أجمل الأشياء هـي تلك التي مضت ،أكثرها إثارة للشجن هي التي تسكن بيـوت الذكريات القديمة.

لكن دعونا مما جرى وما كان، وما صار إليه الحال، الحكاية مثل الهم على القلب وتقليب المواجع ربما يفسد شجن هذه اللحظة، يكفي أنني – مرة أخرى – في الطريـق إلـى عشقي وحبي الذي اسمه دمشق، المدينة التي تختصـر فـي

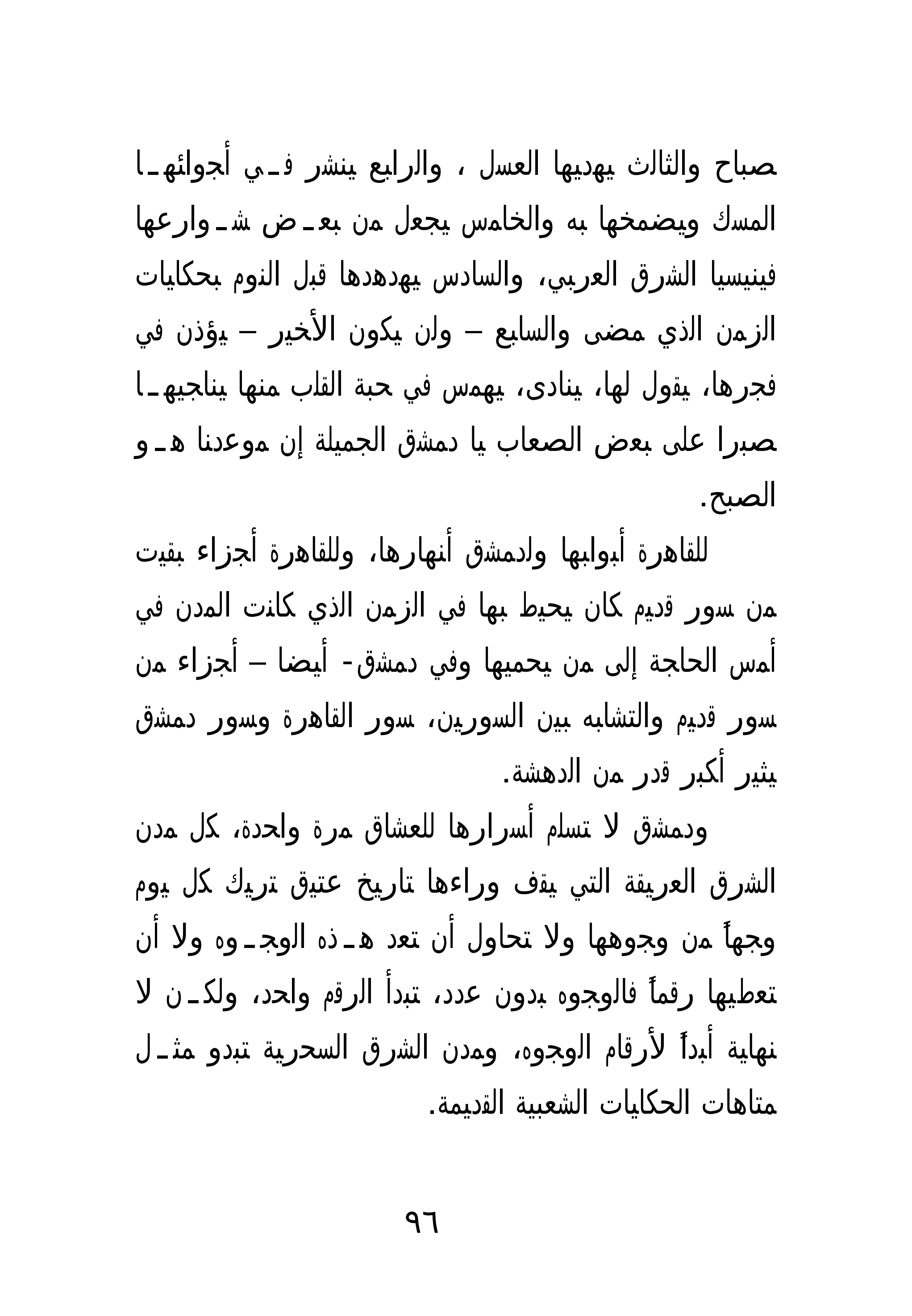


شوارعها كل بر الشام مثلما تختصـر القـاهرة كـل بـر مصرفيها..

والمدن مثل البشر، لها حضورها الخـاص وبعـض الأمكنة لها عبقرية متفردة وبعضها عادي، ودمشـق مدينـة تفتح لك ذراعيها وتحتويك بدفء إنساني نادر والمكان الذي يشكل المدينة له عبقرية من النادر أن يخف تأثيرها في النفس أبداً، ودمشق من المدن التي ترفض التكـرار، توجـد مـرة واحدة وتمضي.

مدينة يحضنها جبل في حالة نادرة من العناق الأبدي، الجبل حولها دائرة من الخضرة الجميلة. ولا أحد يعرف متى بدأ العناق ولا إلى متى يستمر، والمدينة نفسها يبـدو أنهـا كانت في الأصل والأساس حديقة – لا حد لجمالها أبداً – ثم تحولت أجزاء من بستان الوداد الدمشقي إلى بيوت وشوارع وميادين ولكن بقيت كل ملام· الحدائق فيهـا حيـث تجـد الخضرة في كل مكان تذهب إليه، خضرة هادئة تتسلل إلـى النفس فتستقر فيها ولا تبارحها أبداً.

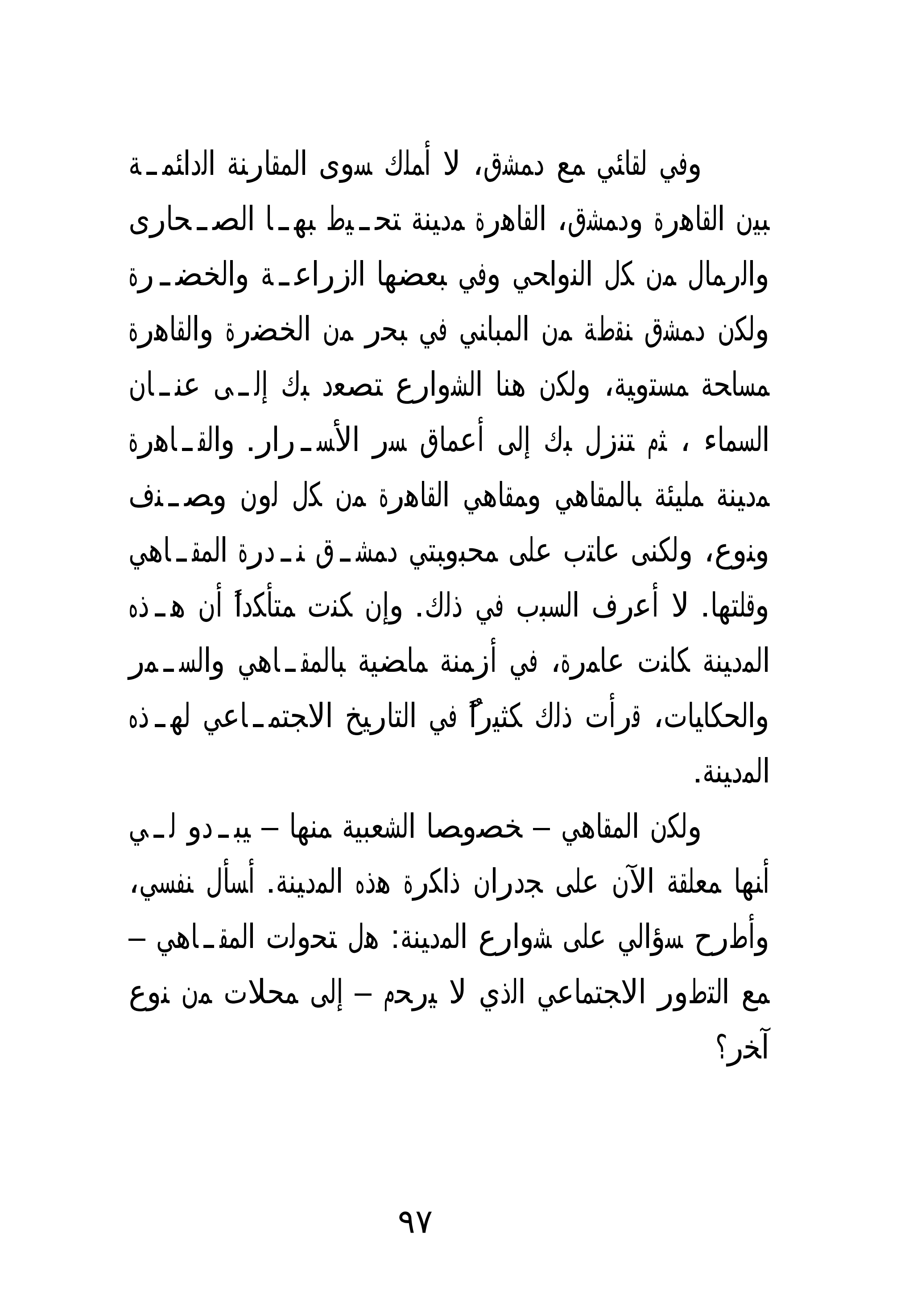
وبردي يتحول عندما يقبل ثغر دمشق الجميـل إلـى أنهار سبعة واحد يرويها بالماء والثاني يقدم لها الشـهد كـل



صباح والثالث يهديها العسل ، والرابع ينشر فـي أجوائهـا المسك ويضمخها به والخامس يجعل من بعـض شـوارعها فينيسيا الشرق العربي، والسادس يهدهدها قبل النوم بحكايات الزمن الذي مضى والسابع – ولن يكون الأخير – يؤذن في فجرها، يقول لها، ينادى، يهمس في حبة القلب منها يناجيهـا صبرا على بعض الصعاب يا دمشق الجميلة إن موعدنا هـو الصبح.

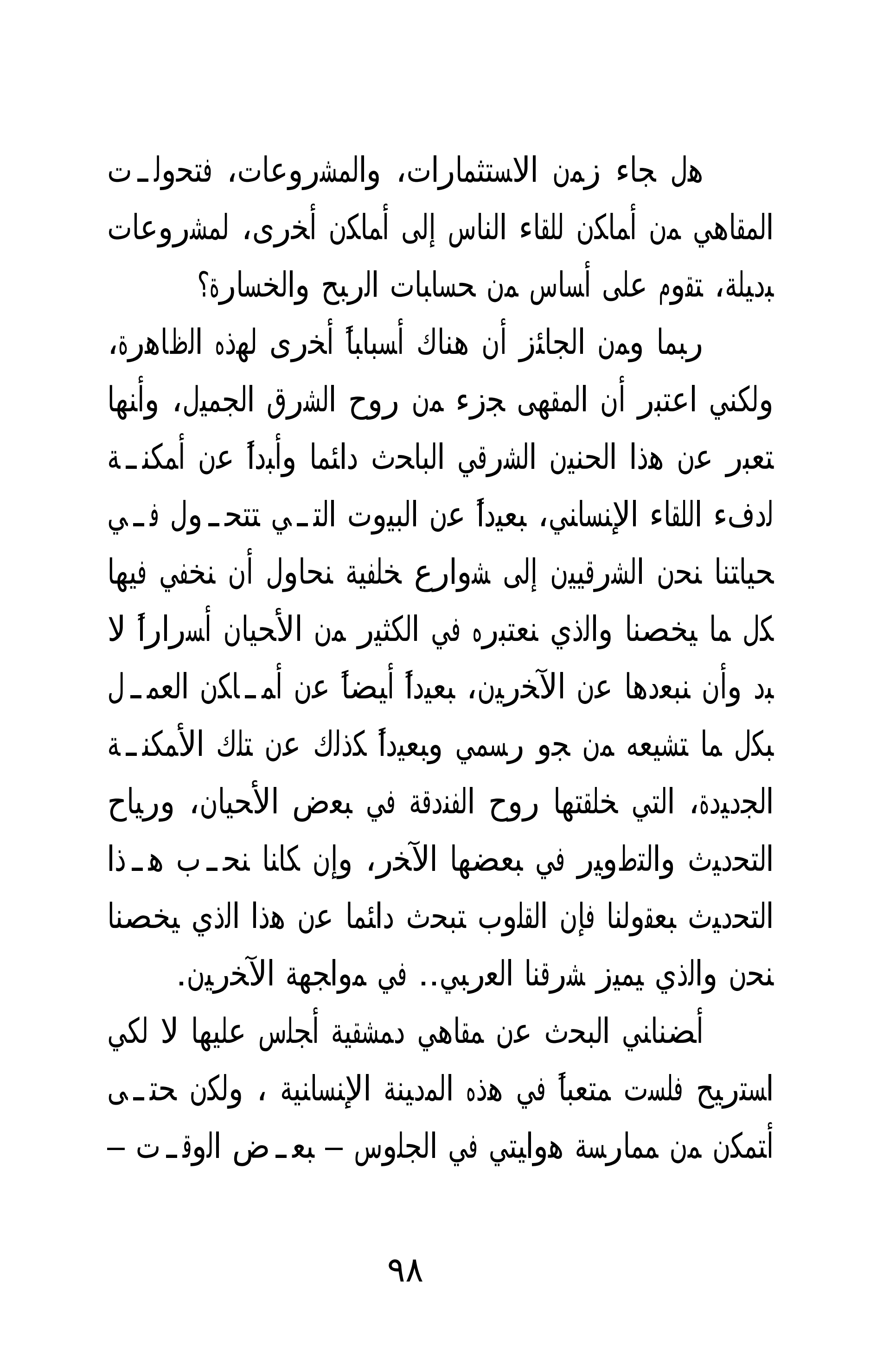
للقاهرة أبوابها ولدمشق أنهارها، وللقاهرة أجزاء بقيت من سور قديم كان يحيط بها في الزمن الذي كانت المدن في أمس الحاجة إلى من يحميها وفي دمشق- أيضا – أجزاء من سور قديم والتشابه بين السورين، سور القاهرة وسور دمشق يثير أكبر قدر من الدهشة.

ودمشق لا تسلم أسرارها للعشاق مرة واحدة، كل مدن الشرق العريقة التي يقف وراءها تاريخ عتيق تريك كل يوم وجهاً من وجوهها ولا تحاول أن تعد هـذه الوجـوه ولا أن تعطيها رقماً فالوجوه بدون عدد، تبدأ الرقم واحد، ولكـن لا نهاية أبداً لأرقام الوجوه، ومدن الشرق السحرية تبدو مثـل متاهات الحكايات الشعبية القديمة.



وفي لقائي مع دمشق، لا أملك سوى المقارنة الدائمة بين القاهرة ودمشق، القاهرة مدينة تحيط بها الصحارى والرمال من كل النواحي وفي بعضها الزراعة والخضرة ولكن دمشق نقطة من المباني في بحر من الخضرة والقاهرة مساحة مستوية، ولكن هنا الشوارع تصعد بك إلى عنان السماء ، ثم تنزل بك إلى أعماق سر الأسرار. والقاهرة مدينة مليئة بالمقاهي ومقاهي القاهرة من كل لون وصنف ونوع، ولكنى عاتب على محبوبتي دمشق ندرة المقاهي وقلتها. لا أعرف السبب في ذلك. وإن كنت متأكداً أن هذه المدينة كانت عامرة، في أزمنة ماضية بالمقاهي والسمر والحكايات، قرأت ذلك كثيراً في التاريخ الاجتماعي لهذه المدينة.

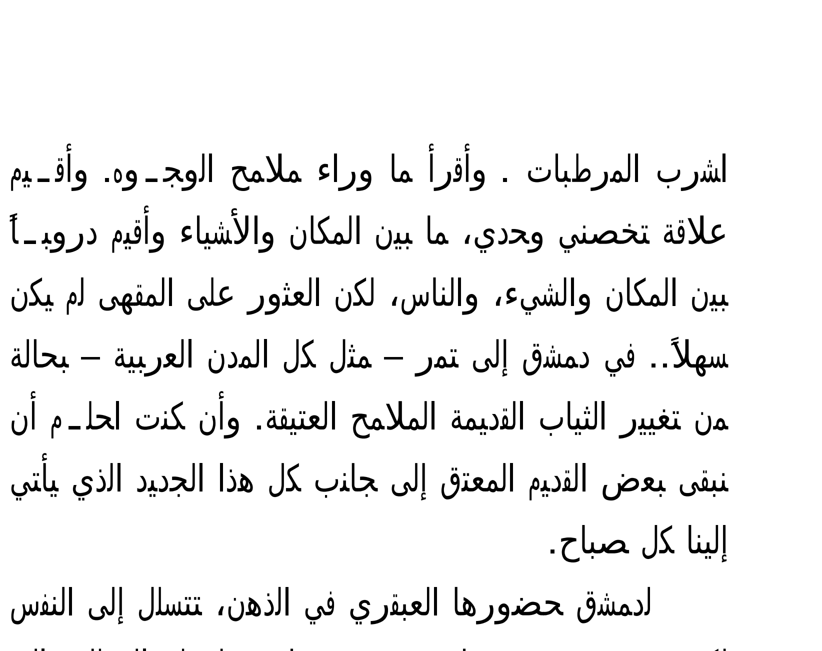
ولكن المقاهي – خصوصا الشعبية منها – يبدو لي أنها معلقة الآن على جدران ذاكرة هذه المدينة. أسأل نفسي، وأطرح سؤالي على شوارع المدينة: هل تحولت المقاهي – مع التطور الاجتماعي الذي لا يرحم – إلى محلات من نوع آخر؟



هل جاء زمن الاستثمارات، والمشروعات، فتحولـت المقاهي من أماكن للقاء الناس إلى أماكن أخرى، لمشروعات بديلة، تقوم على أساس من حسابات الربح والخسارة؟

ربما ومن الجائز أن هناك أسباباً أخرى لهذه الظاهرة، ولكني اعتبر أن المقهى جزء من روح الشرق الجميل، وأنها تعبر عن هذا الحنين الشرقي الباحث دائما وأبداً عن أمكنـة لدفء اللقاء الإنساني، بعيداً عن البيوت التـي تتحـول فـي حياتنا نحن الشرقيين إلى شوارع خلفية نحاول أن نخفي فيها كل ما يخصنا والذي نعتبره في الكثير من الأحيان أسراراً لا بد وأن نبعدها عن الآخرين، بعيداً أيضاً عن أمـاكن العمـل بكل ما تشيعه من جو رسمي وبعيداً كذلك عن تلك الأمكنـة الجديدة، التي خلقتها روح الفندقة في بعض الأحيان، ورياح التحديث والتطوير في بعضها الآخر، وإن كانا نحـب هـذا التحديث بعقولنا فإن القلوب تبحث دائما عن هذا الذي يخصنا نحن والذي يميز شرقنا العربي.. في مواجهة الآخرين.

أضناني البحث عن مقاهي دمشقية أجلس عليها لا لكي استريح فلست متعباً في هذه المدينة الإنسانية ، ولكن حتـى أتمكن من ممارسة هوايتي في الجلوس – بعـض الوقـت –



اشرب المرطبات . وأقرأ ما وراء ملامح الوجـوه. وأقـيم علاقة تخصني وحدي، ما بين المكان والأشياء وأقيم دروبـاً بين المكان والشيء، والناس، لكن العثور على المقهى لم يكن سهلاً.. في دمشق إلى تمر – مثل كل المدن العربية – بحالة من تغيير الثياب القديمة الملامح العتيقة. وأن كنت احلـم أن نبقى بعض القديم المعتق إلى جانب كل هذا الجديد الذي يأتي إلينا كل صباح.

لدمشق حضورها العبقري في الذهن، تتسلل إلى النفس لكي تبقي في ضميرها وبذرة روحها من لحظة التسلل والي الأبد.. وللمكان مذاقه الخاص جداً. وللزمان الذي يلتقي مـع المكان نوع من الغنائية التي تتسامي وتصل إلى حدود الشعر في كثير من الأحيان.

وللناس والأشـياء والوجـوه مـذاق إنسـاني نـادر. يحاصرك هذا المذاق بحالة من الحب والعشق النادر الوجود في زمان تراجعت فيه كل الأشـياء الإنسـانية بصـورة لا نعرف كيف تمت ولا كيف نوقفها عند الحد الـذي وصـلت إليه، تراجعت هذه الأشياء الإنسانية من حياتنا، لم يصل بعد إلى دمشق الفيحاء لدرجة أن الحب هنا قتـال. هـل وصـل

الحب بأحد منكم إلى مشارف الاختناق؟ هذا ما حـدث لـي بالتحديد مع دمشق الشام. يحاصرني في كل مكان خدر الحب الجميل. حب المكان، وعشق الأشياء ومحبة هذا المعـرض من وجوه الناس المرصوصة في حبة القلب الذي تعب مـن كثرة الخفقان والذي أوجع الصدر من تلك الدقات المرهقـة على أبواب النفس وتخوم الضمير في كل لحظة مرت علـى منذ أن نزلت إلى أرض الشام، وفي كل لحظة تجولت فيهـا في تلك البلاد لافكاك اك من الوقوع في سحر حبها.

اعترف أنني أمسكت بالقلم ذات صباح يقف في هـذه المنطقة الحرجة بين الخريف الذي كتب كلمته الرمادية على وجه دمشق، وأوشك أن يمضي حتى يتـرك مكانـه لشـتاء دمشق يغسل المدينة، فيزيدها بهاء على بهاء وتصبح المدينة كل مساء مغسولة بماء المطر تشرب منه وتستحم فيه مبلولة الشعر، وعندما تستريح من ماء المطر، تجـد نفسـها فـي أحضان ماء بردي، من الماء إلى الماء تخطو وتتمايل معجبة بنفسها متباهية بجمالها.

أمسكت بالقلم، حتى أتجول به في شرايين المدينة، كي أصل إلى قلبها، وأتجول في دروبه، حتى أمسـكك بسـرها

المكنون، ولكني وجدت نفسي دون أن أدري أكتب قصة هذه المدينة مع قلبي ومن تلافيف روحي. بالتحديد عـن تبـاريح الهوى التي أثارتها دمشق الجميلة في حبة الفؤاد. وفي أعماق الروح.

حتى هذه القصة شغلني عنها نوع فريد من التعب مـا كنت أظن انه موجود في زماننا صدقوني إننى مختنق بحب هذه الفاتنة، متعب من البوح بعشقي، مرهـق مـن نجـوى المحبين، فهذه المدينة اجتمعت لها المعجزات الثلاث المـاء والخضرة الوجه الحسن، في زمن أدارت المعجزات ظهرها له. ولذلك قلت في لحظة التلاقي «وا زمان يـا دمشـق» ولكن عندما تأتي اللحظة التي أمسك فيهـا بمنـديل الـوداع وألواح للشام لن أقول أبداً: وداعاً. ولكننى سـأهمس: إلـى اللقاء يا دمشق الشام. أما قصتي مع هذه المدينة المعشـوقة فتلك حكاية أخرى..

٢٦ نوفمبر ١٩٨٨

سميح مصر درويش فلسطين

سميح القاسم في مصر لأول مرة فأسعفيني يا دمـوع العين. سميح القاسم في أول وطن عربي يصل إليه في عمره كله، فأين أنت يا كل مفردات لغة العرب، منذ أن وجدت هذه اللغة وحتى الآن. جاء سميح فشكشك الدمع جفوني بعذوبتـه الجميلة.

سميح ليس وحده. معه في القاهرة محمود درويـش، الذي مر بالتجربة نفسها منذ سنوات. وكان خروجـه الأول. وكانت مغامرة الخروج الأولى له إلى مصر أيضاً.

لم تكن المرة الأولى التي التقي فيها سـميح القاسـم. قابلته منذ عامين ولأول مرة في بلاد السوفيات، قضينا معـاً أسبوعين ما بين موسكو ولينجراد ويومها كان هـم سـميح الأول يقابل عرباً في وطن عربي وأن يقول شعره ويغنـي أمام جماهير عربية وفمي واقع عربي.

وقابلت محمود درويش أكثر من مرة. فـي القـاهرة وبغداد والجزائر وتونس وباريس.

ولكنها المرة الأولى التي التقي فيها مع محمود وسميح معاً.

وهما معا يعنيان لي الكثير، محمود من خرج الســجن إلى المنفي، اختار مغامرة الرحيل وأزمــة الخــروج لأنــه اكتشف أن البقاء في قفص السجن الصهيوني لم يعد ممكناً.

وسميح اكتشف أيضاً أن مغــامرة الرحيــل وأزمــة الخروج مستحيلة فقرر البقاء فــي ســجن الســجن وســجن الملاحقات وتحديد الإقامة والمراقبة وتحديد مواعيد الخروج من البيت والعودة إليه.

ولأن النضال ليس له جغرافيــة محــددة. ولأن الهــم الفلسطيني يمتد من الوطن المحتل لكي يشمل الدنيا بأســرها فلا بد من النظر إلى التجربتين معاً في إطار مــن التكامــل وليس التناقض، والاستمرار وليس التضاد، جاءا معاً، سميح من فلسطين المحتلة، من سجن السجن ومحمود من بــاريس. من منفى المنفي إلى مصر في مصر، من أجل فلسطين ومن أجل مصر.

وكان الجميع في أمس الحاجة إلى هذا اللقاء.

كان المصريون في أمس الحاجة إلى هذا القــادم مــن أرض الانتفاضة البطلة التي أوشكت أن تكمل عامها الأول، يحمل معه رائحة الحجر المسنون. كل ذرة بداخله مســكونة

بتلك التفاصيل اليومية الصغيرة والتي لا تنتهي عن الحيـاة الداخل. تلك التجربة الفريدة التي لا نعرف عنها سـوى مـا نقرأه وما نسمعه، ولكن ها هو كيان، ملئ بالحرارة، كتلة من الأحاسيس والمشاعر تقول في كل لحظة تلك هـي تجربـة الداخل

وكان سميح في أمس الحاجة لأن يرى مدينة واحـدة فيها اثنا عشر مليونا من العرب، شوارع يمشي فيها العرب، بيوت يسكنها العرب، أوتوبيسات ومحلات ومطاعم يملؤهـا العرب، وأن ترحم أذنيه أصوات بالملايين لا تنطـق سـوى باللغة العربية طوال الليل والنهار.

كان في أمس الحاجة، لأن يرى ويسمع ويعايش ذلـك الرفض المصري النبيل والعظيم لأي وجود صهيوني.

وأن يرى شارة النصر تلوح له من كـل مكـان فـي مصر. وأن يسمع في كل مكان عبارة «فلسطين عربية» وأن يكتشف أن علم فلسطين وغطاء الرأس الفلسطيني قد أصبحا يشكلان كل الكوفيات التي يتقي بها المصريون البرد القارس الذي يشيعه الصهاينة.

كان سميح القاسم رسالة الشعب الفلسطيني المحتل إلى مصر العربية ومصر الفلسطينية ومصر المصـرية.. وقـد جاءه الرد ((بالبريد المستعجل)) رسالة وصل الـرد عليهـا، قبل أن تصل الرسالة نفسها.

ومحمود كان في أمس الحاجـة لأي يـرى الضـمير المصري وهو يحتضن رحلة مثل رحلته منذ سـنوات. وأن ينصت إلى القلب المصري وهو يخفق لسميح مثلما خفق لـه بالدقات نفسها منذ سنوات مضت. وأن يرى مع سميح فـي اللحظة نفسها ماء النيل وسمرة الوجوه وخضرة الزرع. وأن يسمعا تراتيل الآذان من ألف مأذنة تخرج من رحم القـاهرة لكي تشرب من سماء مصر المعطرة بماء الكافور.

وعلى ضفاف النيل التقيا معاً، شاعر السجن وشـاعر المنفي في محطة على طول رحلة البحث عن الوطن الحلم، الوطن الأمنية.

التقيا بجمـاهير مصـر العربيـة وجمـاهير مصـر الفلسطينية في أمسيتين شعريتين، الأولي أقيمت على مسرح الجمهورية الذي يعود اسمه إلى أول جمهورية تعلـن فـي مصر، والكائن في عابدين، على بعد أمتار من المكان الـذي

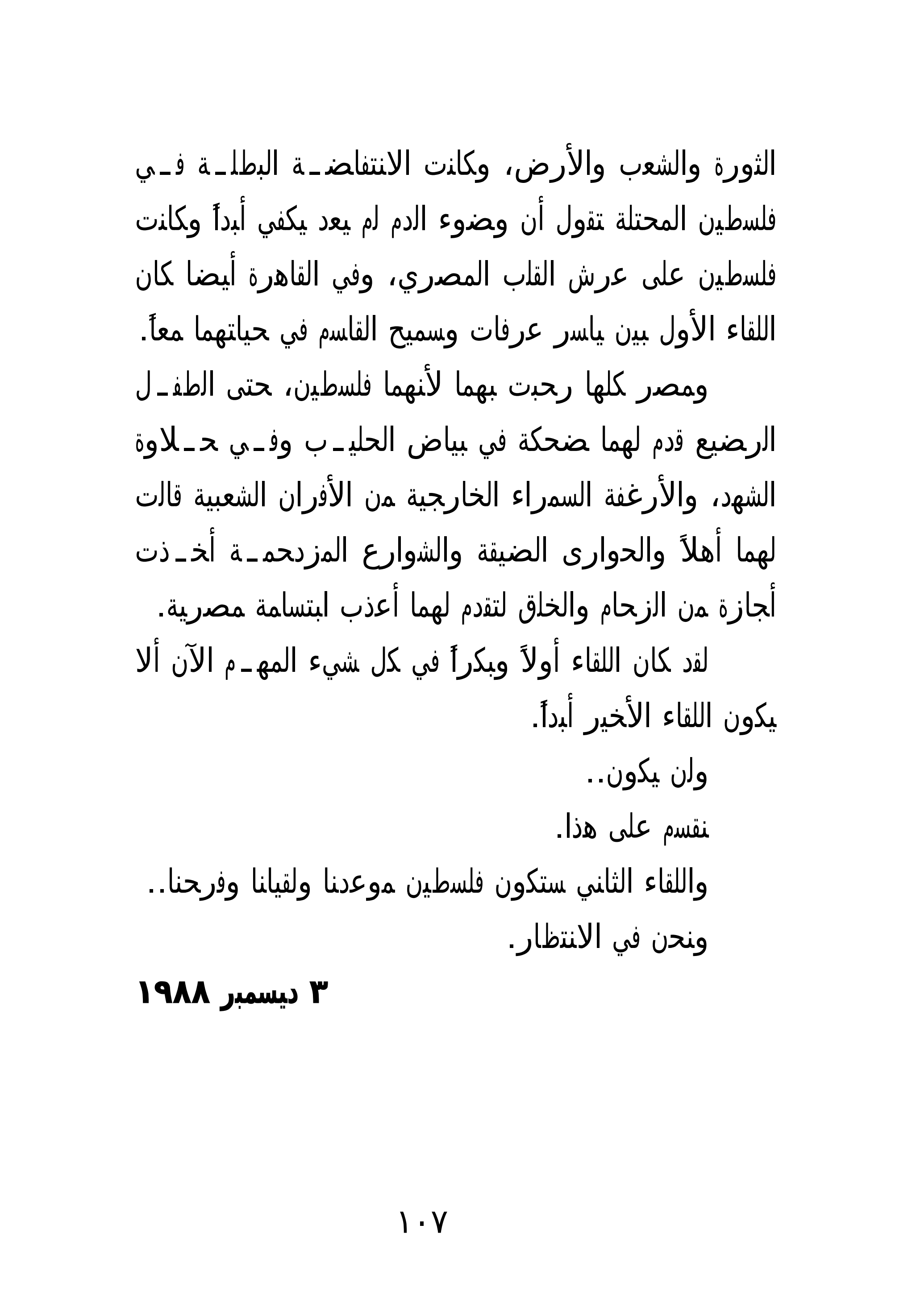
وقف فيه أحمد عرابي لكي يقول قولته للخديوي توفيق بـن الخديوي إسماعيل : ((لقد خلقنا ا احراراً ولم يخلقنا تراثـاً وعقاراً فوا لن نستعبد بعد اليوم أبداً)).

والأمسية الثانية على مسرح البالون المطل على نيـل القاهرة حيث لا يشعر الإنسان أنه فـي مصـر إلا بعـد أن تطالعه عيناه. ذلك الأسمر الغامق العابق الذي يتبختر قاطعاً مصر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال.

وقف محمـود درويـش، وقبـل أن يلقـى قصـيدته ((عابرون في كلام عابر)) القصيدة العاصفة، قال أنه يهديها إلى ضيف ضيوف الوطن المصري سميح القاسم.

وقفت لأسأل القاهرة عن هذا الفرح بفلسطين من أيـن جاء؟! وكيف نرفعه إلى مستوى مـا يتسـحقه مـن البهـاء والجلال والعظمة.

كان سميح يلقي قصيدته الشهيرة عن الفلسطيني الـذي كان شخصاً غير مرغوب فيه، ولكن الدولة كانت قد قامـت، وكان يتم إحصاء أسماء الفلسطينيين حتى يكون بين أيديهم – في القريب العاجل – جوازات سفر مكتوب عليها ((جمهورية فلسطين العربية)) وكان محمود درويش يلقي أشـعاره عـن



الثورة والشعب والأرض، وكانت الانتفاضـة البطلـة فـي فلسطين المحتلة تقول أن وضوء الدم لم يعد يكفي أبداً وكانت فلسطين على عرش القلب المصري، وفي القاهرة أيضا كان اللقاء الأول بين ياسر عرفات وسميح القاسم في حياتهما معاً.

ومصر كلها رحبت بهما لأنهما فلسطين، حتى الطفـل الرضيع قدم لهما ضحكة في بياض الحليـب وفـي حـلاوة الشهد، والأرغفة السمراء الخارجية من الأفران الشعبية قالت لهما أهلاً والحوارى الضيقة والشوارع المزدحمـة أخـذت أجازة من الزحام والخلق لتقدم لهما أعذب ابتسامة مصرية.

لقد كان اللقاء أولاً وبكراً في كل شيء المهـم الآن ألا يكون اللقاء الأخير أبداً.

ولن يكون..

نقسم على هذا.

واللقاء الثاني ستكون فلسطين موعدنا ولقيانا وفرحنا..

ونحن في الانتظار.

٣ ديسمبر ١٩٨٨

مصريون في بلاد الشام

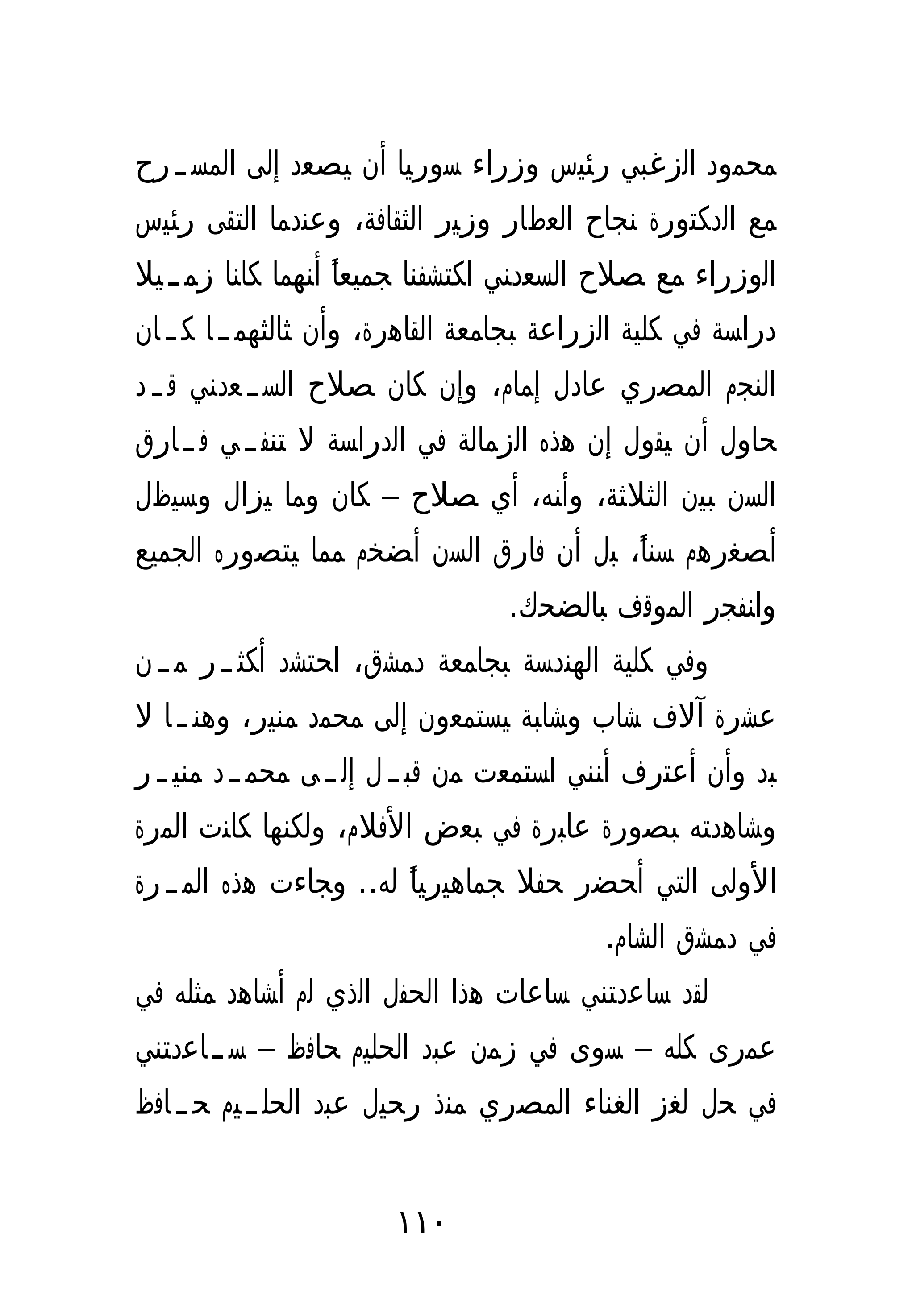
كنا مجموعة من أهل الفن نسير في أحد شوارع دمشق، وكنا كعادتنا نحن المصريين ، نمزح التسكع بالثرثرة، ذات الصوت العالي تصل إلى حدود الصياح، في بعض الأحيان، وبينما كنا نعوم في بحار الكلمات، استوقفنا الناس لكي يتأكدوا أننا «مصاروة» ولكي يتذوقوا العامية المصرية الجميلة – من جهة نظرهم – التي لم تعد تصلهم، الآن خلال الأفلام السينمائية ومسلسلات التليفزيون المصرية التي تذاع في التليفزيون السوري، وفي بعض الأحيان تليفزيون الأردن.

كانت سعادة الناس بنا تفوق القدرة على الوصف، وربما لا أغالي عندما أقول إن هذه السعادة والحفاوة بالمصريين هما أمر سوري بالدرجة الأولى، بمعنى أننى لم أتذوقها سوى في هذه البلاد فقط.

ورحلت إلى الزمان الأخضر الجميل الذي مضي، إلى العاملين الأخيرين من الخمسينات، والعامين الأولين من الستينيات عندما غنى المطرب محمد قنديل «وحدة ما يغلبها غلاب» لقد جرت مياه كثيرة في ميل النيل في بر مصر،

وفي بردي في بر الشام، وغاب الغلاب الوحدة التي كانت حلما وتراجعت لتسكن بيوت الأحلام الجميلة، التي تبقى مثل القناديل القديمة، نحبها لأنها جزء من مراحل سابقة، ولكن بقى المعنى الإنساني النبيل في بذرة روح الإنسان العادي سواء في الموسكي أو سوق الحميدية.

وعلى خشبة «مسرح الثامن من آذارع» في قلب دمشق، كان الفنان صلاح السعدني يقف، يشخص ويمثل ويسيطر بطريقة نادرة على القاعة، وعندما تهكم على الوزراء في زماننا – وكان هذا التهكم خروجاً على نص مسرحية سعد ا ونوس «الملك هو الملك» ضجت القاعة بضحك وصخب غير عاديين، ولم ندرك السبب وراء هذا الحبور النادر إلا عندما أدركنا أن الصف الأول من المشاهدين أو النظارة هو عبارة عن وزراء سوريا يتوسطهم محمود الزغبي رئيس الوزراء، ولكن المفاجأة الحقيقية جاءت بعد نزول الستارة الأخيرة، وبعد أن أصر الممثلون المصريون على صعود سعد ا ونوس إلى خشبة المسرح، حيث خلع صلاح السعدني تاج الملك من فوق رأسه ووضعه فوق راس سعد ا ونوس. ولكن المفاجاة جاءت عندما طلب



محمود الزغبي رئيس وزراء سوريا أن يصعد إلى المسـرح مع الدكتورة نجاح العطار وزير الثقافة، وعندما التقى رئيس الوزراء مع صلاح السعدني اكتشفنا جميعاً أنهما كانا زمـيلا دراسة في كلية الزراعة بجامعة القاهرة، وأن ثالثهمـا كـان النجم المصري عادل إمام، وإن كان صلاح السـعدني قـد حاول أن يقول إن هذه الزمالة في الدراسة لا تنفـي فـارق السن بين الثلاثة، وأنه، أي صلاح – كان وما يزال وسيظل أصغرهم سناً، بل أن فارق السن أضخم مما يتصوره الجميع وانفجر الموقف بالضحك.

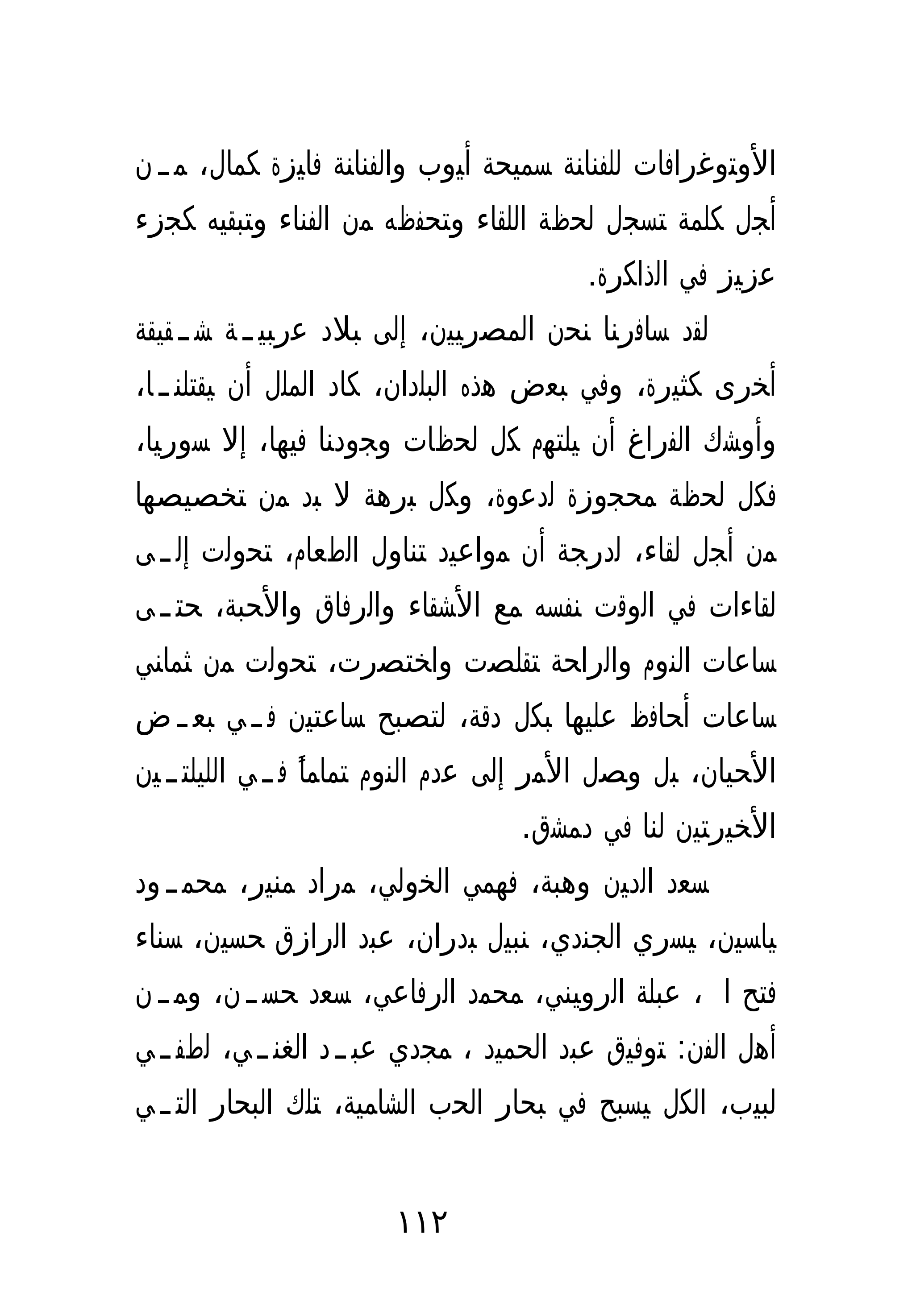
وفي كلية الهندسة بجامعة دمشق، احتشد أكثـر مـن عشرة آلاف شاب وشابة يستمعون إلى محمد منير، وهنـا لا بد وأن أعترف أنني استمعت من قبـل إلـى محمـد منيـر وشاهدته بصورة عابرة في بعض الأفلام، ولكنها كانت المرة الأولى التي أحضر حفلا جماهيرياً له.. وجاءت هذه المـرة في دمشق الشام.

لقد ساعدتني ساعات هذا الحفل الذي لم أشاهد مثله في عمرى كله – سوى في زمن عبد الحليم حافظ – سـاعدتني في حل لغز الغناء المصري منذ رحيل عبد الحلـيم حـافظ

وحتى الآن، هذا الغناء المصري الراهن الذي يتأرجح بـين حلفات الذكر والديسكو وعدوية، وها هو الفارس محمد منير، كتلة من الإحساس والمشاعر، يقف، كما قالت لـي الكاتبـة والشاعرة المصرية عبلة الرويني، على عرش القلب.

وسر محمد منير أنه لا يغنـي، ولكنـه يجعـل كـل الحاضرون يغنون، يخرج نهائيا من تلك الـدائرة الجهنميـة للطرب بمعناه التقليدي، فمن قبل كان المطرب يغني والناس لا تملك سوى الاستماع، ولكن مع محمد منير الكل يغنـي، والناس قبل المطرب ومعه وبعده، فهو قادر علـى انتـزاع الرغبة في الغناء، ولذلك فحضور حفلاته لـيس فرجـة ولا قدرة على الاستماع ولكنه مشاركة في الغناء وليس الطرب. وبالتالي فإن محمد منير ليس مطرباً ولكنه مغن، يحول مـا تشعر به الجماهير – إلى غناء من ذلك النوع النادر.

لا يمكن للإنسان أن ينسى أبداً الطريقة التي خرجنا بها من جامعة دمشق، من أبوابها الخلفية هاربين مـن الزاحـف البشري الهائل، والمشكلة أن محمد منير بعد ثلاث سـاعات من الغناء، كانت الناس تطلب منه المزيد والمزيد، ولو حتى الصباح، ولا يمكن نسيان الفتيان والفتيات الـذين يحملـون



الأوتوغرافات للفنانة سميحة أيوب والفنانة فايزة كمال، من أجل كلمة تسجل لحظة اللقاء وتحفظه من الفناء وتبقيه كجزء عزيز في الذاكرة.

لقد سافرنا نحن المصريين، إلى بلاد عربية شقيقة أخرى كثيرة، وفي بعض هذه البلدان، كاد الملل أن يقتلنا، وأوشك الفراغ أن يلتهم كل لحظات وجودنا فيها، إلا سوريا، فكل لحظة محجوزة لدعوة، وكل برهة لا بد من تخصيصها من أجل لقاء، لدرجة أن مواعيد تناول الطعام، تحولت إلى لقاءات في الوقت نفسه مع الأشقاء والرفاق والأحبة، حتى ساعات النوم والراحة تقلصت واختصرت، تحولت من ثماني ساعات أحافظ عليها بكل دقة، لتصبح ساعتين في بعض الأحيان، بل وصل الأمر إلى عدم النوم تماماً في الليلتين الأخيرتين لنا في دمشق.

سعد الدين وهبة، فهمي الخولي، مراد منير، محمود ياسين، يسري الجندي، نبيل بدران، عبد الرازق حسين، سناء فتح ا ، عبلة الرويني، محمد الرفاعي، سعد حسن، ومن أهل الفن: توفيق عبد الحميد ، مجدي عبد الغني، لطفي لبيب، الكل يسبح في بحار الحب الشامية، تلك البحار التي

نصل إليها لأول مرة في العمر، ونحمل جميعـاً ألا تكـون الأخيرة.

بل أن زميلنا المصور الليثي محمد، تحول من تسجيل الرحلة إلى تسجيل لحظات اللقيا النادرة الحدوث، في جامعة دمشق وقبل أن يغني محمد منير ألقى شـاعران مصـريان شعرهما، أولهما ابن النيل، وهو شاعر مصري يعـيش فـي دمشق، الثاني عمر نجم شاعر العامية الذي لم يتـرك ولـن يترك مصر، ولولا ضيق الوقت وانتظار غناء منير لألقـى عمر نجم علاوة على القصيدتين، قصيدة جديدة لم يلقها بعـد عن محمود نور الدين، الرجل الثاني فـي «ثـورة مصـر» وكانت القاعة مزدانة بصور عبد الناصر، وكلمة مصر لـم تكن تذكر سوى باعتبارها مصر عبد الناصر.

لكن الرحلة لم يكن ختامها مسك كمـا يقولـون، فـي مطار القاهرة الدولي، كانوا يريدون حجزنـا فـي الحجـر الصحي لأن الطـائرة سـودانية، وفـي السـودان سـيول وفيضانات، وأصرت قوات الأمن المصـرية علـى تفتـيش حقائب اليد في أرض المطار لأننا عائدون من دولة من دول الرفض العربي، والضابط المسلح والمتجهم يبدو أنه لم يقرأ

الكلمة الجميلة المدونة على مطار القاهرة الدولي، وهي أول ما يقرأة القادم: ((أدخلوها بسلام آمنين)) الكلمة المنزلة منـه سبحانه وتعالى على محمد خاتم النبيين والمرسـلين، وهـي الكلمة التي تلخص سر مصر كله، من الأزل وحتـى الأبـد نفسه وهي الكلمة التي تنزل على القلب برداً وسلاماً، وتحيي في الذهن معاني الوطنية والانتماء، ولكن الضـابط أعطـى ظهره لهذه الجملة، كان قاسياً، متجهماً، وقد تعامل معنا كمـا كنا من العدا والأعادي، ورفض حتى الاسـتجابة لخفـة دم صلاح السعدني.

وحاولنا الخروج من أزمة الاستقبال بـذكريات دافئـة عدنا بها من هناك، من بلاد الشام.

سألت نفسي وأنا في الطريق من المطار إلى بيتي في مدينة نصر.

إلى أين يقودنا كل هذا الشتات العرى.. إلى أين؟!

١٠ ديسمبر ١٩٨٨

عند لحظة انتصاف ليلتي الأولى في دمشق، دقت يـد غريبة باب غرفتي في الفندق، قمت مفزوعاً، ومـن خلـف الباب المغلق قيل لي أن محافظ دمشق يطلبني الآن لأمر مهم لا يحتمل التأجيل حتى الصباح.

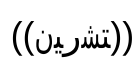
نفضت النوم الشتوى المبكر اللذيذ عن عينى ، وبدأت في طقوس ارتداء ملابسي من جديد، ونزلـت والتسـاؤلات تملأ رأسي وتزحم أفق خيالي عن السبب الذي يدفع محـافظ دمشق لكي يرسل إلى في هذا الوقت، يطلبني.

وأنا رجل تعودت منذ سنوات القوات المسلحة وخدمة العلم المصري على النوم مبكراً، أنام في الوقت الذي يفصل بين الثامنة والعاشرة مساء، وأصـحو فـي الخامسـة مـن الصباح، وهكذا أصبح جهازي العصبي ينضبط على هـذين التوقيتين من كل يوم.

ولذلك فإن أنصاص الليالي ، تبدو بعيدة جداً عن الوقت الذي تعودت على النوم فيه.

في مكتب المحافظ، وجدت الإجابة على كل تساؤلاتي مرة واحدة. ما إن انفتح الباب، حتى أدركت أن الذي يقـف

أمامي هو الصديق القديم محمد أمين أبو الشامات، الذي تعرفت عليه منذ عامين في رحلة جميلة إلى كوريا الشمالية، كان هو ومعه تميم دعبول رئيس القسم الثقافي في جريدة



((تشرين)) السورية الحالي يشكلان الوفد السوري، ومنذ اللقاء الأول، نشأت بيننا تلك الصداقة النادرة، التي تعلو على الكثير من جزيئات الحياة اليومية الصغيرة.

في النصف الثاني والأخير من ليلتي الأولى في دمشق قمت مع المحافظ الذي يجمع كل المثقفين في سوريا على الإعجاب بجهوده، بجولة ستبقى في الذاكرة حتى آخر لحظات العمر.

كان من الواضح أن المحافظ الشاب إنما ينفض التراب عن وجه دمشق، يستخرج من تحت السطح منها مدينة أخرى بالغة الروعة، كان الرجل يعزف على وتر الأصالة في ضمير دمشق في مواجهة كل محاولات التغريب التي تتم كل يوم، لكل مدننا العربية.

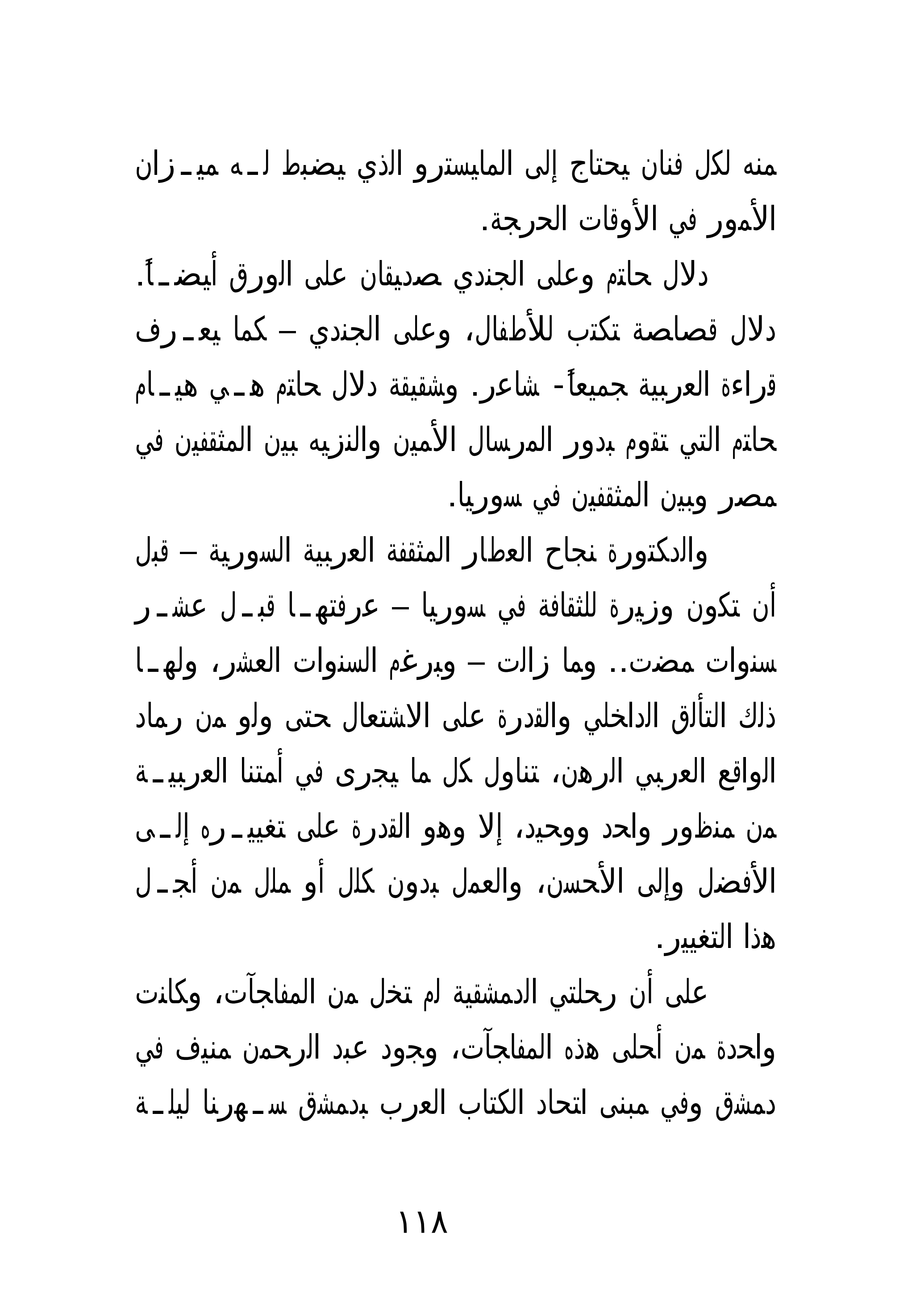
أما تميم دعبول فقد شاهدني ورآني على مدى ثلاثة أيام دون أن يعرفني، ذلك أن وزني قد نقص حوالي خمسين كيلو جراما منذ أن التقينا في كوريا الشمالية، وعندما قيل له

أن هذا الذي تشاهده هو فلان كتب كلمة في «تشرين» تحت عنوان «البحث عن صديق مفقود» شكشك الدمع عيـوني – لأول مرة منذ سنوات – وأنا أقرأها.

وفي بلاد الشام لي أصدقاء لم أكن قد رأيتهم من قبل، وهناك صداقات التقيت بأصحابها قبل ذلك.

ممدوح عدوان وجه دمشقي أصيل. يتـرجم ويقـول الشعر ويكتب النص المسرحي، وله حضور متفـرد ونـادر ومن لا يراه كأنه لم ير دمشق كلها، وكنا قبل هـذه الرحلـة أصدقاء دون أن نلتقي، قرأت له وقرأ لي، وكان هـو فـي قراءته لي أكثر إيجابية مني، ما أن قرأ روايتي «يحدث فـي مصر الآن» حتى أكلته يده اليمنى وحول الرواية إلى نـص مسرحي قدم في دمشق ولم أتمكن من مشاهدته في حينه، لأن ذلك كان مستحيلا في زمن السادات.

وحيوية وحضور ممدوح عدوان ليستا على مسـتوى القراءة والكتابة فقط، ولكن في الحياة اليوميـة والمناقشـات وتناول قضايا الواقع، وهو من أسعد المثقفين العـرب حظـاً برفيقة عمره إلهام التي تبدو مثل ضابط الإيقاع الذي لا بـد


منه لكل فنان يحتاج إلى المايسترو الذي يضبط لـه ميـزان الأمور في الأوقات الحرجة.

دلال حاتم وعلى الجندي صديقان على الورق أيضـاً. دلال قصاصة تكتب للأطفال، وعلى الجندي – كما يعـرف قراءة العربية جميعاً- شاعر. وشقيقة دلال حاتم هـي هيـام حاتم التي تقوم بدور المرسال الأمين والنزيه بين المثقفين في مصر وبين المثقفين في سوريا.

والدكتورة نجاح العطار المثقفة العربية السورية – قبل أن تكون وزيرة للثقافة في سوريا – عرفتهـا قبـل عشـر سنوات مضت.. وما زالت – وبرغم السنوات العشر، ولهـا ذلك التألق الداخلي والقدرة على الاشتعال حتى ولو من رماد الواقع العربي الرهن، تناول كل ما يجرى في أمتنا العربيـة من منظور واحد ووحيد، إلا وهو القدرة على تغييـره إلـى الأفضل وإلى الأحسن، والعمل بدون كلل أو ملل من أجـل هذا التغيير.

على أن رحلتي الدمشقية لم تخل من المفاجآت، وكانت واحدة من أحلى هذه المفاجآت، وجود عبد الرحمن منيف في دمشق وفي مبنى اتحاد الكتاب العرب بدمشق سـهرنا ليلـة

شامية جميلة، كانت معنا السيدة سعادة زوجته، التي قابلتها منذ أحد عشر عاما في بغداد.

وكعادة عبد الرحمن منيف في النفاذ إلى جوهر أشياء والبعد عن كافة التفاصيل الصغيرة، التي ربما نتوه فيها في زحمة الحياة اليومية، قال لي: بحصول نجيب محفوظ على نوبل، تكون كربلاء العربية قد انتهت إلى الأبد.. هذه البكائية السنوية العربية التي كانت تصاحب إعلان الفائز بجائزة نوبل، والأهم أنها جاءت لمن يستحقها فعلاً من بين كل الأدباء العرب الأحياء.

وعبد الرحمن منيف كان مشغولاً منذ سنوات بثلاثية روائية هي (مدن الملح) وكان قد أصدر الجزء الأول منها: التيه والثاني الأخدود، والثالث تقاسيم الليل والنهار لم يصدر بعد، ولكن الرجل اكتشف أن الأجزاء الثلاثة ربما لا تكفي للانتهاء من هذه الملحمة الروائية. ولهذا أصبحت الأجزاء الثلاثة خمسة أجزاء انتهى من كتابتها جميعاً، وستصدر تباعاً في الأيام المقبلة.

ومن يسافر إلي بلاد الشام ولا يرى حنا مينه، كأنه لم يصل أصلاً إلى الشام، وحنا مينة ليس فقط الروائي العربي

الأول الذي يؤسس أداب البحار في اللغة العربية وتعد رائده الأول، ولكنه أيضاً ذلك الإنسان المكافح والمناضل، فقد بنى وأسس عالمة بيديه، وفيه أيضاً كافة ملامح المبدعين الكبـار والعمالقة في كل زمان ومكان.

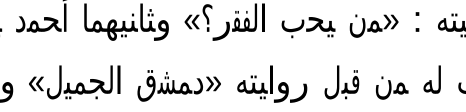
شخص متواضع وحنون وبسيط في حياته الشخصـية، يتكلم فتتصور أنه يهمس همسا ويقول النكتة، فتخلع الضحكة من أعمق الأعماق، تذهب إلى مكتبـة فـي وزارة الثقافـة السورية فتقابل الكل، تحول المكتب الرسمي إلى منتدي أدبي من نوع فريد، يحضر إليه الجميع، بصرف النظر عن كافـة الاعتبارات الأخرى، وفي مكتبه يقرأون الصحف ويتـابعون الجديد في كل المجلات الثقافية في العالم ويمارسون احتكاك العقول بعيداً عن نميمة المثقفين.

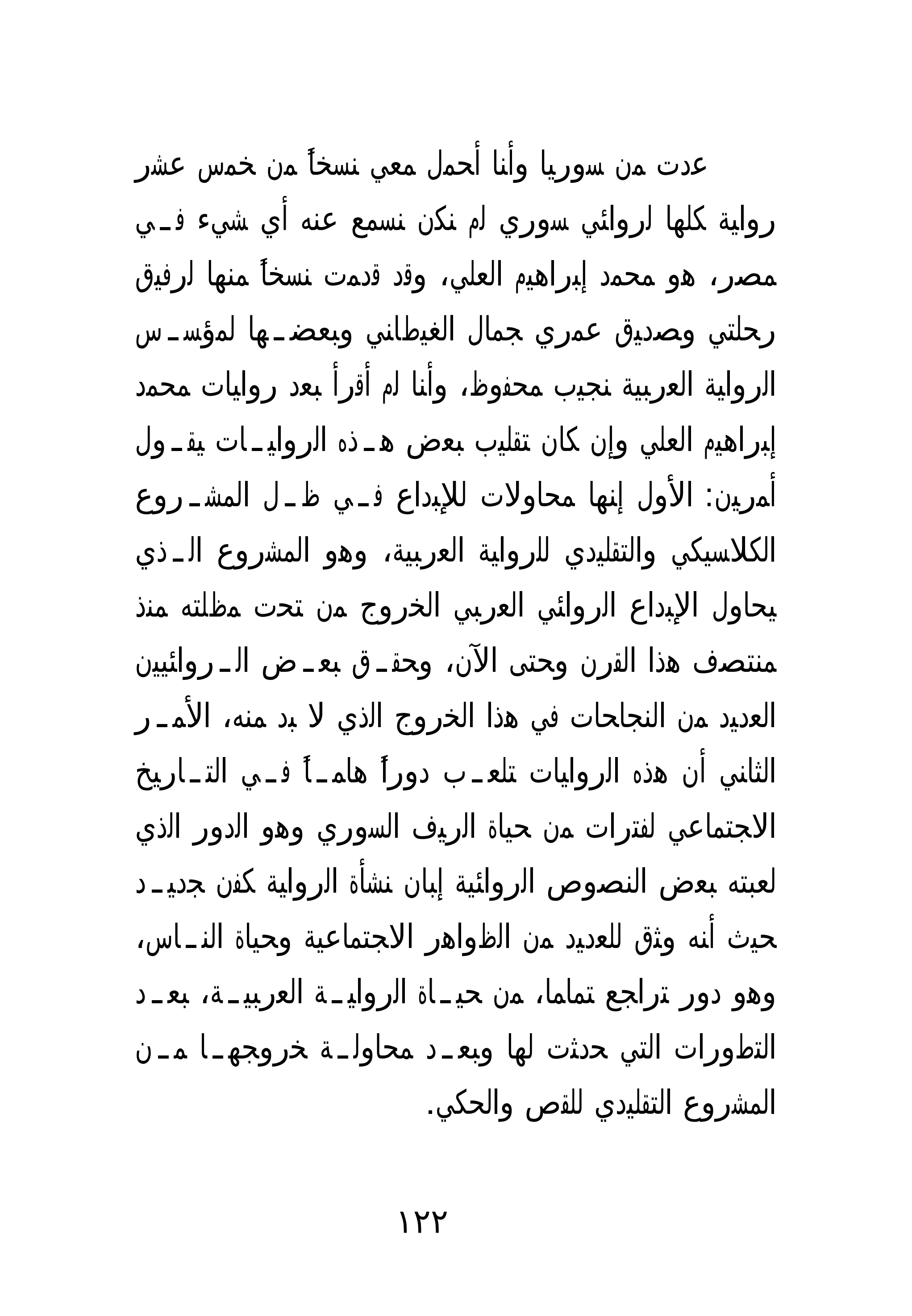
وحنا مينة يكتب الآن نص روائي جديد وإن كـان لا يحب الحديث عن نصوصه خلال الكتابة، وأنا شخصياً أفضل هذه الطريقة في التعامل مع النص الروائي الجديد.

تعرفت في هذه الرحلة إلى الكاتب المسرحي السوري سعد ا ونوس، الذي يخرج في هذه الأيام من مشارف حالة نفسية أقرب إلى الاكتئـاب ومـن لا يعـاني مـن الحـزن

والاكتئاب في هذه الأيام لبعض الوقت، ليس فنانا وليس إنسانا أيضاً، وتعرفت على الشاعر الكبير محمد الماغوط الذي كان يمر بحالة وفاة حماته، فكان مشغولا.

والحماة المتوفاة هي أيضا حماة أدونيس وأسعد فضه وحسن كركوتلي. والتقيت بعبد النبي حجازي الروائي السوري ابن جيلنا، وعلى الرغم من عمله مديراً لتليفزيون دمشق، إلا أن لديه نصاً روائياً جديداً لم ينشر بعد. وخيري الذهبي الذي حصلت على نص روائي جديد له صدرت النسخة الأولى من طبعته قبل سفري من دمشق بساعات.

ولم أتمكن من لقاء روائيين قرأت لهما نصين روائيين من قبل، أولهما هو عبد العزيز هلال الذي أعجبتني بدون حدود روايته : «من يحب الفقر؟» وثانيهما أحمد يوسف داود 
الذي قرأت له من قبل روايته «دمشق الجميل» وقد عرفت أنهما اتجها إلى الكتابة للتليفزيون والسينما، باعتبار أن هذين المجالين يشكلان أدب الزمن القادم، ولم أتمكن من لقاء سفوان قدسي صديقي القديم الذي احترف العمل السياسي وأصبح الآن رئيس حزب سياسي ولم أكن أعرف من قبل بوجود أحزاب سياسية أخرى في سوريا غير الحزب الحاكم.



عدت من سوريا وأنا أحمل معي نسخاً من خمس عشر رواية كلها لروائي سوري لم نكن نسمع عنه أي شيء في مصر، هو محمد إبراهيم العلي، وقد قدمت نسخاً منها لرفيق رحلتي وصديق عمري جمال الغيطاني وبعضها لمؤسس الرواية العربية نجيب محفوظ، وأنا لم أقرأ بعد روايات محمد إبراهيم العلي وإن كان تقليب بعض هذه الروايات يقول أمرين: الأول إنها محاولات للإبداع في ظل المشروع الكلاسيكي والتقليدي للرواية العربية، وهو المشروع الذي يحاول الإبداع الروائي العربي الخروج من تحت مظلته منذ منتصف هذا القرن وحتى الآن، وحقق بعض الروائيين العديد من النجاحات في هذا الخروج الذي لا بد منه، الأمر الثاني أن هذه الروايات تلعب دوراً هاماً في التاريخ الاجتماعي لفترات من حياة الريف السوري وهو الدور الذي لعبته بعض النصوص الروائية إبان نشأة الرواية كفن جديد حيث أنه وثق للعديد من الظواهر الاجتماعية وحياة الناس، وهو دور تراجع تماما، من حياة الرواية العربية، بعد التطورات التي حدثت لها وبعد محاولة خروجها من المشروع التقليدي للقص والحكي.

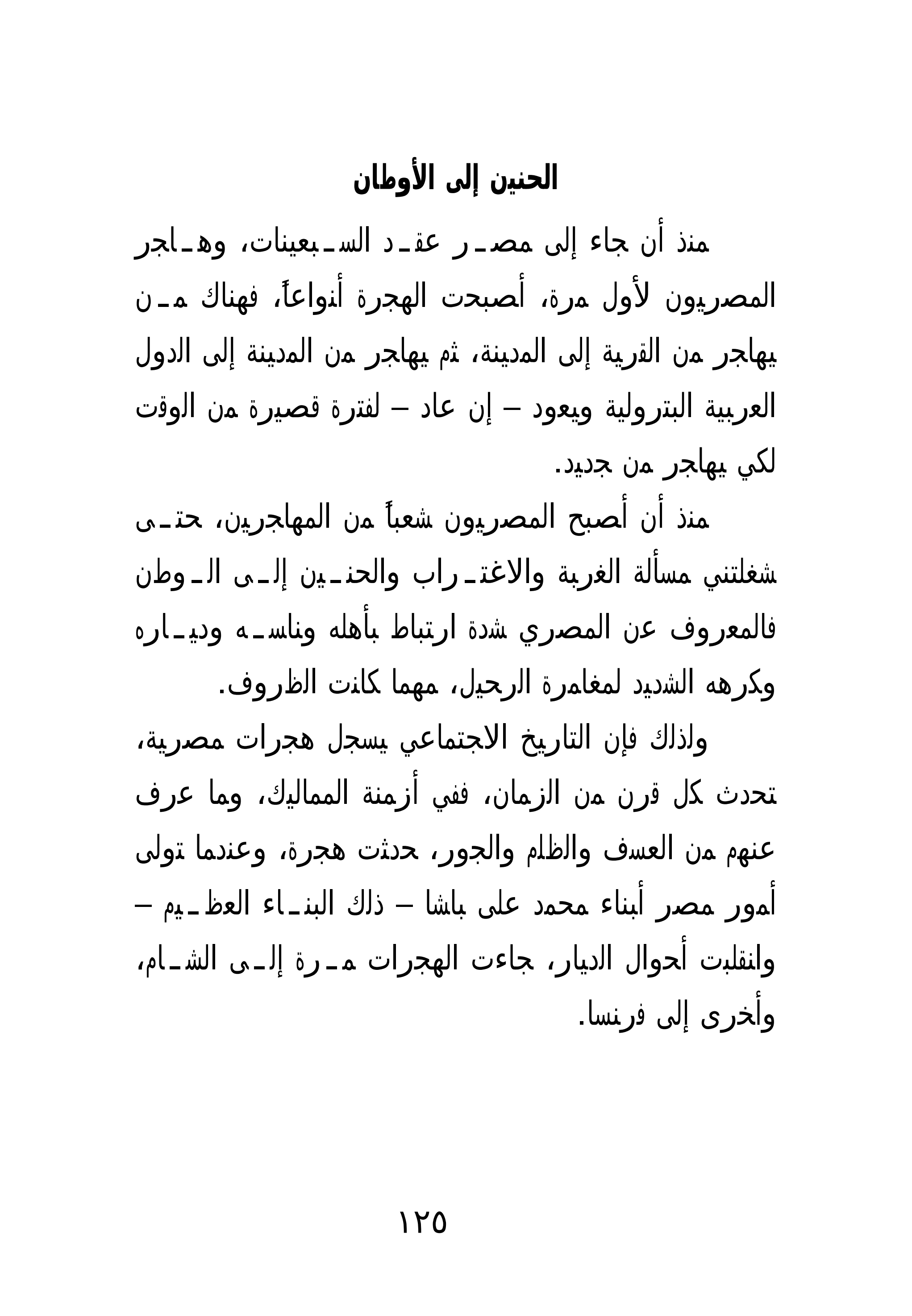
كانت رحلة ممتعة، ففي هذه المدينة إبداعات أدبية هامة، وطموحات كثيرة وإن كان معظم ما تخرجه مطابعها لا يصلنا في مصر. لأسباب كثيرة المهم أن الرحلة الأولى إلى دمشق قد تمت وأحلام ألا تكون الأخيرة فهل تتحقق الأحلام؟!

ويبقى مسك الختام، لقاء ونحن في الطريق إلى المطار أقابل محمد سلمان، أكثر وزراء الإعلام الذين جلست معهم وضوحاً واختصاراً ودقة، في التعبير والتصرف لا يتحدث إلا بدفء اللغة وجمال التعبير كان اللقاء قصيراً في عدد دقائقه ولكنه ظل مستمراً في الوجدان حتى بعد العودة إلى مصر. وفي القاهرة كان أول ما قمت به أن اتصلت بنجيب محفوظ حيث أبلغته دعوة من محمد سلمان لزيارة دمشق فوراً، وعندما أبلغت نجيب محفوظ الدعوة ، وضع يده على صدره دليلاً على الامتنان والشكر وقال لي: كل ما أطلبه هو التصريح بكتبي في دمشق.

قلت له: أنني رأيتها بعيني، فرفع يده موضحاً: لعلك رأيت الكتب المطبوعة في بيروت، وهذه مزورة ولا يصلني عائدها.

كانت كلمات محمد سليمان هي العطر الذي رافقني في رحلة العودة إلى مصر.. فظلت معي حتى لحظة كتابة هـذه السطور.

١٧ ديسمبر ١٩٨٨

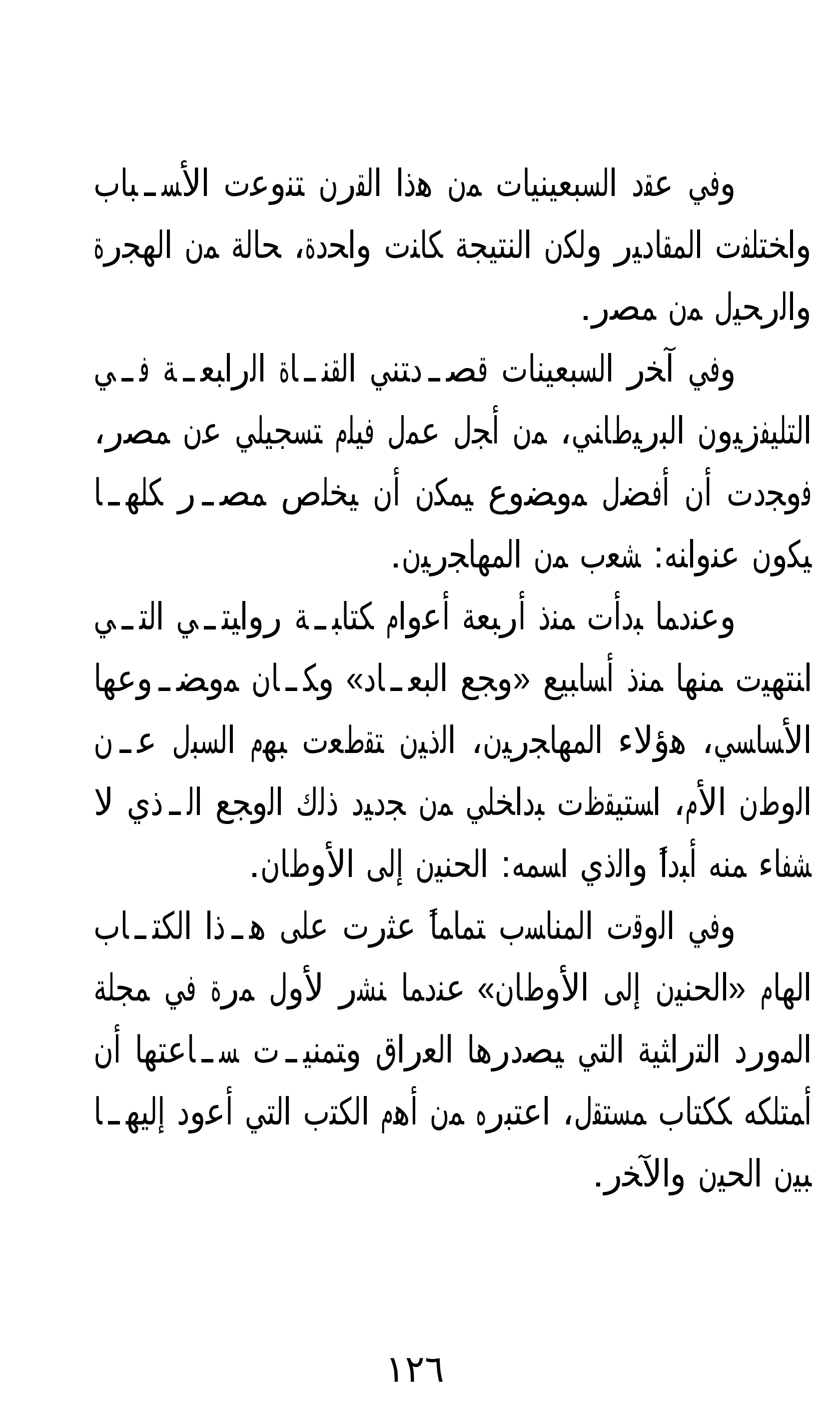


الحنين إلى الأوطان

منذ أن جاء إلى مصر عقد السبعينات، وهاجر المصريون لأول مرة، أصبحت الهجرة أنواعاً، فهناك من يهاجر من القرية إلى المدينة، ثم يهاجر من المدينة إلى الدول العربية البترولية ويعود – إن عاد – لفترة قصيرة من الوقت لكي يهاجر من جديد.

منذ أن أصبح المصريون شعباً من المهاجرين، حتى شغلتني مسألة الغربة والاغتراب والحنين إلى الوطن فالمعروف عن المصري شدة ارتباط بأهله وناسه ودياره وكرهه الشديد لمغامرة الرحيل، مهما كانت الظروف.

ولذلك فإن التاريخ الاجتماعي يسجل هجرات مصرية، تحدث كل قرن من الزمان، ففي أزمنة المماليك، وما عرف عنهم من العسف والظلم والجور، حدثت هجرة، وعندما تولى أمور مصر أبناء محمد على باشا – ذلك البناء العظيم – وانقلبت أحوال الديار، جاءت الهجرات مرة إلى الشام، وأخرى إلى فرنسا.

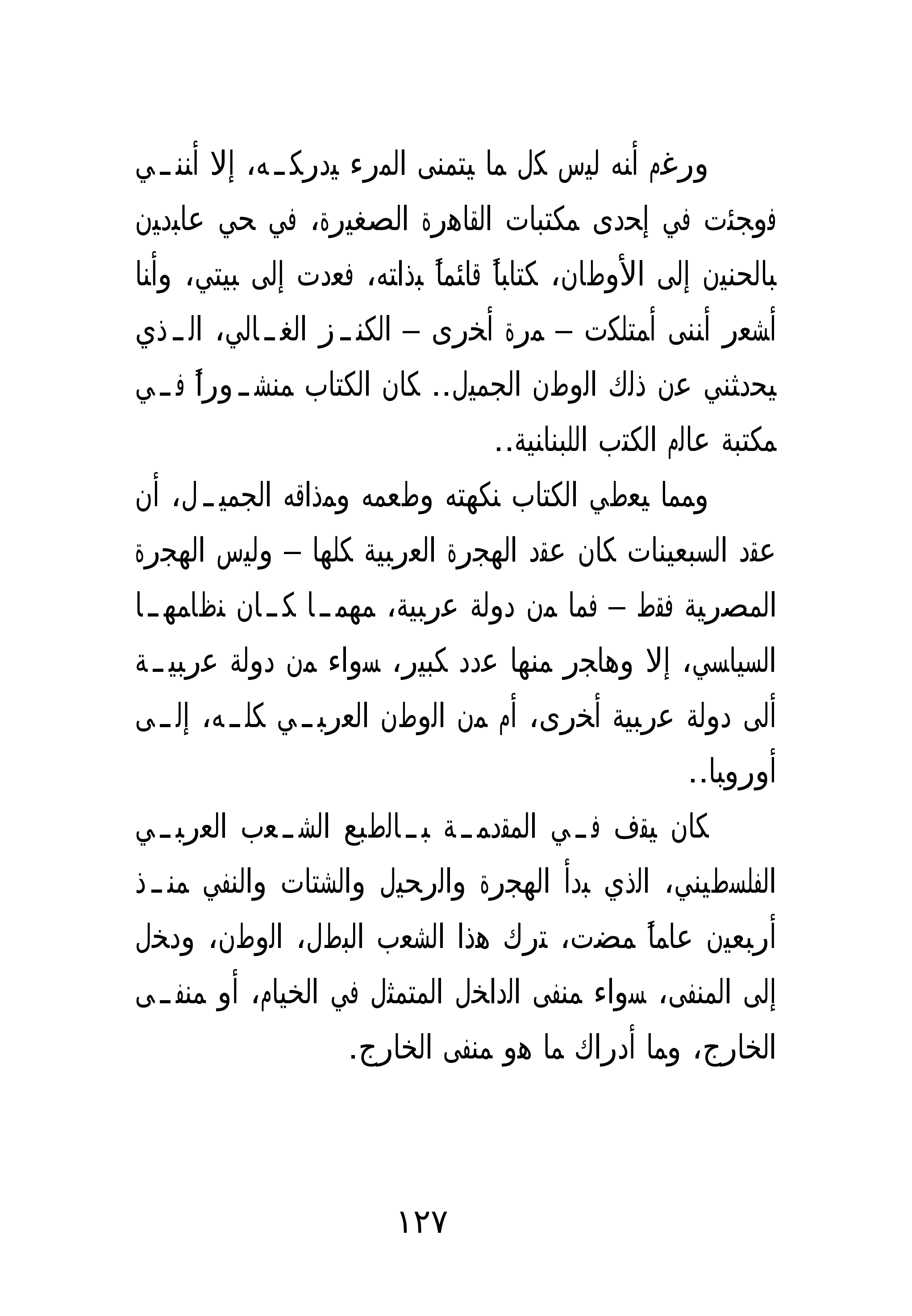


وفي عقد السبعينيات من هذا القرن تنوعت الأسباب واختلفت المقادير ولكن النتيجة كانت واحدة، حالة من الهجرة والرحيل من مصر.

وفي آخر السبعينات قصدتني القناة الرابعة في التليفزيون البريطاني، من أجل عمل فيلم تسجيلي عن مصر، فوجدت أن أفضل موضوع يمكن أن يخاص مصر كلها يكون عنوانه: شعب من المهاجرين.

وعندما بدأت منذ أربعة أعوام كتابة روايتي التي انتهيت منها منذ أسابيع «وجع البعاد» وكان موضوعها الأساسي، هؤلاء المهاجرين، الذين تقطعت بهم السبل عن الوطن الأم، استيقظت بداخلي من جديد ذلك الوجع الذي لا شفاء منه أبداً والذي اسمه: الحنين إلى الأوطان.

وفي الوقت المناسب تماماً عثرت على هذا الكتاب الهام «الحنين إلى الأوطان» عندما نشر لأول مرة في مجلة المورد التراثية التي يصدرها العراق وتمنيت ساعتها أن أمتلكه ككتاب مستقل، اعتبره من أهم الكتب التي أعود إليها بين الحين والآخر.



ورغم أنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، إلا أنني فوجئت في إحدى مكتبات القاهرة الصغيرة، في حي عابدين بالحنين إلى الأوطان، كتاباً قائماً بذاته، فعدت إلى بيتي، وأنا أشعر أننى أمتلكت – مرة أخرى – الكنز الغالي، الذي يحدثني عن ذلك الوطن الجميل.. كان الكتاب منشوراً في مكتبة عالم الكتب اللبنانية..

ومما يعطي الكتاب نكهته وطعمه ومذاقه الجميل، أن عقد السبعينات كان عقد الهجرة العربية كلها – وليس الهجرة المصرية فقط – فما من دولة عربية، مهما كان نظامها السياسي، إلا وهاجر منها عدد كبير، سواء من دولة عربية ألى دولة عربية أخرى، أم من الوطن العربي كله، إلى أوروبا..

كان يقف في المقدمة بالطبع الشعب العربي الفلسطيني، الذي بدأ الهجرة والرحيل والشتات والنفي منذ أربعين عاماً مضت، ترك هذا الشعب البطل، الوطن، ودخل إلى المنفى، سواء منفى الداخل المتمثل في الخيام، أو منفى الخارج، وما أدراك ما هو منفى الخارج.

وتتمثل مأساة الهجرة من الوطن بعد ذلك في الشـعبين المصري واللبناني، حيث كان عليهما ، أن يدفعا الثمن كاملاً لما جرى في السبعينات لأمة العرب.

و «الحنين إلى الأوطان» كتاب من عيـون التـراث العربي، بل من أكثرها إنسانية وشفافية، ومؤلفة هو محمد بن سهيل بن المرزبان الكرخي البغدادي، وهو من علماء القرن الرابع الهجري – ومحققه هو الدكتور جليل إبراهيم العطية، الذي لم أعرفه عنه سوى أنه يعيش في باريس وأن مقدمـة الكتاب كتبها سنة ١٩٨٦.

والمحقق يهدي كتابة إلى كل عربي اضطر للاغتراب طلباً للعلم أو التماساً للرزق أو فراراً مـن الطغيـان وقـد اكتشفت من مقدمة المحقق أنه يوجد في التراث العربي تسعة كتب أخرى كلها تدور حول الحنين إلى الأوطان، منها كتاب منسوب إلى الجاحظ، ومنهـا «أدب الغربـاء» للأصـفهاني و«والحنين إلى الأوطان» لأبى حيان التوحيدي، هذا عـلاوة على فصول في كتب التراث العربي تتحدث عن الوطن من الصعب حصرها.

وتحت عنوان «ما جاء في حب الوطن» يورد المؤلف قول النبي ﷺ : «الخروج من الوطن عقوبة» وقول عمر بن الخطاب رضي ا عنه، «لولا حب الـوطن لخـرب البلـد السوء» وكان يقال: «بحب الأوطان عمرت البلدان» وكـان يقال أيضا: «الحنين من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية والرعاية من الرحمة، والرحمة من كـرم الفطـرة، وكـرم الفطرة من طهارة الرشد» وقال جالينوس: «يتروح العليـل بنسيم أرضه، كما تتروح الأرض الجديدة ببل القطر» وقـال أبقراط «يداوي العليل بحشائش أرضه، فإن الطبيعـة تنـزع إلى غذائها» وقال بعض الحكماء «وجدنا النـاس بأوطـانهم أقنع منهم بأقسامهم».

وتحت عنوان: «من اختار الوطن على الثروة» يقـول المؤلف:

«عسرك في بلدك، خير من يسرك في غربتك» وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان والجلس مع الإخوان قيل: فما الذلة؟! قال: التنقل في البلدان والتنحـي عن الأوطان.

وفي باب جعل المؤلف عنوانه «ذل الغربة يقول :«قال بعض الأدباء:

الغربة ذلة، فإن أردفتها قلة، وأعقبتها عله، فهي نفـس مضمحلة.

وقيل: الغربة كربة والكربة ذلة، والذلة قلة.

وقالت العرب:

- لا تنهض عن وكرك، فتنقصك الغربة، وتضـنيك الوحدة وشبهت الحكماء الغريب بـاليتيم الفطـيم، الذي ثكل أبويه فلا أم ترأف بـه ولا أب يحـدب عليه.

وقال بعض الأعراب:

- إذا كنت في غير أهلك، فلا تنس نصيبك من الذل.

وكان يقال:

- الجالي عن مسقط رأسه، كـالعير الناشـز عـن موضعه، الذي هو لكل سبع فريسة، ولكل كلـب قنيصة، ولكل رام رمية،

وكان يقال:

- المغترب عن وطنه ومجل رضاعة كالبعير الـذي ذابل أرضه، وفقد سربه، فهو ذاو لا يثمر، وذابل لا ينضر))

وفي الباب الذي جعل المؤلف عنوانه:

((ما قيل في نوح الحمام)) يورد المؤلف هذه القصـة الجميلة:

- مر بشار الأعمى بباب الطـاق، فسـمع صـياح قمرية، فقال لغلامه: انطلق فـإن وجـدت هـذه القمرية بجناحها فاشترها ولو بوزنها ذهباً، فوجدها بجناحها فاشتراها بثلاثه دنانير، فأخذها، فلمسـها بيده، ثم قال:

ناحت مطوقة بباب الطاق

فجرت سوابق دمك المهراق

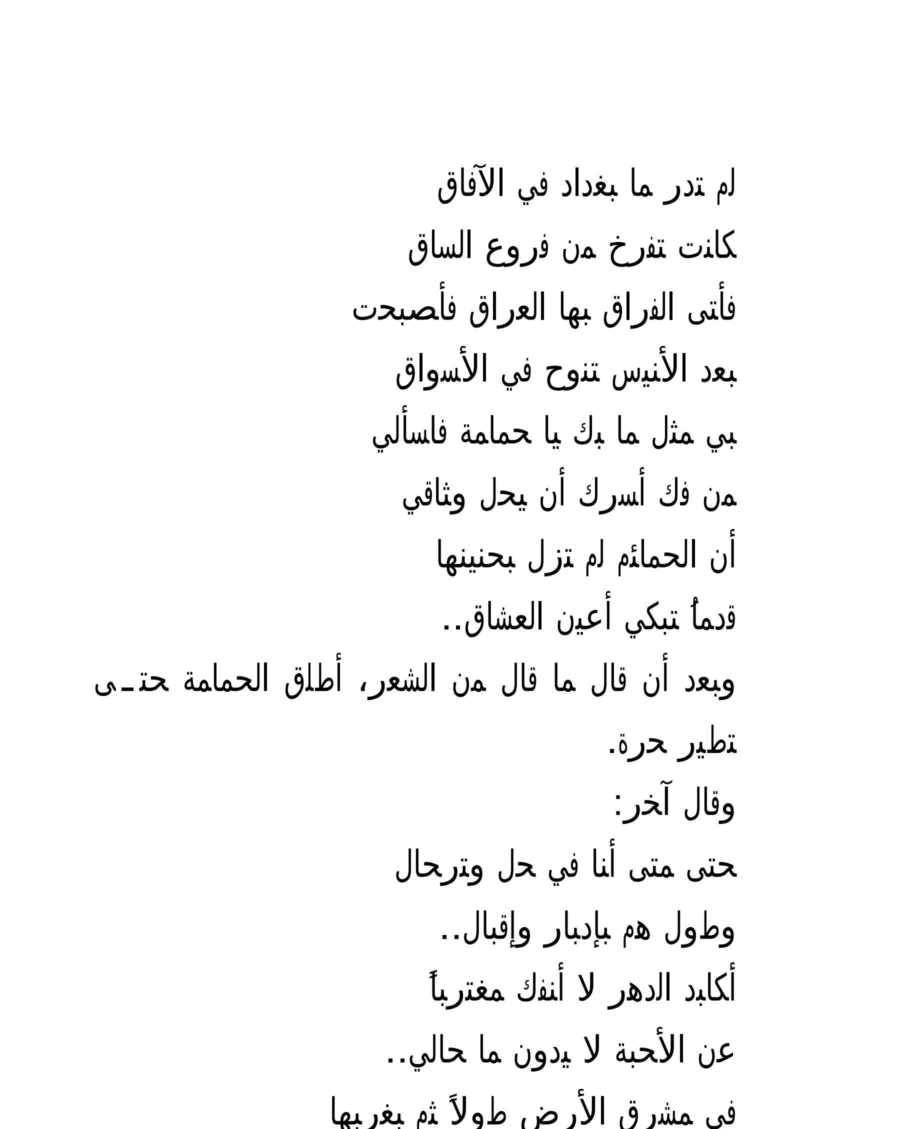
طربت إلى أرض الحجاز بحرقة

فشجت فؤاد الهائم المشتاق.

لعن الفراق وجذ حبل وتينه

وشفاه من سم الأساود ساقي

يا ويحه ما قصده قمرية



لم تدر ما بغداد في الآفاق

كانت تفرخ من فروع الساق

فأتى الفراق بها العراق فأصبحت

بعد الأنيس تنوح في الأسواق

بي مثل ما بك يا حمامة فاسألي

من فك أسرك أن يحل وثاقي

أن الحمائم لم تزل بحنينها

قدماً تبكي أعين العشاق..

وبعد أن قال ما قال من الشعر، أطلق الحمامة حتى تطير حرة.

وقال آخر:

حتى متى أنا في حل وترحال

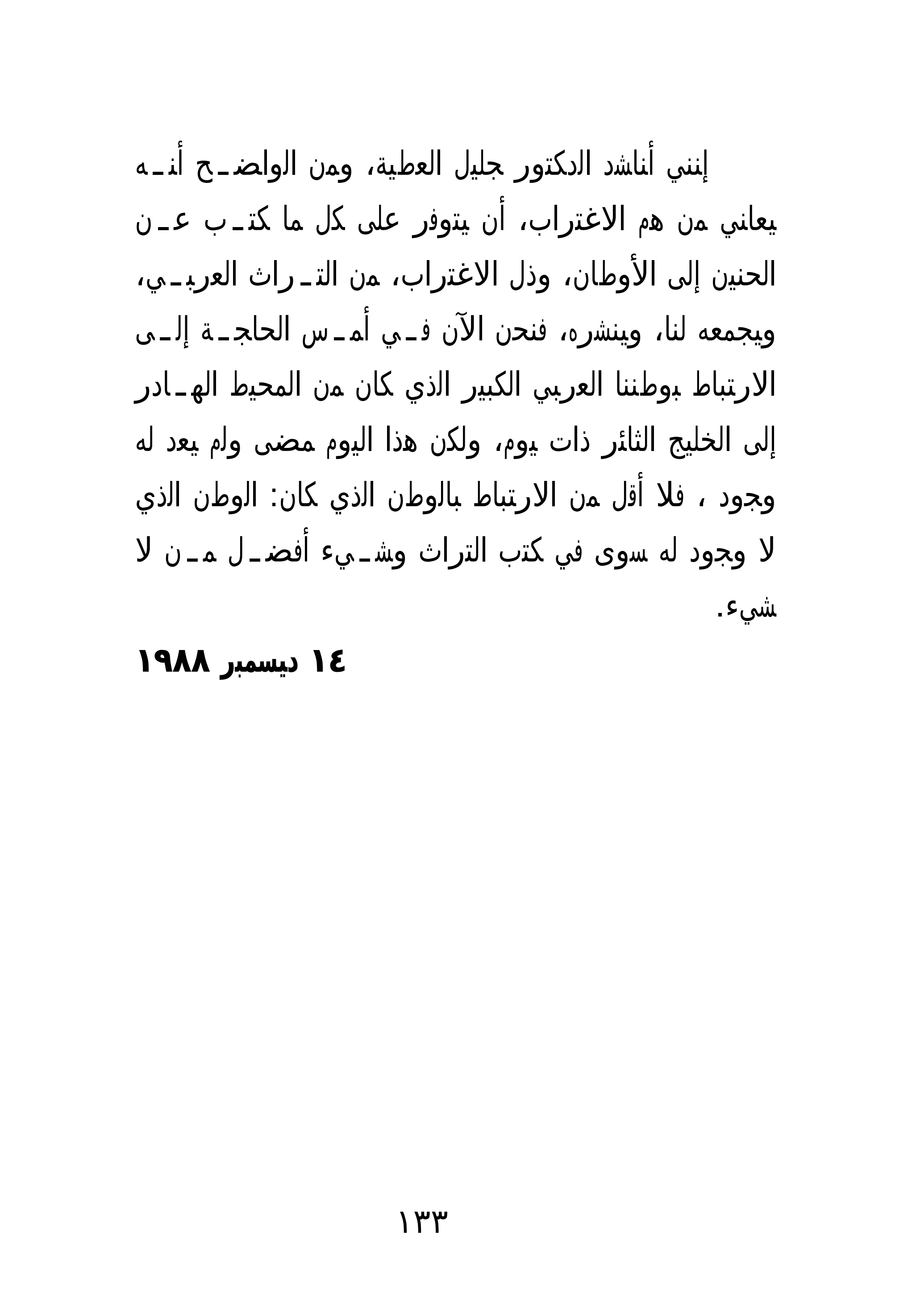
وطول هم بإدبار وإقبال..

أكابد الدهر لا أنفك مغترباً

عن الأحبة لا يدون ما حالي..

في مشرق الأرض طولاً ثم بغربها

لا يخطر الموت من ذكرى على بالي..



إنني أناشد الدكتور جليل العطية، ومن الواضح أنه يعاني من هم الاغتراب، أن يتوفر على كل ما كتب عن الحنين إلى الأوطان، وذل الاغتراب، من التراث العربي، ويجمعه لنا، وينشره، فنحن الآن في أمس الحاجة إلى الارتباط بوطننا العربي الكبير الذي كان من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر ذات يوم، ولكن هذا اليوم مضى ولم يعد له وجود ، فلا أقل من الارتباط بالوطن الذي كان: الوطن الذي لا وجود له سوى في كتب التراث وشيء أفضل من لا شيء.

١٤ ديسمبر ١٩٨٨

زيجات مصرية

كانت العروس شابة واسمها اعتماد عبد الحميد هاشم، وهي تعمل مذيعة تحت التمرين في إذاعة الشرق الأوسـط المصرية أما العريس فهو أحمد توفيق عبد الفتـاح، لشـقيق الثاني في عائلة الريان: أشهر عائلة في مصر الآن وصاحبة شركة الريان الشهيرة لتوظيف الأموال، والتي تملك أثر من خمسة مليارات من الدولارات.

كانت العروس قد تزوجت من قبل من رجل الأعمـال عادل الدفراوي وطلقت منه، وكان الحاج أحمد توفيق عبـد الفتاح (الريان) قد تزوج سبع مرات طلق خمساً منهن، ومعه الآن زوجتان هن زينب وسهير، ولأن تعدد الزوجات لـيس حراماً، فهو يطلب زوجة ثالثة (الثامنة بالنسبة لعدد زوجاته).

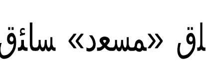
التقى الملياردير مع المذيعة المطلقة الحسناء وحـدثها عن غيرة زوجتيه عليه مما يعطله عن العمـل والاسـتقرار وهي تحدثت عن حياتها باعتبارها ابنة أسرة متوسطة الحال، وسوء معاملة زوجها السابق لها، ووصول الأمر إلى أقسـام الشرطة والنيابة.

ووقع الحب من أول نظرة، واتفقا على الـزواج منـذ اللقاء الأول، كانت شروط الزوج أن تترك الزوجـة عملهـا وترتدي الحجاب وأن تمتنع عن الاخـتلاط بالرجـال فـي المناسبات وعن الرد على التليفونات وافقت الزوجـة علـى جميع الشروط ما عدا ترك العمل في الإذاعة، لأنهـا تثبـت نفسها في العمل، فعرض عليها أن ترسم لوحات مـن الفـن التشكيلي تثبت فيها نفسها بدلاً من العمل في الإذاعة وسـيقيم لها معارض كبيرة كل فترة، طلب منه تركها في العمل ستة أشهر فقط يقررون بعدها ما يكون وعلى سبيل التجربة فوافق على هذا الأساس.

في اليوم التالي وصل العريس من أجل عقد القـران، ومعه الأصدقاء، والمقربين يحملـون الهـدايا، فـتح العـب وأخرج منها حلياً ذهبية وزنها نصف كيلو جرام وطلب مـن العروس ارتدائها بعد خلع الحلى القديمة ثم أعطاها في الحال عشرة آلاف جنيه لشراء بعض الفساتين وتم عقد القران.

اصطحب العريس عروسـه وأهلهـا فـي سـيارته المرسيدس المزوجة بتليفون من الذهب حتى تختار بنفسـها شقة الفرح رفضت العروس الإقامة في المعادي أو الجيـزة

لابتعادها عن منزل الأسرة التي تقيم في حي عين شمس الفقير وهنا تذكر أحمد الريان أنه يمتلك فيللا قريبة وكان قد نسيها ، تقع عند تقاطع شارعي القبة وجسر السويس.

انبهرت العروس وأسرتها بالفيللا، وحرر أحمد الريان عقد ببيع الفيللا لوالد العروس وحرر والد العروس عقد إيجار بالدور الأرضي من الفيللا لابنتة ، وفي صباح اليوم التالي أنطلق «مسعد» سائق أحمد الريان إلى دمياط ومعه

خمسون ألف جنيه لشراء الأثاث، وعاد في نفس اليوم حتى يلحق بمحلات الموكيت وخلال ثلاثة أيام كانت الفيللا جاهزة تماماً لاستقبال العروسين من أجل قضاء شهر العسل.

اختفي العريس خمسة أيام بلياليها، وعند العثور عليه لاتمام الزفاف كان غاضباً لأن خبر الزواج تسرب وعرفت به زوجتاه وسببن له مشاكل كثيرة، زارها في الفيللا مرتين بعد الزواج وقضى معها ليلتين فقط ثم ذهب ولم يعد، وحضر بعد فترة رجاله وأصدقاؤه فطلبوا من الفتاة إخلاء الفيللا، وعندما رفضت إخلاءها بالقوة وقدموا لها مع ورقة الطلاق شقة في مدينة نصر بديلة عن الفيللا ، وكان عمر زواجها منه، عندما جاءتها ورقة الطلاق ٤٥ يوماً فقط.

ذلك ما جرى مع أحمد الريان واعتماد هاشم.

***

أما حنا خله حنا من قرية «روينه» في صعيد مصـر، فكان قد حصل على مصاغ زوجته، بعد الدخلـة مباشـرة، وباعه لكي يسافر إلى العراق، على أن يشتري لها مصـاغاً آخر بمجرد العودة من هناك، وبعد عـامين عـاد الـزوج، طالبته زوجته بالمصاغ فقال أنه أرسل من العـراق بعـض الأموال لشقيقه البدري خله لكي يشتري بها مصاغاً لزوجته عطيات عدي بخيت، ولكن البدري أنفق الأموال على ملذاته في القرية، ولم يشتر المصاغ لزوجة شقيقة حنا خله.

بعد العودة، جرت محاولات للتوفيق، وعقدت جلسات للتصفية في الكنيسة وخارجها، وكان يحضرها أعيان القرية وأهل الحل والربط فيها وعلى رأسها بالطبع القـس رويـس فاخر خليل، كاهن كنيسة ماريوحنا بالقرية.

كان رأي القسيس رويس طوال جلسـات الصـلح أن البدري لا بد وأن يعيد للزوجة مصاغها الذي أرسل زوجهـا حنا ثمنه أثناء عمله في العراق، والبدري لا يريد أن يعيد أي

شيء ولذلك هدد القسيس علناً بأنه سيقتله، حتى يكون هنـاك حل آخر للمشكلة لا يقوم على رد المصوغات إلى الزوجة.

وعلى الرغم من أن الجميع نظر إلى تهديـد البـدري للقس بالقتل على أنه نوع من التهويش والكلام الفارغ، إلا أن القرية فوجئت بطلق ناري ذات مساء ووجد القـس رويـس خليل مصاباً والدم ينزف منه بغزارة، وما لبـث أن فـارق الحياة بعد نقله إلى أقرب مستشفي، وكل أصابع الاتهام تشير إلى البدري، وإلى الخلاف حول مصاغ زوجة أخيـه، ورأي القسيس القاطع بأنه لا بد من إعادة المصاغ إلـى الزوجـة أولاً، ثم يبدأ أي كلام عن إصلاح الحال بينهما وتم القـبض على البدري ولكن الشرطة لم تعثر بعد على السـلاح الـذي استخدمه في قتل القس وكل جريمته أنه وقف مع حق زوجة طالبت بحقها.



أما قضية فتحي توفيق عبد الفتاح وزوجتـه شـكرية سليمان فتبدو أغرب من الخيال نفسه.

فالزوج هو الحاج فتحي توفيق عبـد الفتـاح، أكبـر الأشقاء الثلاثة أصحاب شركات الريان، وزوجتـه البالغـة

الجمال شكرية سليمان محمد وقد أثمر زواجهما خمسة أولاد هم وائل (١٧ سنة) وحمادة (١٥ سنة) وهبة (٩ سنوات) وهاجر (٦ سنوات) وهند (٥ سنوات) وشكرية هي الزوجة الرابعة لفتحي الريان من بليونيرات مصر، أن كتب كل شركاته باسم زوجته الرابعة والجميلة شكرية ثم دخل مستشفى خاصاً للأمراض النفسية في مدينة نصر لكي يعالج من الإدمان.

وخلال وجوده في المستشفي حضر إليه شقيقه الأصغر أحمد واصطحبه إلى خارج المستشفي لفترة من الوقت ثم أعاده إليها وتقدمت شكرية ببلاغ إلى نيابة مدينة نصر، تقول فيه أن الشقيق عندما اصطحب شقيقه الكبير إلى الخارج جعله يوقع على تنازل له عن كل ممتلكاته وأن التوقيع غير قانوني لأن الرجل مريض ويعالج من الإدمان.

في هذه الأثناء قررت الحكومة المصرية أن تراقب الزوج والزوجة وأسندت مهمة المراقبة إلى الضابط الشاب – الوسيم طبعا – عصام عزت وبدلاً من أن يراقب الضابط الزوجة الجميلة، وقع في غرامها وهي أحبته، لأن الزواج

الذي أنجبت منه خمسة من الأبناء كان زواجاً من رجل فـي عمر والدها أما هذه المرة فالحب للحب فقط.

وتطورت فصول الحكاية، الحاج فتحي توفيق يطلـق شكرية، ويقدم لها منحة طلاق قـدرها ٣٠ مليـون جنيـه، وسيارة فاخرة وفيللا وما لا يحصى من الجواهر والأحجـار الكريمة. وبعد انقضاء فترة العدة بيوم واحد. تقرر الـزواج فالضابط الذي كان متزوجاً من قريبة لـه اسـمها ((سـها)) اكتشف استحالة البقاء في سجن الزوجية البغيض على الرغم من أن له طفلة من زوجته الأولى.

المأذون نفسه الذي طلقها من زوجها السـابق الحـاج فتحي الريان عقد قرانها على العريس الجديد. ولأنهـا سـت غنية بدون حدود، قدمت للعريس ليلة الفرح هدايا عبارة عن سيارة آخر موديل ثمنها مئات الألوف من الجنيهات، وشاليهاً في قرية ساحلية سياحية في الإسكندرية، وأقامت ليلة الدخلة في قاعة ألف ليلة وليلة، وكانت ليلة من ليالي ألف ليلة، حتى كانت المفاجأة التي قدمتها العروس أمـام مجتمـع القـاهرة الأنيق المخملي أنها لم تستأجر راقصـة محترفـة وقـررت شكرية أن ترقص بنفسها في ليلة عرسها وأن يرقص معهـا

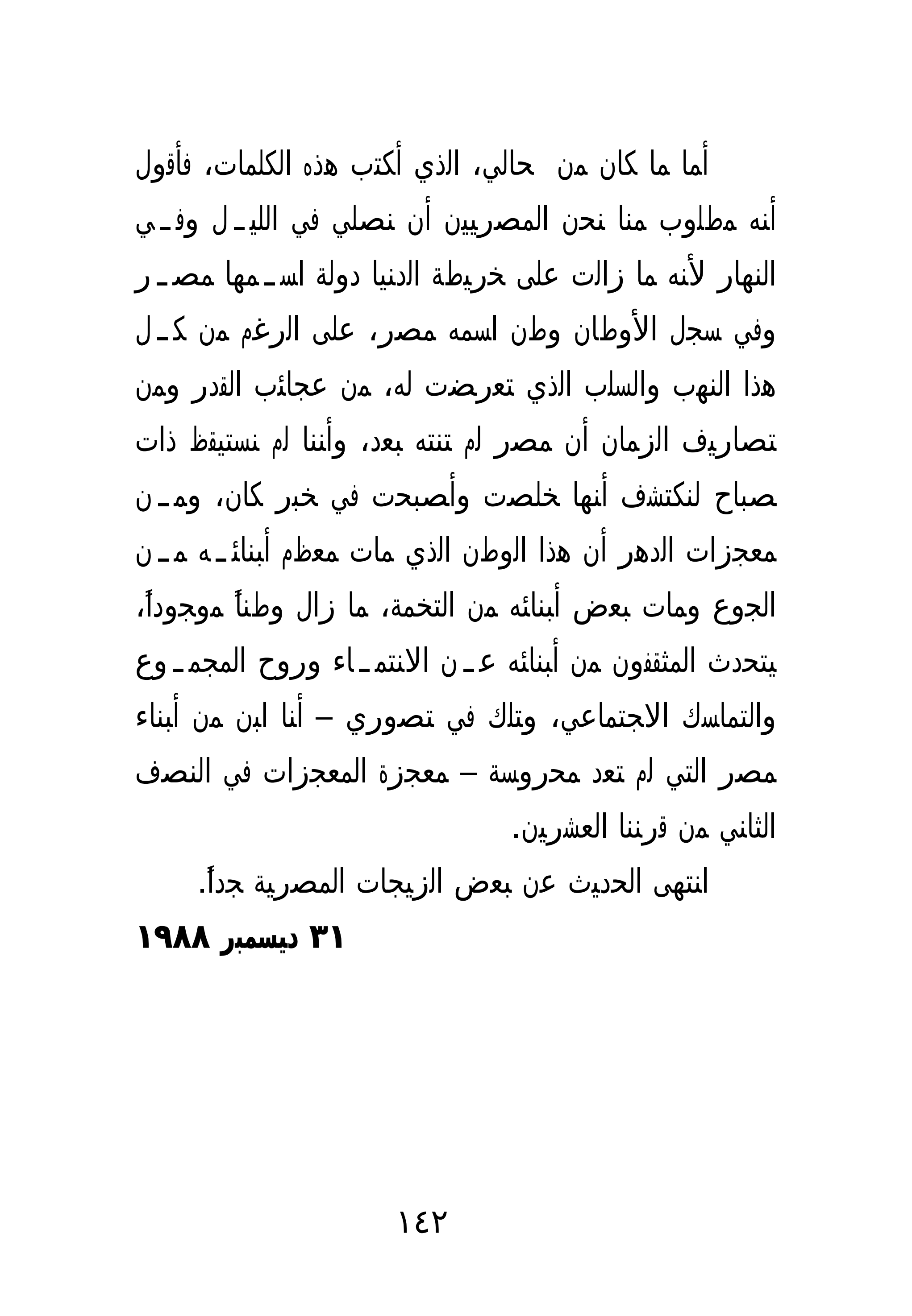
العريس ضابط الشرطة نفسه، وكانت ليلة لا تنسى في ليـل القاهرة البهي.

بعد الزواج بأيام مات الحاج فتحي الريان، ولا يعرف أن كان قد مات من الإدمان، كان يتعاطى في اليوم الواحـد بألف دولار ويعالج في نفس اليوم من التعاطي بـألف دولار أخرى ، فسبحان من يعطي بغير حساب، أم أنه مات من شدة حبه لزوجته البالغة حد الفتنة، والتي طلقها برضاه الكامـل، بل ومنحها ثلاثين مليون من الجنيهات هدية الطلاق، أم مات لأنه اكتشف أن القلوب لديها أسباب أخرى غير الملايين لكي تحب وأنه عندما تنبض القلوب بالحب، لا مفر من الاستجابة مهما كانت الظروف والمبررات.

***

وهكذا جاءت شكرية مرة واعتماد مرة أخـرى لكـي تحصلا كل واحدة في ليلة واحدة، على عرق وكفاح وجهـد وأحلام الملايين من الفقراء والغلابة واليتامى.

وهذا أيضاً ما كان من أمر شكرية سليمان والضـابط عصام عزت وزوجهـا الحـالي والحـاج فتحـى الريـان (المرحوم) زوجها السابق.



أما ما كان من حالي، الذي أكتب هذه الكلمات، فأقول أنه مطلوب منا نحن المصريين أن نصلي في الليـل وفـي النهار لأنه ما زالت على خريطة الدنيا دولة اسـمها مصـر وفي سجل الأوطان وطن اسمه مصر، على الرغم من كـل هذا النهب والسلب الذي تعرضت له، من عجائب القدر ومن تصاريف الزمان أن مصر لم تنته بعد، وأننا لم نستيقظ ذات صباح لنكتشف أنها خلصت وأصبحت في خبر كان، ومـن معجزات الدهر أن هذا الوطن الذي مات معظم أبنائـه مـن الجوع ومات بعض أبنائه من التخمة، ما زال وطناً موجوداً، يتحدث المثقفون من أبنائه عـن الانتمـاء وروح المجمـوع والتماسك الاجتماعي، وتلك في تصوري – أنا ابن من أبناء مصر التي لم تعد محروسة – معجزة المعجزات في النصف الثاني من قرننا العشرين.

انتهى الحديث عن بعض الزيجات المصرية جداً.

٣١ ديسمبر ١٩٨٨

رصيف شارع مصري

هل من المعقول أن أحمل حقائب السفر، وأشد الرحال من مصر إلى تونس، واكتشف هناك، أن أول عمل مطلوب مني القيام به هو الاستماع لمحاضـرة عنوانهـا «رصـيف شارع مصري».

الأوطان ليست ملابس يتمكن الإنسان مـن تغييرهـا، والوطن، حتى في الأيام الصعبة، يتحول إلى نوع من الهـم الجميل، الذي نسعد، لأننا نحمله في حبة القلـب، وضـمير الروح، أناء الليل وأطراف النهار، وعندما نحمـل حقائـب السفر، ونلعب لعبة الحل والترحال فإن الأوطان تسبقنا إلـى حيث سافرنا ونجدها هناك في الانتظار.

والمحاضرة، التي ألقيت في تونس، ألقاها عالم اجتماع مصري، هو الدكتور عبد الباسط عبد المعطي، أسـتاذ علـم الاجتماع في كلية بنات عين شمس، ورئيس الجمعية العربية لعلماء الاجتماع وعبد الباسط عبد المعطي ليس غريباً علـى فعلاوة على المعرفة الشخصية القديمة، وفضلاً عن التجربة المشابهة لنا معاً جاء هو من صعيد مصـر إلـى القـاهرة، ورحلت أنا من دلتا نهر النيل إلى القاهرة.

العلاقة لا تتوقف عند حدود الجانب الشخصـي، فقـد قرأت له دراساته الهامة، وهو يقول لي كلما التقاني أنه قـرأ رواياتي عند ريف مصر، وا أعلم، فأنا لسـت متأكـداً أن هناك من يقرأ في هذا الزمان.

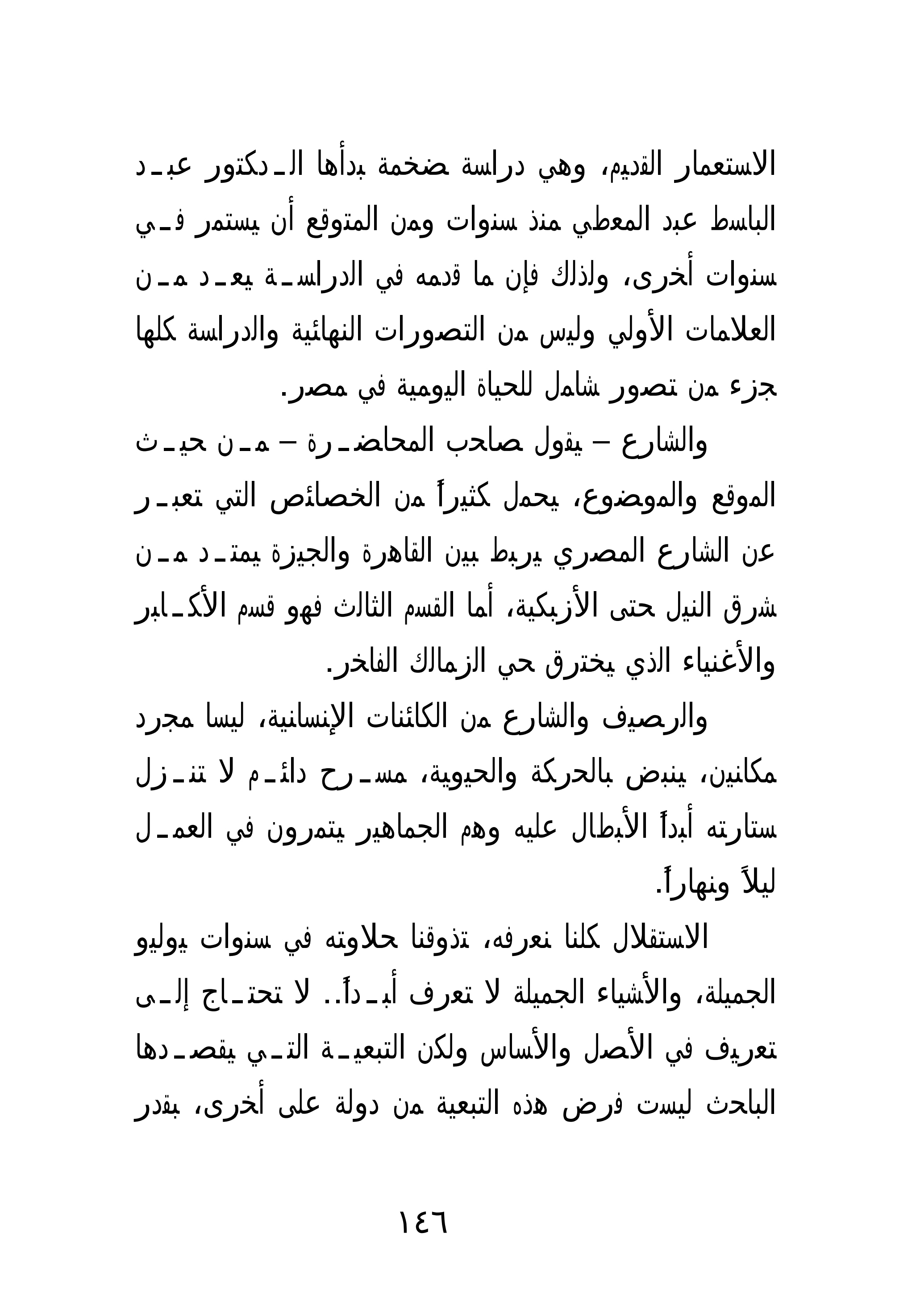
قرأت له ثلاث كتب، الأول: «الصراع الطبقـي فـي القرية المصرية» والثـاني، «توزيـع الفقـر فـي القريـة المصرية» والثالث «تنزييف الوعي في القرية المصـرية». واهتمامي بكتب عبد الباسط وبكل ما أجـده مـن الكتابـات الاجتماعية يعود إلى إيماني القاطع بأن الروائي ربمـا كـان عالم اجتماع فاشلا. وأن عالم الاجتماع ربما كان مشـروع روائي لم يكتمل بعد وأنه من الصـعب، أن لـم يكـن مـن المستحيل أن تعرف أين ينتهي الروائي وأيـن يبـدأ عـالم الاجتماع في كل منهما.

والمحاضرة كان عنوانها: «رصيف شارع مصـري ، من التبعية إلى الاستقلال إلى التبعية إلـى الاسـتقلال إلـى التبعية مرة أخرى» وألقاها في المعهد العالي للتنشيط الثقافي بدعوة من مدير المعهد الدكتور الطاهر لبيب والطاهر لبيـب في تونس الآن مثل عبد الحليم حافظ في مصر الستينات تراه

المراهقات فتحدث لهن حالة من الذوبان في لهيب العشق وهو صاحب كتابين هامين. الأول عن سوسيولجيا الثقافة. ولكن الكتاب الثاني، الذي نشرته وزارة الثقافة السورية في دمشق، يبدو كتاباً فريداً في بابه، فهو عن سوسيلوجيا الغزل العربي» ويبدو أن هذا الكتاب هو سر الكتاب مع كل بنات تونس.

لم أذهب إلى المحاضرة وحدي، كنا مجموعة من الأدباء والكتاب المصريين، الذين جاؤوا إلى تونس، لحضور المؤتمر الثامن لاتحاد كتاب آسيا وأفريقيا. ذهبنا: محمود أمين العالم، فتحي غانم، عبد ا الطوخي وعبد القادر شهيب.

والشارع الذي اختاره الدكتور عبد الباسط موضوعاً لدراسته له أسمان في مصر اسم جماهيري، يتداوله الناس: شارع فؤاد، واسم في أوراقة الدولة: شارع ٢٦ يوليو، والدراسة عنه رصيفه بالتحديد، وكيف يرى سكان الرصيف الحياة في مصر منذ بدايات هذا القرن، حيث التبعية القوية، وحتى منتصفه حيث حلم الاستقلال، حتى الربع الأخير من القرن حيث التبعية القوية، التي هي أخطر ألف مرة من



الاستعمار القديم، وهي دراسة ضخمة بدأها الـدكتور عبـد الباسط عبد المعطي منذ سنوات ومن المتوقع أن يستمر فـي سنوات أخرى، ولذلك فإن ما قدمه في الدراسـة يعـد مـن العلامات الأولي وليس من التصورات النهائية والدراسة كلها جزء من تصور شامل للحياة اليومية في مصر.

والشارع – يقول صاحب المحاضـرة – مـن حيـث الموقع والموضوع، يحمل كثيراً من الخصائص التي تعبـر عن الشارع المصري يربط بين القاهرة والجيزة يمتـد مـن شرق النيل حتى الأزبكية، أما القسم الثالث فهو قسم الأكـابر والأغنياء الذي يخترق حي الزمالك الفاخر.

والرصيف والشارع من الكائنات الإنسانية، ليسا مجرد مكانين، ينبض بالحركة والحيوية، مسـرح دائـم لا تنـزل ستارته أبداً الأبطال عليه وهم الجماهير يتمرون في العمـل ليلاً ونهاراً.

الاستقلال كلنا نعرفه، تذوقنا حلاوته في سنوات يوليو الجميلة، والأشياء الجميلة لا تعرف أبـداً.. لا تحتـاج إلـى تعريف في الأصل والأساس ولكن التبعيـة التـي يقصـدها الباحث ليست فرض هذه التبعية من دولة على أخرى، بقدر

ما هي تفكك المجتمع التابع وتقطع أوصاله وانهيار سلم قيمه ووقوف معتقداته في مهب الريح.

والرصيف في بولاق شعبي، له خلفية تاريخية، عربية وإسلامية ومعظم المساكن تعود إلى عصـور قديمـة، فـي بعضها مشربيات الزمان الجميل الذي مضى ومعظم السكان من الحرفيين والعمال وصغار الموظفين والتجـار ومعظـم البيوت القريبة من الرصيف يسكنها الباعة الذين يبيعون على الرصيف.

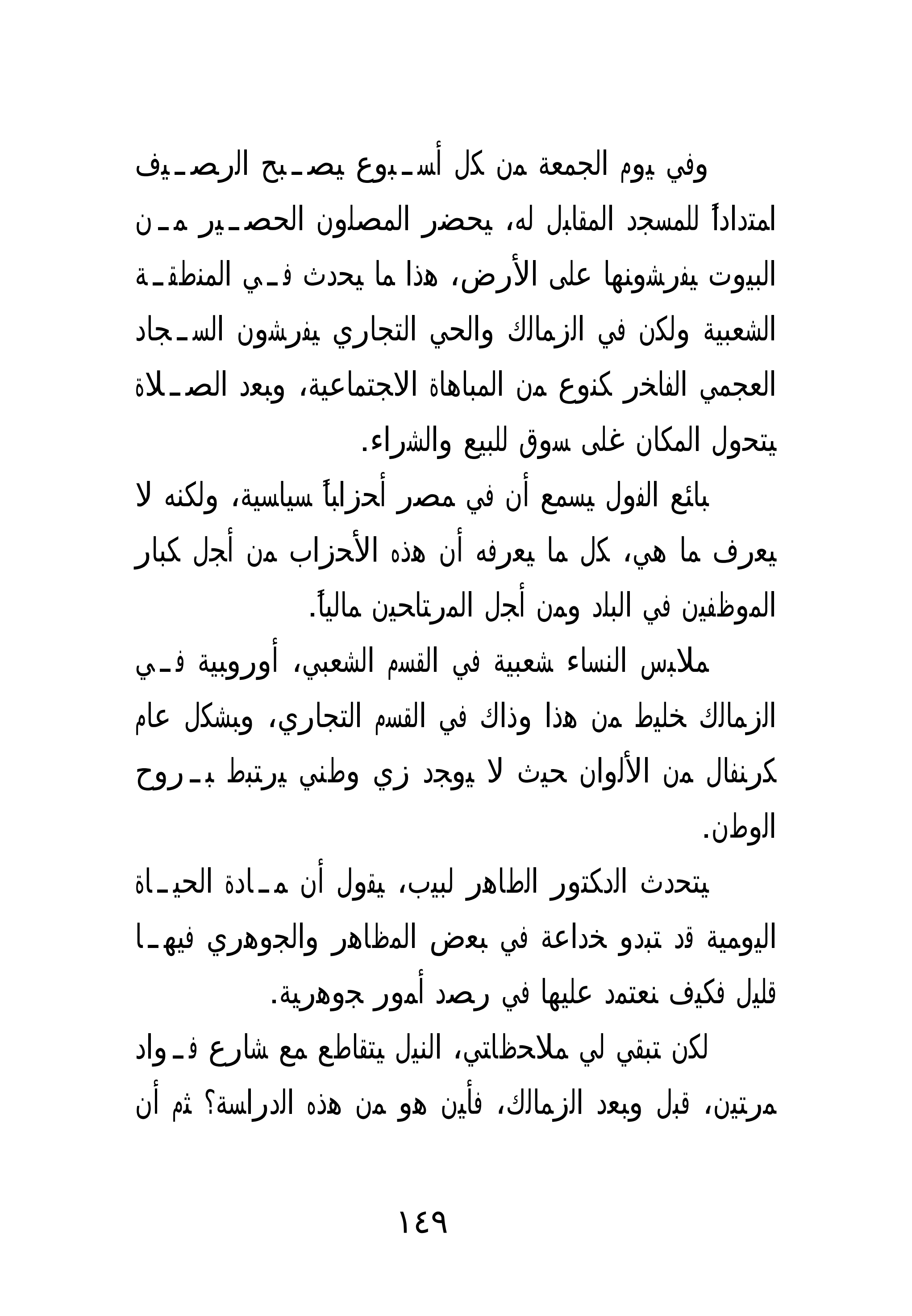
والرصيف في الزمالك هو رصيف السفارات ونـادي ضباط القوات المسلحة والقنصـليات والمـدراس الأجنبيـة ومحلات السوبر ماركت ومحلات السـمك الغـالي الـثمن والكباب والكفتة.

في القسم التجاري محـلات مـن القطـاعين: العـام والخاص دار القضاء العالي، شارع عمـاد الـدين. حديقـة الازبكية التي غنت أم كلثوم على مسرحها وفي آخر الشارع من ناحية العتبة سوق الأقل ثروة لأنه يبيع البضـائع الأقـل ثمناً.

بطل الرصيف بائع فول مدمس عمره ٥٠ سنة، هاجر من إحدى قرى الوجه البحري، يسكن في بولاق يبدأ العمـل وقت الفجر يدفع رشوة لأصحاب المخابز من أجل الحصول على الخبز، أهل بيته يساعدونه في إعداد الفول في البيـت، أكلة الفول منذ ٢٠ سنة كانت تتكلف ٣ قروش، الآن الأكلـة نفسها تتكلف ٣٠ قرشاً، أي عشرة أضعاف السعر، يقف في المكان نفسه من الرصيف منذ ربع قرن مضى من الزمان.

لم يتعلم أحد من أبنائه وأهمية الفول أن المواطن كلما شرب ماء بعد أكل الفول، كلما تمدد الفول في بطنه وشـعر بالامتلاء، وهذا يطيل من عمر الحكومات يعيش علـى رزق يوم بيوم.

عن اللغة يقول الباحث أنها العامية المصرية في بولاق واللغات الأجنبية في الزمالك، والعامية والأجنبية معـاً فـي الحي التجاري، سكان الحي الشعبي يعملون في الخدمة، تخدم النساء في بيوت الزمالك ويذهب الرجال والصبية للعمل في القسم التجاري ولا يحصلون سوى على الفضلات، سواء من سكان الزمالك أو من أهل الحي التجاري.


وفي يوم الجمعة من كل أسـبوع يصـبح الرصـيف امتداداً للمسجد المقابل له، يحضر المصلون الحصـير مـن البيوت يفرشونها على الأرض، هذا ما يحدث فـي المنطقـة الشعبية ولكن في الزمالك والحي التجاري يفرشون السـجاد العجمي الفاخر كنوع من المباهاة الاجتماعية، وبعد الصـلاة يتحول المكان غلى سوق للبيع والشراء.

بائع الفول يسمع أن في مصر أحزاباً سياسية، ولكنه لا يعرف ما هي، كل ما يعرفه أن هذه الأحزاب من أجل كبار الموظفين في البلاد ومن أجل المرتاحين مالياً.

ملابس النساء شعبية في القسم الشعبي، أوروبية فـي الزمالك خليط من هذا وذاك في القسم التجاري، وبشكل عام كرنفال من الألوان حيث لا يوجد زي وطني يرتبط بـروح الوطن.

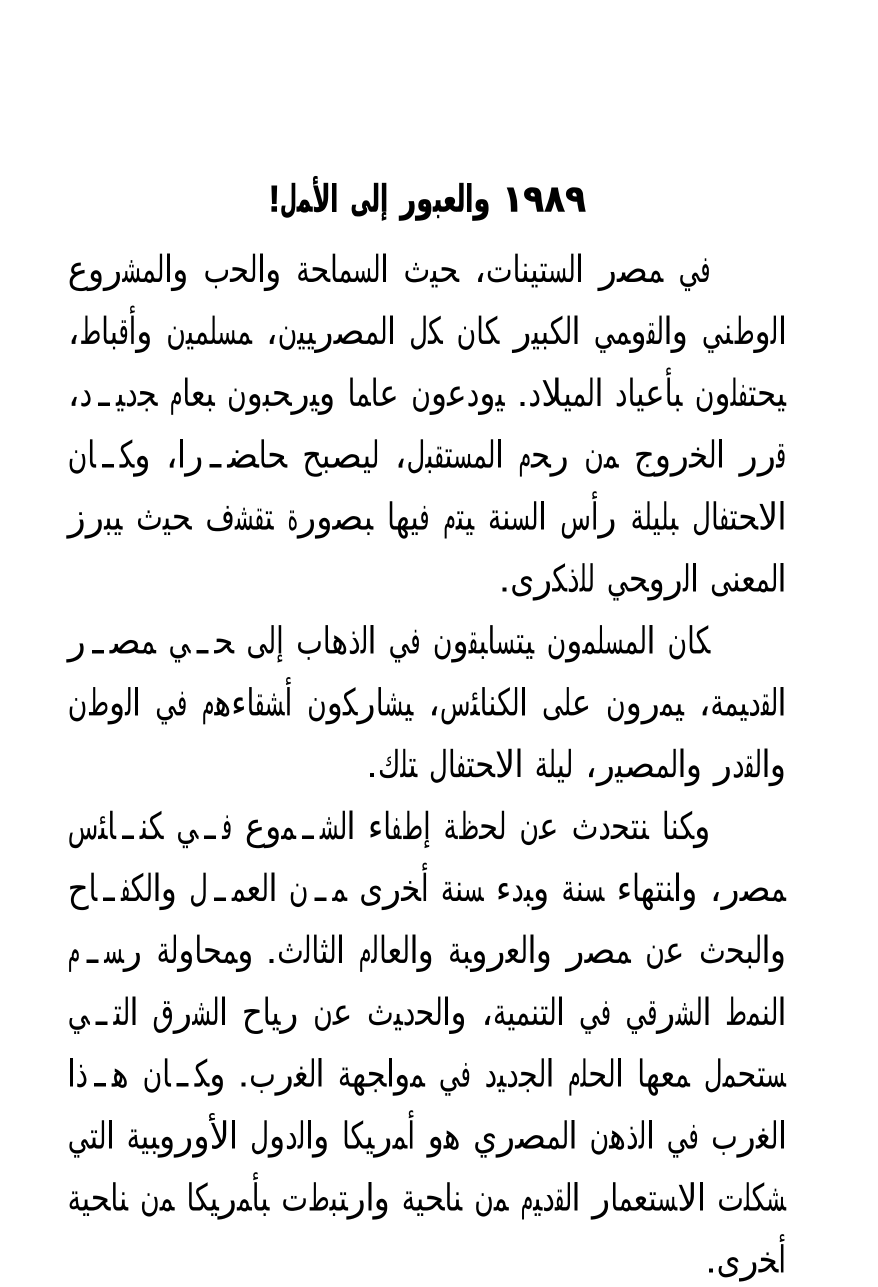
يتحدث الدكتور الطاهر لبيب، يقول أن مـادة الحيـاة اليومية قد تبدو خداعة في بعض المظاهر والجوهري فيهـا قليل فكيف نعتمد عليها في رصد أمور جوهرية.

لكن تبقي لي ملاحظاتي، النيل يتقاطع مع شارع فـواد مرتين، قبل وبعد الزمالك، فأين هو من هذه الدراسة؟ ثم أن

الشارع نفسه مغطي الآن بشـارع آخـر فوقـه، فعـن أي الشارعين يتكلم الباحث؟ الشارع الأصلي الذي أصبح خندقاً، أو العلوي الذي هو كوبري أكثر منه شارع؟ ثم أنه الرصيف افتراض ذهني، لا وجود له سوى فـي أذهاننـا، فـالتطور الاجتماعي الذي لا يرحم، لم يترك لنا رصيفاً، ثـم أن هـذا الرصيف يعيش فوقه حرافيش المدينة الذين يخرجـون عـن الهيئة الاجتماعية، ومع هذا فإن الوجوه التي قدمها الباحـث هي الأفراد من هذه الهيئة فأين هم حرافيش المدينة وهـوام الأرصفة؟!

ويتحدث عبد القادر شهيب، يقول، شبعنا كلامـاً عـن الأزمة الراهنة في مصر، لا جديد على الإطلاق في أي كلام منها، ولكن أين المخرج من هذه الأزمة، ما الحل؟! تخـرج من مصر من عنق الزجاجة الرهيب الذي توجد فيـه الآن؟ ذلك هو السؤال الجوهري الذي لا إجابة عليه ويرد الـدكتور عبد الباسط عبد المعطي بأن كل ما قدمه «مجرد مشروع يا ناس.. وعندما يتحدد المشروع بصورته النهائية يبدأ الكـلام يا ناس..».

٧ يناير ١٩٨٩



١٩٨٩ والعبور إلى الأمل!

في مصر الستينات، حيث السماحة والحب والمشروع الوطني والقومي الكبير كان كل المصريين، مسلمين وأقباط، يحتفلون بأعياد الميلاد. يودعون عاما ويرحبون بعام جديد، قرر الخروج من رحم المستقبل، ليصبح حاضرا، وكان الاحتفال بليلة رأس السنة يتم فيها بصورة تقشف حيث يبرز المعنى الروحي للذكرى.

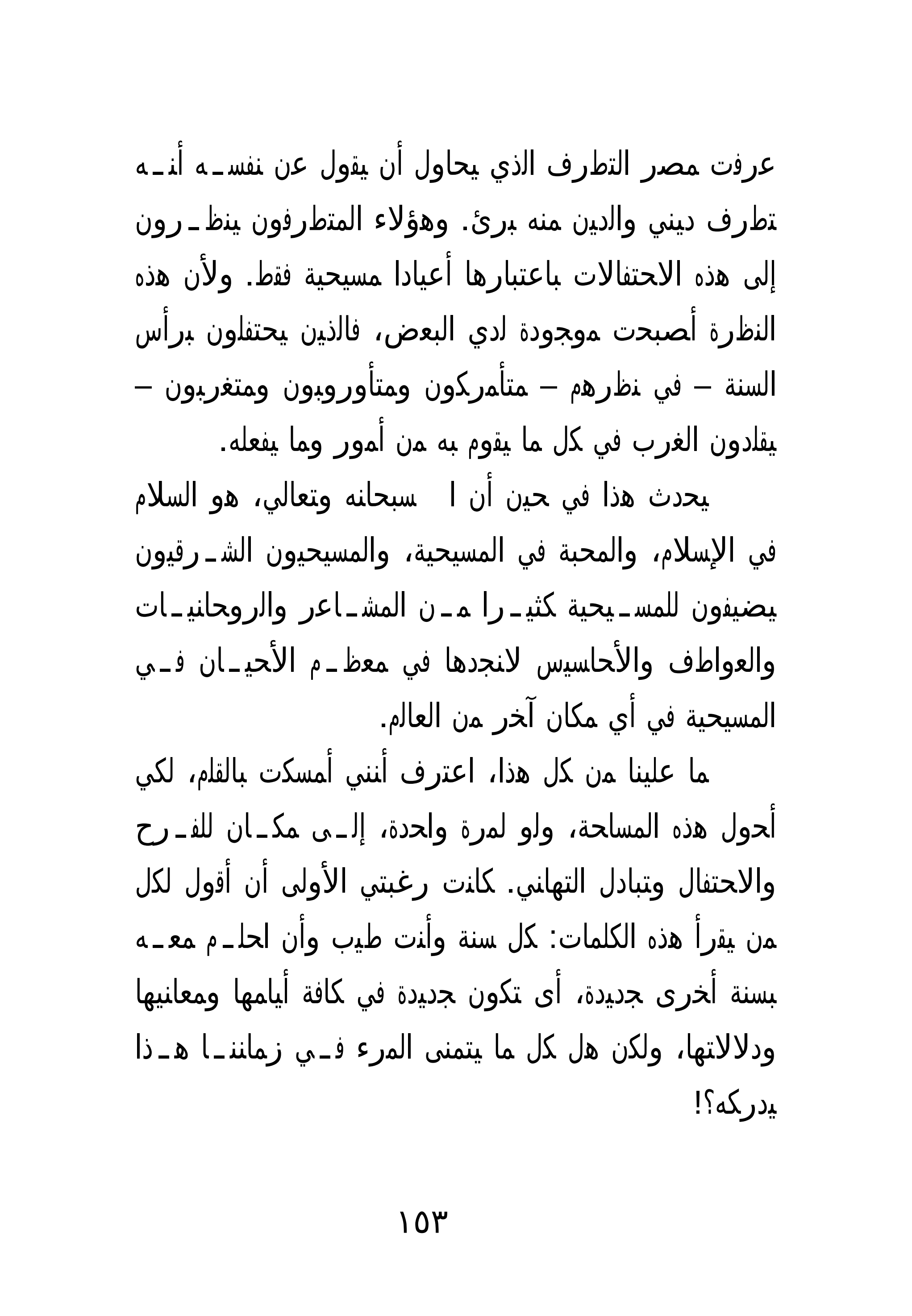
كان المسلمون يتسابقون في الذهاب إلى حي مصر القديمة، يمرون على الكنائس، يشاركون أشقاءهم في الوطن والقدر والمصير، ليلة الاحتفال تلك.

وكنا نتحدث عن لحظة إطفاء الشموع في كنائس مصر، وانتهاء سنة وبدء سنة أخرى من العمل والكفاح والبحث عن مصر والعروبة والعالم الثالث. ومحاولة رسم النمط الشرقي في التنمية، والحديث عن رياح الشرق التي ستحمل معها الحلم الجديد في مواجهة الغرب. وكان هذا الغرب في الذهن المصري هو أمريكا والدول الأوروبية التي شكلت الاستعمار القديم من ناحية وارتبطت بأمريكا من ناحية أخرى.

الآن، يقولون للعام الجديد مرحبا. وللعام الذي مضى وداعا ولكن في فنادق الدرجة الأولى والملاهي. تحول الأمر من المعنى الروحي القديم إلى نوع من المباهاة الاجتماعي والبذخ والقدرة على الإنفاق، طبقة جديدة خرجت من بطن عقد السبعينات، شعارها المرفوع تقول كلماته: «قل لي أين ودعت السنة الماضية، وأين استقبلت النسمات الأولى من العام الجديد.. أقل لك من أنت».

وهكذا أصبح الاحتفال برأس السنة قضية اقتصادية ودينية وسياسية، بعد أن كان الاحتفال الديني والإصغاء لأصوات التراتيل في الكنائس، ورؤية الضوء الواهن الجميل، وأصوات أجراس الكنائس تملأ ليل القاهرة الشتوي بالصوت وصدى الصوت حتى يذوب ويتلاشى عند نقطة الأفق التي تلتقي فيها الأرض والسماء.

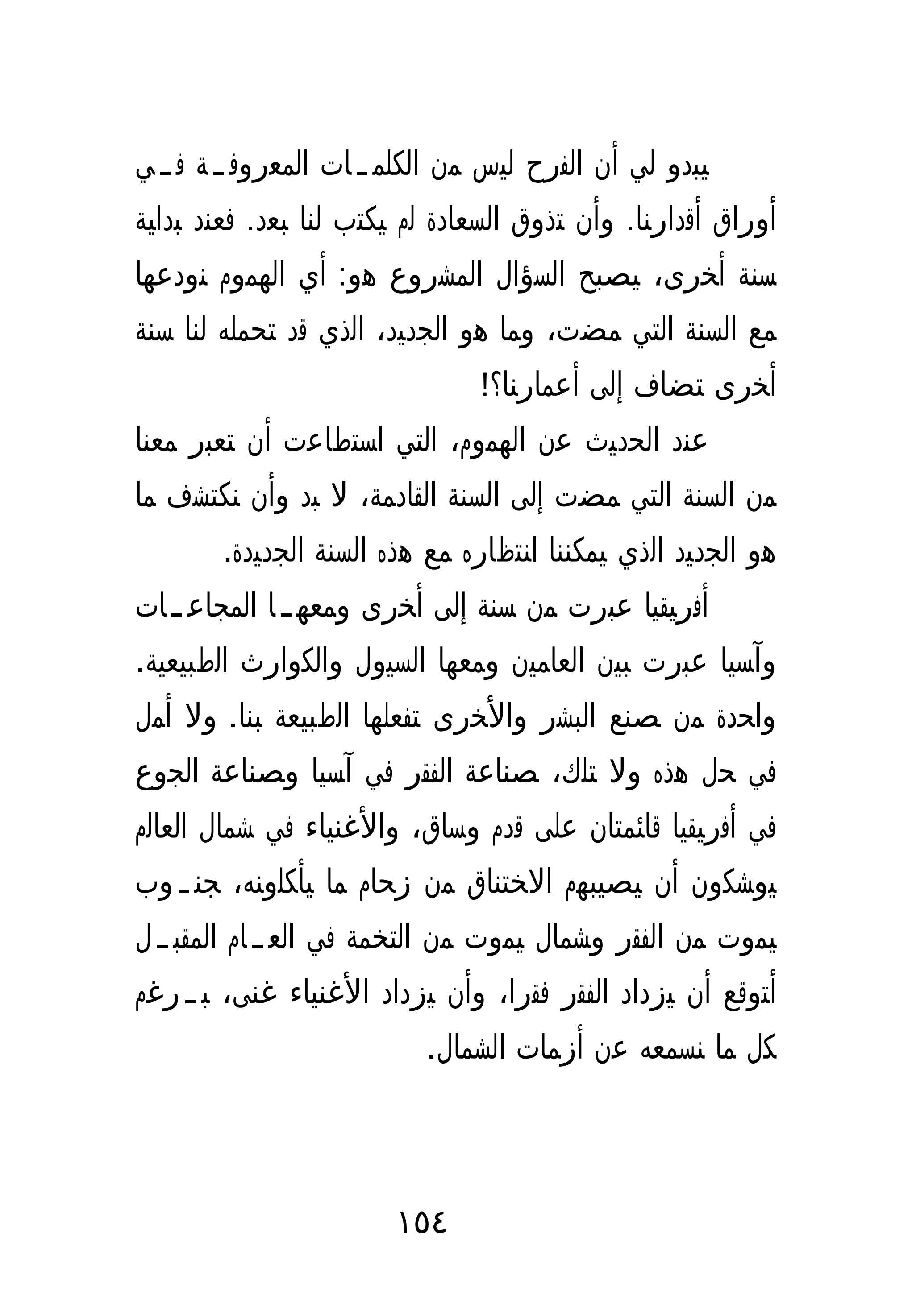
منذ السبعينات لا يقدر على الاحتفال بهذه الليلة في الفنادق سوى الأغنياء، سواء أكانوا أغنياء المسلمين أو الأغنياء من الأقباط. أما الفقراء فلم يبق لهم سوى المكوث والبقاء في البيوت. لأنه حتى الذهاب إلى الكنائس أصبح مكلفا.. وكل هذا يدخل في بند الهم الاقتصادي.. ومنذ أن



عرفت مصر التطرف الذي يحاول أن يقول عن نفسه أنه تطرف ديني والدين منه برئ. وهؤلاء المتطرفون ينظرون إلى هذه الاحتفالات باعتبارها أعيادا مسيحية فقط. ولأن هذه النظرة أصبحت موجودة لدي البعض، فالذين يحتفلون برأس السنة – في نظرهم – متأمركون ومتأوروبون ومتغربون – يقلدون الغرب في كل ما يقوم به من أمور وما يفعله.

يحدث هذا في حين أن ا سبحانه وتعالي، هو السلام في الإسلام، والمحبة في المسيحية، والمسيحيون الشرقيون يضيفون للمسيحية كثيرا من المشاعر والروحانيات والعواطف والأحاسيس لانجدها في معظم الأحيان في المسيحية في أي مكان آخر من العالم.

ما علينا من كل هذا، اعترف أنني أمسكت بالقلم، لكي أحول هذه المساحة، ولو لمرة واحدة، إلى مكان للفرح والاحتفال وتبادل التهاني. كانت رغبتي الأولى أن أقول لكل من يقرأ هذه الكلمات: كل سنة وأنت طيب وأن احلم معه بسنة أخرى جديدة، أى تكون جديدة في كافة أيامها ومعانيها ودلالاتها، ولكن هل كل ما يتمنى المرء في زماننا هذا يدركه؟!


يبدو لي أن الفرح ليس من الكلمات المعروفة في أوراق أقدارنا. وأن تذوق السعادة لم يكتب لنا بعد. فعند بداية سنة أخرى، يصبح السؤال المشروع هو: أي الهموم نودعها مع السنة التي مضت، وما هو الجديد، الذي قد تحمله لنا سنة أخرى تضاف إلى أعمارنا؟!

عند الحديث عن الهموم، التي استطاعت أن تعبر معنا من السنة التي مضت إلى السنة القادمة، لا بد وأن نكتشف ما هو الجديد الذي يمكننا انتظاره مع هذه السنة الجديدة.

أفريقيا عبرت من سنة إلى أخرى ومعها المجاعات وآسيا عبرت بين العامين ومعها السيول والكوارث الطبيعية. واحدة من صنع البشر والأخرى تفعلها الطبيعة بنا. ولا أمل في حل هذه ولا تلك، صناعة الفقر في آسيا وصناعة الجوع في أفريقيا قائمتان على قدم وساق، والأغنياء في شمال العالم يوشكون أن يصيبهم الاختناق من زحام ما يأكلونه، جنوب يموت من الفقر وشمال يموت من التخمة في العام المقبل أتوقع أن يزداد الفقر فقرا، وأن يزداد الأغنياء غنى، برغم كل ما نسمعه عن أزمات الشمال.

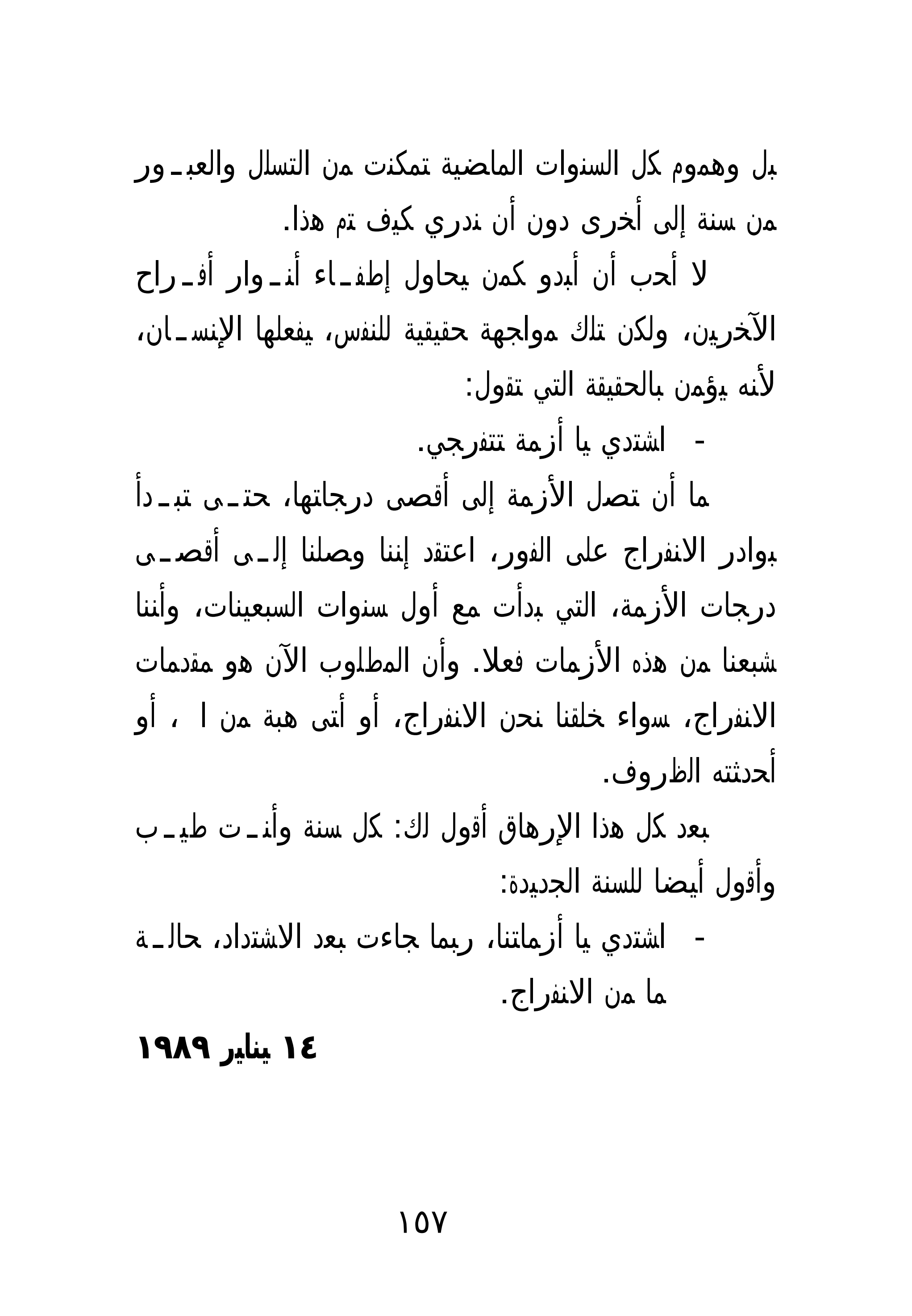
كان العام الماضي عام التعايش بين الجباريين، لأن زمن المواجهة قد مضى، ولا مفر من الحوار والتعايش.

وقد حلت بعض المشاكل فعلا. وبقى بعضها معلقا والمشاكل التي حلت هي تلك التي كانت تتطلب أن يتقدم السوفيات بالحلول لها، مثل أفغانستان، أما تلك التي تتطلب حلولا من الأمريكيين فما زالت تراوح مكانها مثل الشروق الأوسط، وفي الشرق الأوسط قال العرب فكرة التعايش، ولكن الطرف الآخر ورد بالتطرف والإرهاب، وفي الدولة الصهيونية هناك حزب يقول لا. والآخر يقول لا ولكن، ووقعنا في الوهم وسمينا الأول بالصقور والثاني بالحمائم وأن كان الفارق بين الصقر والحمامة لا وجود له. قال العرب النضال الدبلوماسي، وكفاح الحوار، ولكن الأعداء لا يسمعون ولا يرون ولا يتكلمون ولكن فقط يضربون، ومن البيت الأبيض يرحل ريغان الأول ليحل محله ريغان الثاني المسمى خطأ جورج بوش، وفي فلسطين المحتلة الغي المحتلون احتفالات رأس السنة في بلد المسيح عيسى بن مريم. ويقولون بصلف وغرور في انتظار بيان الانتفاضة الأخير. وفي لبنان يخشى كل الشرق التقسيم الأخير. وفي

الخليج العربي خرج الموقف من الحرب المعروفة إلى زمن اللاسلم واللاحرب الذي لا يعرفه أحد. دخلت المنطقـة فـي مرحلة رمادية، وفي السودان مشروع لإنهاء حرب الجنـوب واستبدالها بحرب في الشمال بين رفاق الأمس.

والمشروع الاشتراكي على مستوى العالم يبدو متعبـا حتى النخاع. يجدد نفسه ولكن من خـلال تقليـد المشـروع الرأسمالي الغربي الذي يبدو مسـتريحا ومسـتقرا وربمـا مزدهرا. وطاعون الإيدز الغربي مـا زال يخـرج لسـانه للبشرية، التي لم تتمكن من قهره حتى الآن. سـقف العـالم الاشتراكي يبحث عن حرية تذكرة الانتخاب ويجـرى وراء الجينز، وسقف العالم الغربي يعاني من هموم الترف، ونحن في مصر ودعنا صيفا ملتهبا لكي نستقبل شتاء قارسا، وهكذا أصبحنا نعاني من برد أوروبا دون أن تكون لـدينا رفاهيـة بلاد الشمال ، ومن حر دول الخليج البترولية مع حرماننا من امكانياتها الهائلة.

سنة أخرى جديدة نعم، ولكنها بدون مشروع عربـي للأمل. وبدون تصور عالمي للغد، بكل مـا تحملـه عـادة دلالات الغد من كل ما هو جديد فعلا. هموم السنة الماضية،


بل وهموم كل السنوات الماضية تمكنت من التسلل والعبـور من سنة إلى أخرى دون أن ندري كيف تم هذا.

لا أحب أن أبدو كمن يحاول إطفـاء أنـوار أفـراح الآخرين، ولكن تلك مواجهة حقيقية للنفس، يفعلها الإنسـان، لأنه يؤمن بالحقيقة التي تقول:

- اشتدي يا أزمة تنفرجي.

ما أن تصل الأزمة إلى أقصى درجاتها، حتـى تبـدأ بوادر الانفراج على الفور، اعتقد إننا وصلنا إلـى أقصـى درجات الأزمة، التي بدأت مع أول سنوات السبعينات، وأننا شبعنا من هذه الأزمات فعلا. وأن المطلوب الآن هو مقدمات الانفراج، سواء خلقنا نحن الانفراج، أو أتى هبة من ا ، أو أحدثته الظروف.

بعد كل هذا الإرهاق أقول لك: كل سنة وأنـت طيـب وأقول أيضا للسنة الجديدة:

- اشتدي يا أزماتنا، ربما جاءت بعد الاشتداد، حالـة ما من الانفراج.

١٤ يناير ١٩٨٩

الضاحك الباكي

كان بهجت قمر أغرب من عرفت، وليس أمامي الآن سوى الكتابة عنه مسبوقة بكان. ذلك أنه رحل عـن دنيانـا، لآخر مرة في ثالث يوم، من أول شهر من هذا العام وقصتي معه غريبة من البدء وحتى الختام، الذي خطته يد الموت.

أربع مرات فقد رأيته فيها، ومنذ المرة الأولى وحتـى الرابعة والأخيرة، وكل الظروف تؤكد خلافي معه في كـل الأمور، ومع هذا تسلل إلى القلب، دون أن أدري كيف ومتي حدث هذا، واكتشفت أنه يمكن أن نلاقي في هذا العالم بشـرا آخرين، تضعنا مواقفنا وآراؤنا في موقف شـديد التنـاقض معهم، ومع هذا فإن جسر التلاقي الإنساني، يبدو قادرا على تجاوز كل هذه التفاصيل..

ذات مساء قاهري قبل ستة أشهر، اقترحت على الفنانة معالي زايد أن نذهب إلى بهجت قمر، وبهجت قمر في ذهني يعني البرنامج الإذاعي الناجح :«ساعة لقلبك» عنـدما كـان الراديو المصري متربعا على عرش الأذن المصرية، وقبـل أن يظهر هذا الغول الرهيب الذي اسمه التليفزيـون، وهـو يعني بالنسبة لي الفنان القادر على إسعاد الجماهير العريضة

بفنه، بصرف النظر عما نراه من شروط العمـل الفنـي و الإبداع.

كنت مرهقا من جماعة المثقفين في مصر، تلك التـي وصلت بالفعل إلى طريق مسدود، وإلى بقعة منعزلة وبعيـدة تماما عن حرارة الناس العاديين، عموما تلك قصـة أخـرى تماما. المهم أنني رحبت باقتراح الذهاب إليه.

يسكن بهجت قمر في شقة في شارع التحرير بـالقرب من ميدان الدقي، أهم ما فيها حجرة مكتب واسعة، يكتب فيها بالنهار ويذهب إليها كل خلاق ا في الليل، والليل يبدأ مـن التاسعة مساء ويمتد حتى الخيوط الأولى من الفجر. وذلـك اللقاء الحميم يتكرر تقريبا كل ليلة، فصاحب البيت لا يطيـق أن يقض لحظة واحدة بعيدا عن الناس.



«المندرة» أو حجرة المكتب سببت لي صـدمة. عـل الحيطان على مصر السابق، العلم الأخضر والهلال والنجوم، العلم الذي ألغته ثورة ٣٢يوليو ١٩٥٢ وصورة الملك فاروق وأسرته ووالده، وصورة كبيرة للجنيه المصري القديم، إنهـا ليست صورا معلقة ولكنها موقف محدد.

شعرت أن صاحب البيت يريد أن يتوقف عند آخر ليلة في مصر الملكية، ويبقى عنـد هـذه اللحظـة الزمنيـة ولا يتجاوزها لحظة واحدة، والمشكلة أن الزمن لا يحقق رغبات أحد أبدا. إنه مستمر في تدفقه وتقدمة وسـريانه رغـم إرادة البشر جميعا، بل أنه يخرج لسانه الجهنمي لكل من يقاوم، أو يفكر بمقاومة تلك القدرة الفريدة على الجري إلى الأمام.

قبل أن أجلس، ولكي أكون واضحا ومحددا، قلت إنني ما تعلمت لولا ثورة يوليو، لولاها ما دخلت مدرسة، فأنا ابن أسرة كانت وما زالت وستظل من الأسر الفقيرة، لم يكن من حقنا في مصـر الملكيـة أن نـتعلم وأن نشـعر بكرامتنـا وإنسانيتنا، قلت إنني مستعد للدفاع حتى عن «أخطاء» هـذه الثورة العظيمة، تلك الأخطاء التي لا وجود لها سـوى فـي خيالات وأوهام الآخرين.

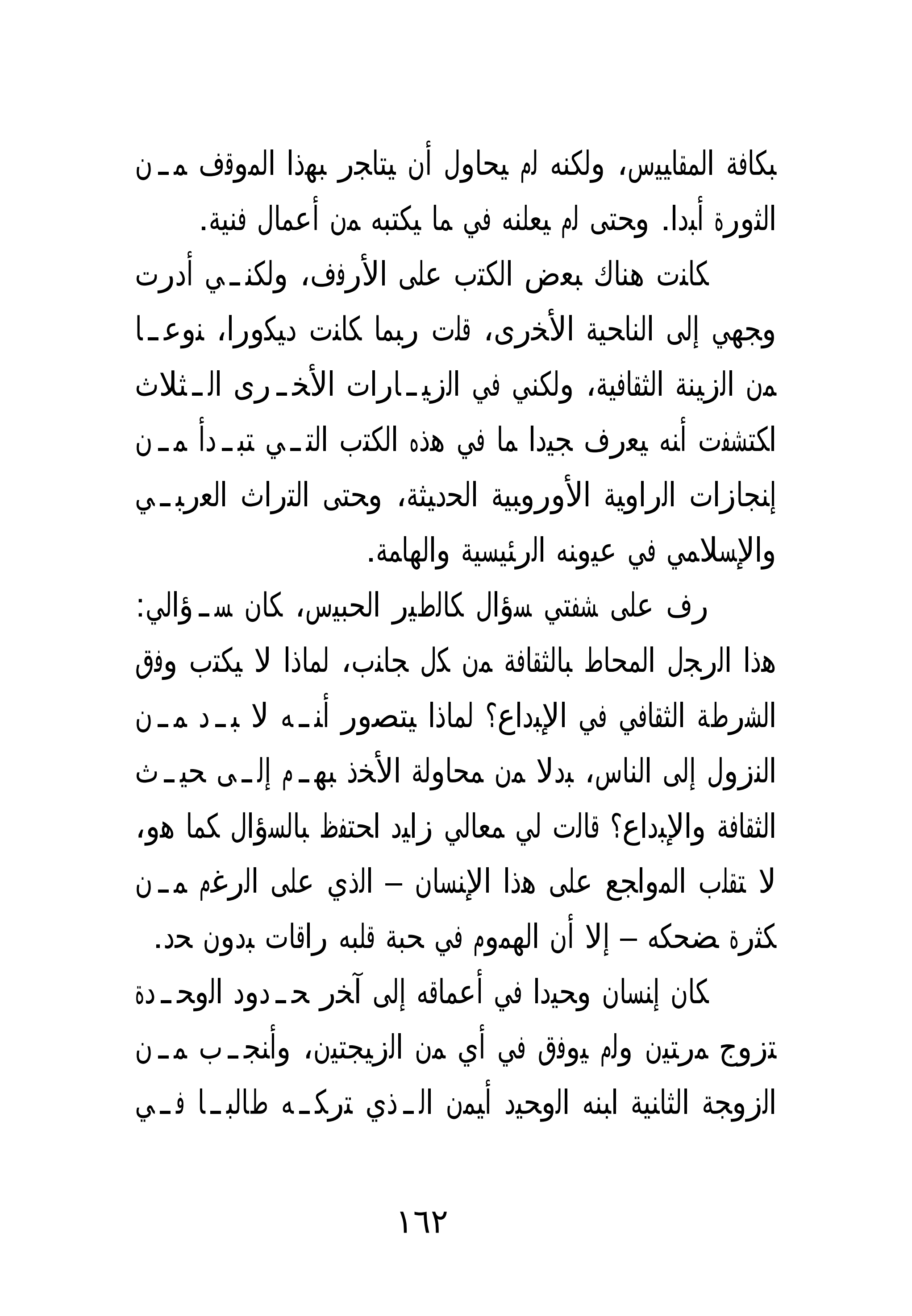
جاءت ابتسامته أولا. وسبقت كركرة الضـحكات مـا قاله، طلب مني أن نتفق على أن نختلـف، ولكـن بصـورة متحضرة، بدون تشنج أو صراخ، ويكفي الناس أن يشبع كل منهم من الآخر بدون أي مشاكل أخرى.

كان يكتب مسرحية فكاهية غنائية استعراضـية عـن

«شارع محمد على» الشارع الذي أخذ العز معه وراح وهكذا يرى بهجت قمر ويعتقد أنه لن يعود هذا العز إلى مصر مرة أخرى أبدا. على الجدران صورة للفنان عبـد ا فرغلـي، مديرا ظهره، وعلى المكتب صورة للفنانة معالي زايد، التي يرى – ومعه كل الحق في ما يـراه – أنهـا مسـتقبل فـن التمثيل.

من نعم ا على الإنسان أن يستمع أكثر ممـا يـتكلم والقدرة على الإنصات للآخرين أهم من القدرة على الكـلام في الفاضية والمليانة، ومن نعم ا التي لا تقدر بمـال تلـك القدرة على احتواء هموم الآخرين واحتضانها وتخليص كـل حامل هم من همه.

وهكذا كان بهجت قمر. كان ينصـت، ولا يـتكلم إلا نادرا. وكان قلبه «حائط مبكي» حقيقيا لكن فنـانى مصـر، وكانت ذاكرته مخزن أسرار حقيقية للواقع الفني في مصـر في هذا القرن العشرين، وقد خسرنا الكثير لأنه رحل عن هذا العالم دون أن يكتب مذكراته، كان يرى أن ثورة يوليو كارثة


بكافة المقاييس، ولكنه لم يحاول أن يتاجر بهذا الموقف من الثورة أبدا. وحتى لم يعلنه في ما يكتبه من أعمال فنية.

كانت هناك بعض الكتب على الأرفف، ولكني أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى، قلت ربما كانت ديكورا، نوعا من الزينة الثقافية، ولكني في الزيارات الأخرى الثلاث اكتشفت أنه يعرف جيدا ما في هذه الكتب التي تبدأ من إنجازات الراوية الأوروبية الحديثة، وحتى التراث العربي والإسلامي في عيونه الرئيسية والهامة.

رف على شفتي سؤال كالطير الحبيس، كان سؤالي: هذا الرجل المحاط بالثقافة من كل جانب، لماذا لا يكتب وفق الشرطة الثقافي في الإبداع؟ لماذا يتصور أنه لا بد من النزول إلى الناس، بدلا من محاولة الأخذ بهم إلى حيث الثقافة والإبداع؟ قالت لي معالي زايد احتفظ بالسؤال كما هو، لا تقلب المواجع على هذا الإنسان – الذي على الرغم من كثرة ضحكه – إلا أن الهموم في حبة قلبه راقات بدون حد.

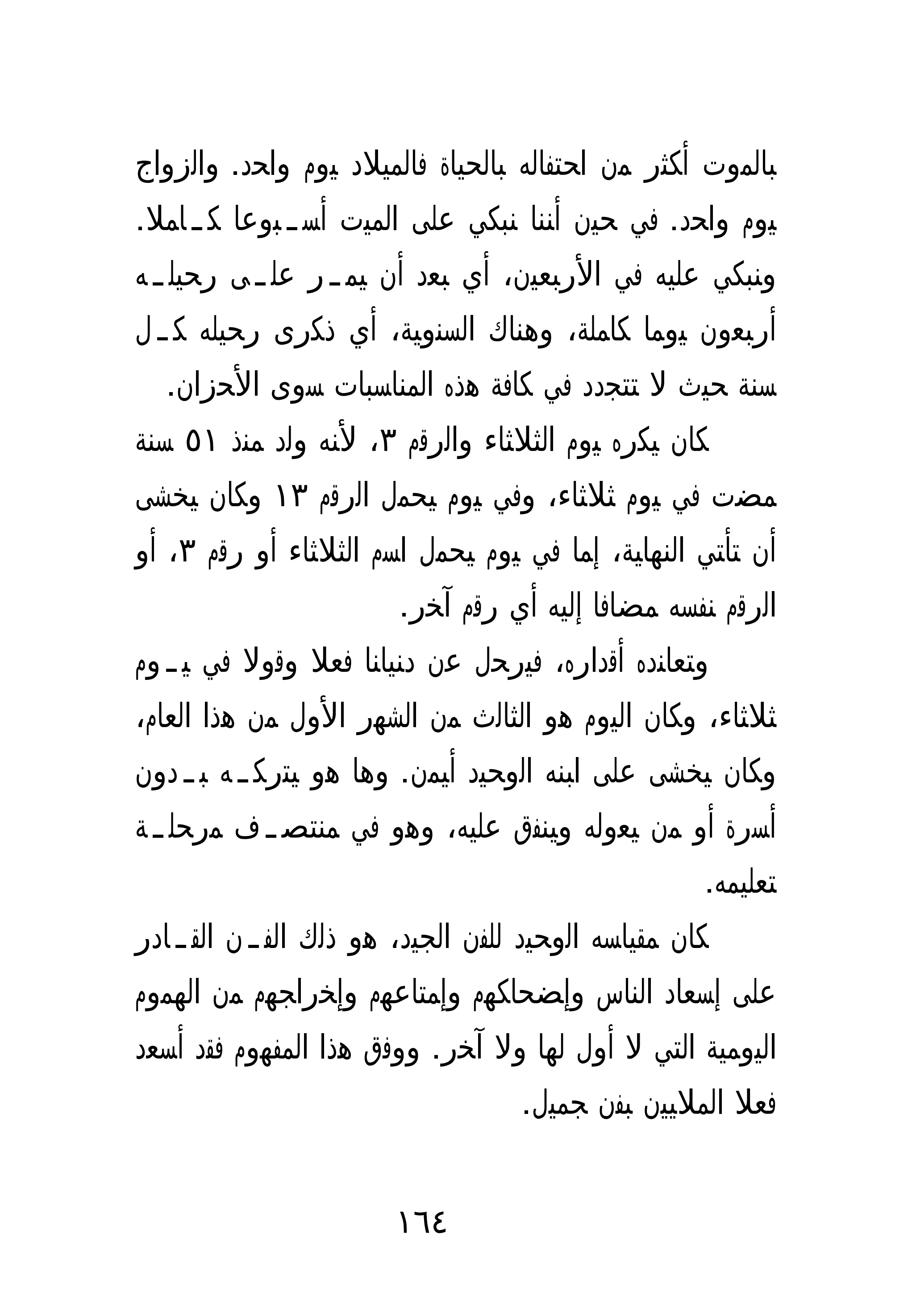
كان إنسان وحيدا في أعماقه إلى آخر حدود الوحدة تزوج مرتين ولم يوفق في أي من الزيجتين، وأنجب من الزوجة الثانية ابنه الوحيد أيمن الذي تركه طالبا في

الإعدادية، وكان آخر شجرة العائلة شقيقه الفنان عبد الغنـي قمر مات في الغربة، بعد أن طارده من زمن السادات. ولف ودار في الوطن العربي، إلى أن مات غريبا في ليبيا، ودفـن أيضا غريبا، كل أقربائه رحلوا قبله عن هذا العالم.

شعرت بعد هذا اللقاء الأول أننى أمـام إنسـان يقـدم الضحكات للآخرين ولكنه يحتفظ بالبكاء لنفسه، حتى يـأتي زمن البكاء، وشعرت أن أزمته الحقيقية هي أزمتنا جميعا، ما من أحد يفعل ما يريد هو أن يفعله، ولكن يقوم بتلـك الأدوار التي تبقى لنا من العصر الذي قدر علينا أن نحيا فيه.

كان أضخم من رأيت، وكانوا يقولون عنـه (الفيـل) بسبب ضخامة جسده، وكان يلهث ويعمل ويضحك ويسـمع ويتلقى هموم الآخرين، كسب كثيرا وأنفق كل ما حصل عليه في هذه الدنيا، لدرجة أنه بعد رحيله عن الدنيا لم يكن هنـاك قبر يمكن أن يدفن فيه سوى مقابر نقابة المهـن التمثيليـة، وكان هو أول من يدفن في هذه المقابر، أي أنه خـرج مـن الدنيا كما دخل إليها بلا زيادة أو نقصان.

كان يكره الموت. كان يقول أن الحياة كلهـا أجـازة قصيرة تسبق هذه الموت. وكان يقول أننـا شـعب يحتفـل



بالموت أكثر من احتفاله بالحياة فالميلاد يوم واحد. والزواج يوم واحد. في حين أننا نبكي على الميت أسـبوعا كـاملا. ونبكي عليه في الأربعين، أي بعد أن يمـر علـى رحيلـه أربعون يوما كاملة، وهناك السنوية، أي ذكرى رحيله كـل سنة حيث لا تتجدد في كافة هذه المناسبات سوى الأحزان.

كان يكره يوم الثلاثاء والرقم ٣، لأنه ولد منذ ٥١ سنة مضت في يوم ثلاثاء، وفي يوم يحمل الرقم ١٣ وكان يخشى أن تأتي النهاية، إما في يوم يحمل اسم الثلاثاء أو رقم ٣، أو الرقم نفسه مضافا إليه أي رقم آخر.

وتعانده أقداره، فيرحل عن دنيانا فعلا وقولا في يـوم ثلاثاء، وكان اليوم هو الثالث من الشهر الأول من هذا العام، وكان يخشى على ابنه الوحيد أيمن. وها هو يتركـه بـدون أسرة أو من يعوله وينفق عليه، وهو في منتصـف مرحلـة تعليمه.

كان مقياسه الوحيد للفن الجيد، هو ذلك الفـن القـادر على إسعاد الناس وإضحاكهم وإمتاعهم وإخراجهم من الهموم اليومية التي لا أول لها ولا آخر. ووفق هذا المفهوم فقد أسعد فعلا الملايين بفن جميل.

ذهبت إلى جامع عمر مكرم في ميدان التحرير من أجل العزاء. سألت نفسي بمرارة: كم مرة سنقوم بهذه الرحلة لكي نودع الأحباب؟ استدار السؤال في أعماق بخبث، كم مرة ما تزال باقية في جعبة أيام العمر القليلة حتى نقول لمن يسبقوننا في الرحيل وداعا!

جلست اكتب عنه وأنا حزين، لسبب آخر غير الفقد والفراق، فالكل يذهب ولا أحد يجئ ومن ننتظره يأتي ولا يأتي، أما الراحلون فحقيقة مؤكدة، حزني كان له سبب آخر ليتني كتبت عنه هذه الكلمات في حياته، لماذا لا نسمك بالقلم لكي نكتب إلا بعد الرحيل دائما.

ربما كانت تلك أيضا واحدة من ملامح احتفالنا المأساوي بالموت والرحيل عن هذا العالم.

بقى أن أسأل القراء عذرا عن كل هذه الأحزان، وعذرى أن الضحك، منذ سنوات مضت لم يعد ممكنا.

يقول الناس، في مصر في بعض الأحيان، أن القادر على الضحك في هذا الزمان، إما مجنون أو أبله، أما العاقل فلا يمكنه أبدا استحضار بسمة ما، مهما كانت باهتة أو شاحبة إلى شفتيه.



يبدو أن الضحك والقدرة عليه ستكون بطولة الـزمن الحالي والمقبل معا.

٢١ يناير ١٩٨٩

فلسطينيون في أرض الكنانة

بعض السياحة جاءت القضية، فأبناء فلسطين حضروا إلى مصر من اجل رؤية معالمها، والتحديق بأكبر قدر مـن الدهشة في ملامح أول وطن عربي تمكن عـرب ٤٨ مـن الوصول إليه، منذ النكبة الأولى وحتى الآن.

كان سميح القاسم في شجاعة حضوره إلى مصر لأول مرة قبل شهرين رائدا لهذه الخطوات التي لا بد منها.

شهران وحضر إلى مصر «أبو سلام» إميل حبيبـي، بشخصيه وشحمه ولحمه ودمه وحضوره الفلسطيني النـادر، جاء إميل حبيبي إلى مصر بدعوة مـن اللجنـة المصـرية للتضامن مع شعوب آسيا وإفريقيا، لكي يشارك في نـدوتين أقامتهما اللجنة، الأولى عن آفاق السلام في الشرق الأوسط، والثانية عن الحوار العربي السوفيتي ومشاركة فـي النـدوة الثانية، جاء إلى مصر أيضا، ولأول مرة منذ خمسة عشـر عاما، طلال سلمان صاحب ورئيس تحرير جريدة «السفير» البيروتية، والذي لم يحضر إلى مصر منذ سنة ١٩٧٤ وحتى الآن.

على أن المسافة ما بين مصـر المصـرية ومصـر العربية تضيق تماما، وأن مصر التي عرفناهـا فـي عقـد الستينات بدأت تعود إلينا مرة أخرى، وجاء إلى مصر لأول مرة منذ ١٤ عاما كريم مروة السياسي اللبناني.

قبل إميل حبيبي جاء إلى مصر أربعـة مـن كتـاب فلسطين، هم محمد على طه وزكي درويش ونزيه خير ونعيم عرايضي، جاء الثلاثة الأول من مجلة «٤٨» وهي المجلـة التي يصدرها اتحاد الكتاب العربي في البلاد، هكذا يكتبـون في صدر الصفحة الأولى من المجلـة، لأنـه مـن رابـع المستحيلات عليهم أن يقولوا فلسطين، هكذا يفـرض العـدو على الجميع، وهم من ناحيتهم يرفضـون أن يكتبـوا كلمـة إسرائيل وهكذا ليس هناك مخرج سوى أن يكتبوا كلمة البلاد كحل وسط.

وأصل الحكاية أن سميح القاسم بعد الأيام التي قضاها في مصر، عاد إلى فلسطين، وقرر، مع هيئة تحرير مجلـة «٤٨» التي صدر منها عددان فقط، ويرأس تحريرها سميح القاسم، أن تصدر المجلة عددا خاصا عن الأدب المصـري الحديث.

محمد على طه، لا يذكر إن كان قد ولد سنة ١٩٤١ أو ١٩٤٢ لأن أوراق ميلاده فقدت عند التهجير. فهو ولد في قرية معار، وقد أبيدت هذه القرية تماما سنة ١٩٤٨، هاجر مع أسرته إلى لبنان ثم عادت الأسرة إلى فلسطين متسللة بعد عام، أي سنة ١٩٤٩، وبقيت الأسرة سبعة شهور تحت شجرة، أنجب ثمانية أطفال، والسبب في ذلك أنه استمع إلى غولدا مائير تقول إنها كلما تحلم بميلاد طفل فلسطيني فهي لا تنام الليل. فقرر أن يحرمها النوم ويقلق لياليها ثماني مرات، وهو يعمل الآن المحرر المسئول عن مجلة «٤٨» وسكرتير اتحاد الكتاب العرب، كما يعمل مدرسا للغة العربية في الكلية العربية وهي ليست تابعة للحكومة الإسرائيلية، له ست مجموعات من القصص القصيرة أولها: «لكي تشرق الشمس» وقد صدرت سنة ١٩٦٤، وإن كانت أشهر مجموعاته القصصية هي «وردة لعيني حفيظة» التي بسببها تعرض لعديد من المتاعب من الصهاينة، يكتب الآن أول نص روائي في حياته عن ثورة ١٩٣٦ ويربط بين هذه الثورة وثورة الحجارة.

زكي درويش يثبت أن البطن ليست قلابة فـي كافـة الأحوال، كل من يراه ويستمع إلى جمله القصـيرة والحـادة يسأله على الفور: أنت شقيق محمود درويش؟! فيرد ضاحكا: محمود هو شقيقي، وزكي قصاص وكاتب مسرح هاجر من قريته وعاد إليها متسللا، خرج آداب من جامعة حيفا، وهـو الآن ناظر مدرسة صغيرة.

رفض شقيقه محمود درويش أن ينشر له قصة عنـدما كان رئيس تحرير مجلة «الجديد» لأن القصة كان فيها أربعة تسللوا وقتلوا، وقال محمود يومها إذا قتلوا لن يكـون هنـاك أمل. وأكد محمود أن سمة الآداب الفلسـطيني فـي الأرض المحتلة أنه متفائل، والمناضل لا يمكن أن يكون متشائما.

له مسرحيتان هما: «الموت الأكبـر» و «لا» وأربـع مجموعات من القصص القصيرة هي: «شيء عن الغربـة» «الحب والطوفان» «الرجل الذي قتـل العـالم» «الكـلاب» وكانت أول قصة تنشر له عنوانها «فستان» وقد نشرت وهو طالب في المرحلة الثانوية.

نزيه خيـر شـاعر، درس الأدب العربـي والعلـوم السياسية في جامعة حيفا، وهو مولود سنة ١٩٤٦ وأول عمل

نشر له كان سنة ١٩٦٩، أصدر حتى الآن ثلاث مجموعات شعرية هي : «أغنيات صغيرة» «قـراءة جديـدة لسـورة الياسمين» «كتاب دموي لأبي تمام» وله تحت الطبع عملان جديدان الأول في القاهرة، ومن المتوقع أن يصدر عن هيئـة الكتاب المصرية، وعنوانه «مسافة من القلب، وأخرى مـن الذاكرة» والعمل الثاني من المتوقع أن يصدر فـي فلسـطين المحتلة وعنوانه «الجانب الأيسر جانب القلب».

وإذا كان هؤلاء من المبدعين، فإن نعيم عرايضي قـد اختار الدراسة الأدبية والنقدية، له كتاب هام عنوانه «مسيرة الإبداع: دراسات نقديـة وتحليليـه فـي الأدب الفلسـطيني المعاصر» والكتاب دراسات في أدب أبو سـلمى، محمـود درويش، سميح القاسم، ميشيل حداد، فدوى طوقـان، إميـل حبيبي ومحمد على طه، وكتاب «نافذة على الأدب العبـري الحديث».

زار إميل حبيبي القاهرة والأقصر وأسـوان والنوبـة وقابل نجيب محفوظ، واكتشف إميل أن نجيب قرأ بعناية تامة روايته «الوقائع الغريبة في اختفـاء سـعيد أبـي الـنحس

المتشائم» قال له نجيب: «أنا أقول السخرية فـي مجالسـي الخاصة، أما أنت فقد حولت هذه السخرية نفسها إلى أدب».

وذهب أميل حبيبي في منتصف كانون الثاني (ينـاير) الجاري، إلى ضريح جمال عبد الناصر، لكي يشارك أسـرة عبد الناصر الاحتفال بعيد ميلاده، قابل هناك فـي الضـريح قرينة عبد الناصر ورفيقة عمره السيدة تحية كاظم، وقابـل ابنة عبد الناصر الدكتورة هدي عبد الناصر وزوجها حـاتم صادق وعبد الحكيم ابن عبد الناصر، ومصطفى عبد الناصر شقيق الزعيم الراحل.

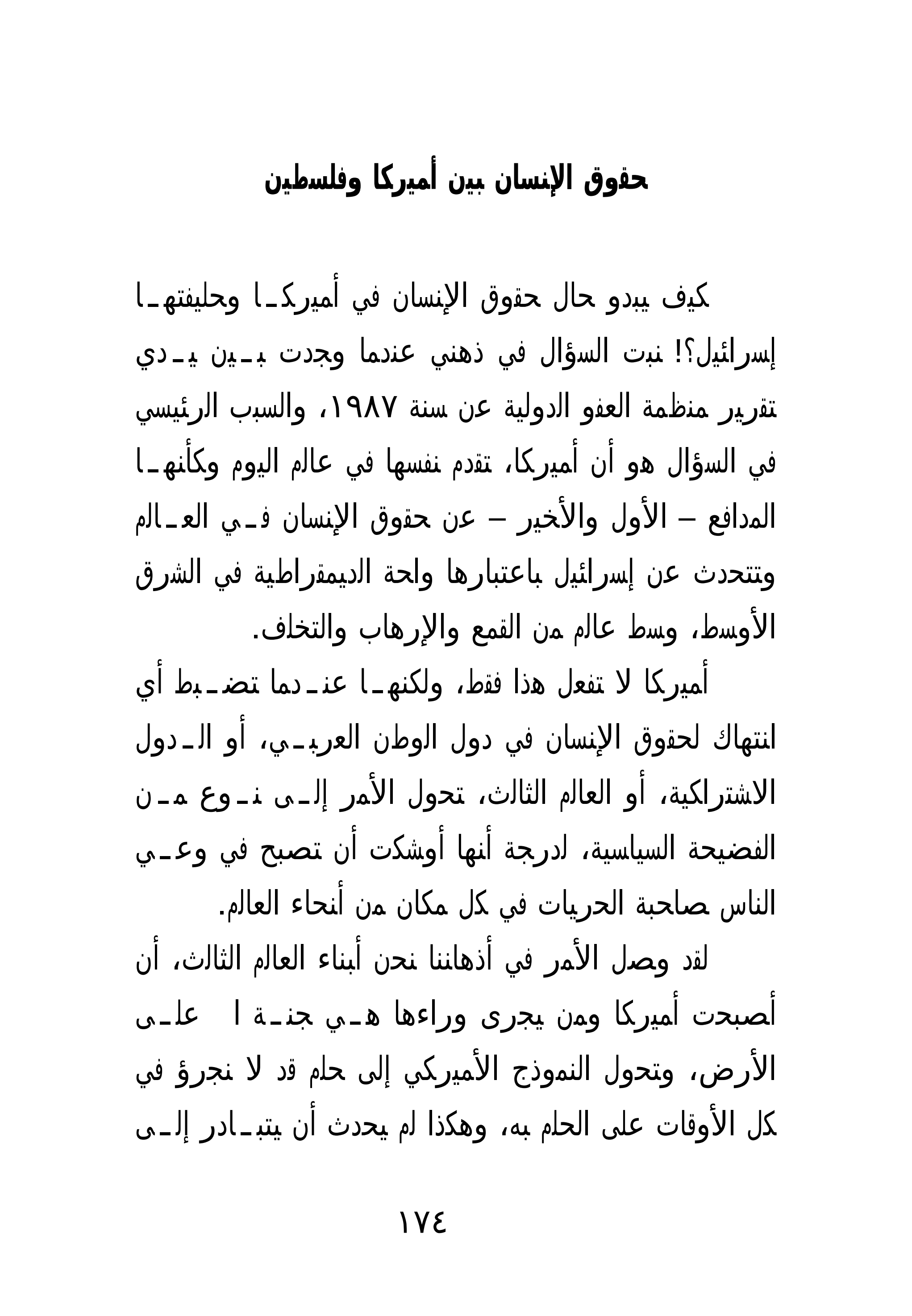
كتب اميل حبيبي في سجل زيـارات ضـريح عبـد الناصر «إلى القائد الخالد، أبو خالد: لو أنك كنت مـا زالـت بيننا حتى الآن، لجئت بالسلام العادل».

وفي هيئة الكتاب قرر الدكتور سمير سرحان رئـيس الهيئة أن تشارك فلسطين في معرض القاهرة الدولي للكتاب، كدولة وليس كمجرد معرض فلسـطيني، وأن يقـام خـلال المعرض ليلة فلسطينية كاملة، تسمع فيها الجمـاهير شـعر محمود درويش وسميح القاسم وفدوى طوقـان وأن يشـارك

اميل حبيبي في الندوة الدولية التي تقـام عـن أدب نجيـب محفوظ في معرض الكتاب.

إن فلسـطين النـاس والثـورة والأرض والقضـية والحجارة، تجلس الآن، كل مساء وكل صباح، على عـرش القلب المصري، وكل يوم يتسع عـرش القلـب المصـري لفلسطين حتى يشمل الدنيا كلها.

٢٨ يناير ١٩٨٩

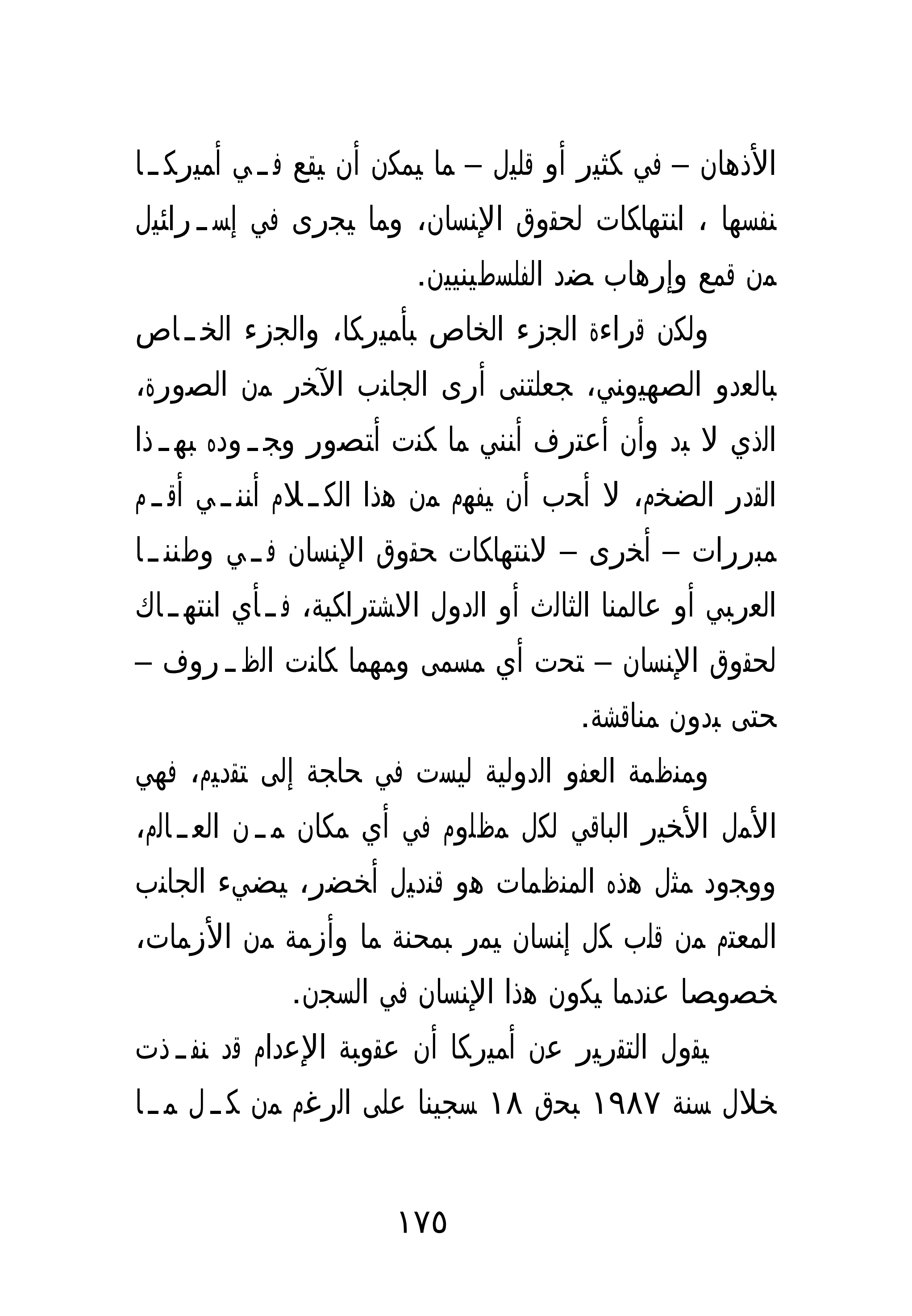


حقوق الإنسان بين أميركا وفلسطين

كيف يبدو حال حقوق الإنسان في أميركا وحليفتها إسرائيل؟! نبت السؤال في ذهني عندما وجدت بين يدي تقرير منظمة العفو الدولية عن سنة ١٩٨٧، والسبب الرئيسي في السؤال هو أن أميركا، تقدم نفسها في عالم اليوم وكأنها المدافع – الأول والأخير – عن حقوق الإنسان في العالم وتتحدث عن إسرائيل باعتبارها واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، وسط عالم من القمع والإرهاب والتخلف.

أميركا لا تفعل هذا فقط، ولكنها عندما تضبط أي انتهاك لحقوق الإنسان في دول الوطن العربي، أو الدول الاشتراكية، أو العالم الثالث، تحول الأمر إلى نوع من الفضيحة السياسية، لدرجة أنها أوشكت أن تصبح في وعي الناس صاحبة الحريات في كل مكان من أنحاء العالم.

لقد وصل الأمر في أذهاننا نحن أبناء العالم الثالث، أن أصبحت أميركا ومن يجرى وراءها هي جنة ا على الأرض، وتحول النموذج الأميركي إلى حلم قد لا نجرؤ في كل الأوقات على الحلم به، وهكذا لم يحدث أن يتبادر إلى



الأذهان – في كثير أو قليل – ما يمكن أن يقع في أميركا نفسها ، انتهاكات لحقوق الإنسان، وما يجرى في إسرائيل من قمع وإرهاب ضد الفلسطينيين.

ولكن قراءة الجزء الخاص بأميركا، والجزء الخاص بالعدو الصهيوني، جعلتنى أرى الجانب الآخر من الصورة، الذي لا بد وأن أعترف أنني ما كنت أتصور وجوده بهذا القدر الضخم، لا أحب أن يفهم من هذا الكلام أنني أقدم مبررات – أخرى – لانتهاكات حقوق الإنسان في وطننا العربي أو عالمنا الثالث أو الدول الاشتراكية، فأي انتهاك لحقوق الإنسان – تحت أي مسمى ومهما كانت الظروف – حتى بدون مناقشة.

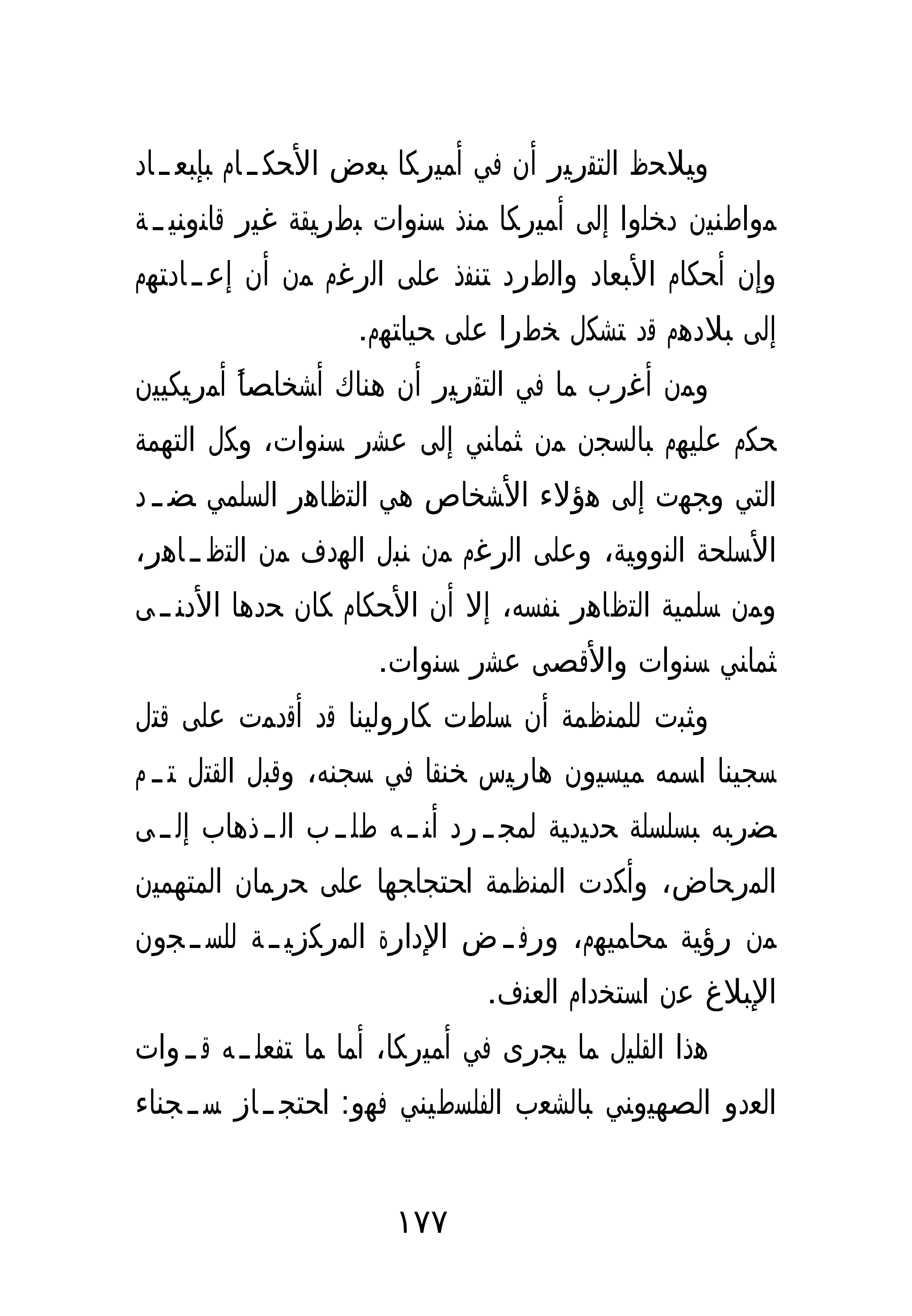
ومنظمة العفو الدولية ليست في حاجة إلى تقديم، فهي الأمل الأخير الباقي لكل مظلوم في أي مكان من العالم، ووجود مثل هذه المنظمات هو قنديل أخضر، يضيء الجانب المعتم من قلب كل إنسان يمر بمحنة ما وأزمة من الأزمات، خصوصا عندما يكون هذا الإنسان في السجن.

يقول التقرير عن أميركا أن عقوبة الإعدام قد نفذت خلال سنة ١٩٨٧ بحق ١٨ سجينا على الرغم من كل ما

أعلنته أميركا عن إلغاء هذه العقوبة، بل لقد وصل عدد الذين أعدموا فعلا منذ عودة الإعدام في السبعينات وحتى الآن ٦٨ شخصا وهناك ٢٠ شخصا آخرين ينتظـرون الإعـدام فـي سجون أميركا.

كذلك حققت المنظمة في عدد من القضايا الجنائية ثبت بالدليل أن المدعين العامين فيها كانوا منحازين سياسيا ضـد المتهمين، وكان هذا الانحياز موقفا مسبقا حتى على توجيـه الاتهام نفسه، وقد وصلت إلى المنظمة شكاوى كثيـرة عـن إساءة معاملة السجناء في سجون أميركا.

ومن الحالات الصارخة التي يوردها التقريـر حالـة جيمس تيري الذي جرى إعدامه بالكرسي الكهربائي. علـى الرغم من أنه ارتكب جريمته وهو تحت تأثير رجل أكبر منه في السجن، وأنه قد ثبت علميا أنه متخلـف عقليـا، وأثبـت الطبيب قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه أنه مصاب بمرض عصبي ونفسي ومع هذا نفذ حكم الإعدام، وهناك شخص آخر أعـدم قبل أن يكمل ثمانية عشر عاما من عمره على الرغم من أن القانون يمنع هذا.



ويلاحظ التقرير أن في أميركا بعض الأحكـام بإبعـاد مواطنين دخلوا إلى أميركا منذ سنوات بطريقة غير قانونيـة وإن أحكام الأبعاد والطرد تنفذ على الرغم من أن إعـادتهم إلى بلادهم قد تشكل خطرا على حياتهم.

ومن أغرب ما في التقرير أن هناك أشخاصاً أمريكيين حكم عليهم بالسجن من ثماني إلى عشر سنوات، وكل التهمة التي وجهت إلى هؤلاء الأشخاص هي التظاهر السلمي ضـد الأسلحة النووية، وعلى الرغم من نبل الهدف من التظـاهر، ومن سلمية التظاهر نفسه، إلا أن الأحكام كان حدها الأدنـى ثماني سنوات والأقصى عشر سنوات.

وثبت للمنظمة أن سلطات كارولينا قد أقدمت على قتل سجينا اسمه ميسيون هاريس خنقا في سجنه، وقبل القتل تـم ضربه بسلسلة حديدية لمجـرد أنـه طلـب الـذهاب إلـى المرحاض، وأكدت المنظمة احتجاجها على حرمان المتهمين من رؤية محاميهم، ورفـض الإدارة المركزيـة للسـجون الإبلاغ عن استخدام العنف.

هذا القليل ما يجرى في أميركا، أما ما تفعلـه قـوات العدو الصهيوني بالشعب الفلسطيني فهو: احتجـاز سـجناء

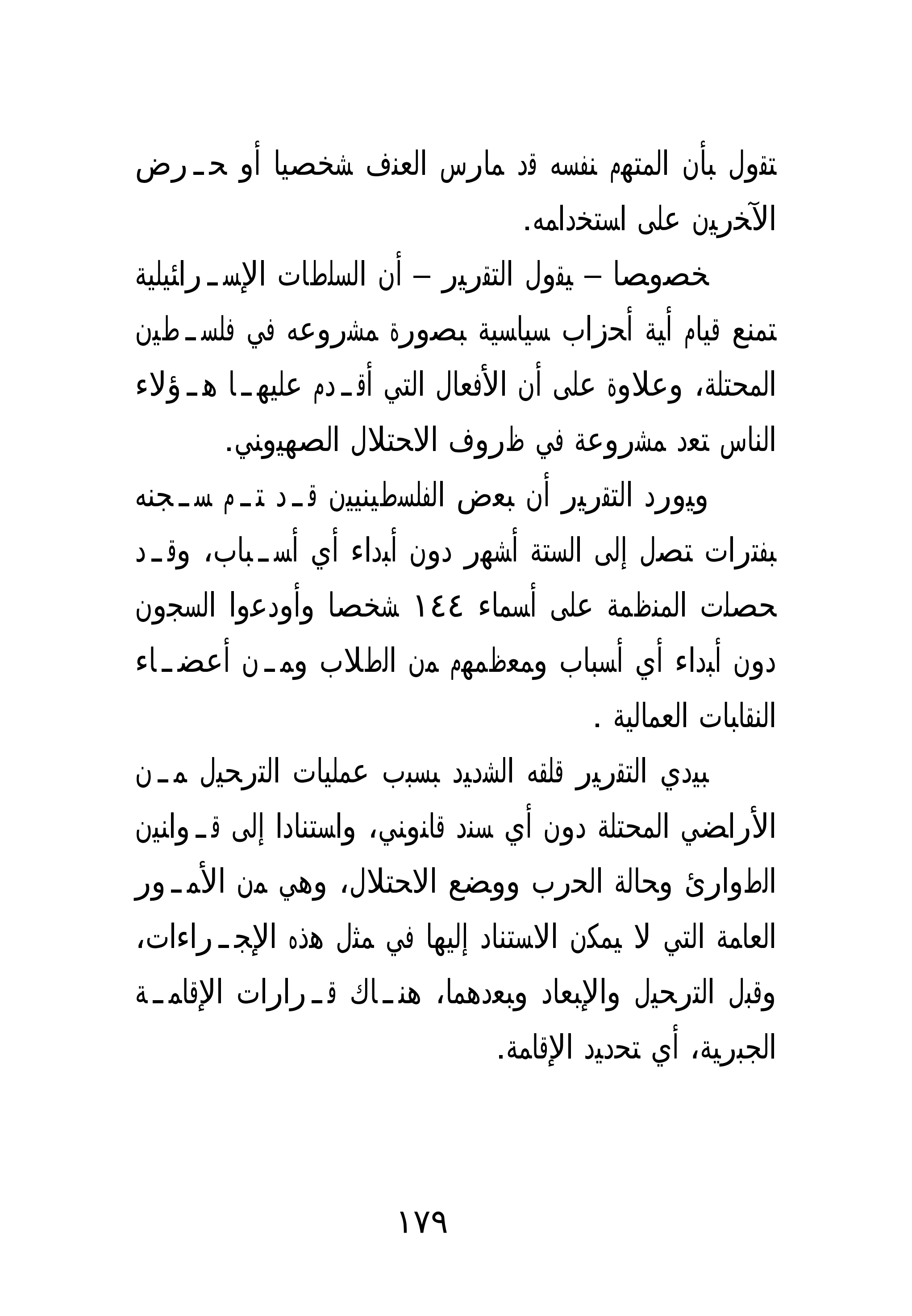
الرأى، إجراءات التوقيف الإداري وتحديد الإقامـة، إسـاءة معاملة السجناء وتعذيبهم سواء في الأراضي المحتلة أو بين عرب ٦٧ أو في قرى جنوب لبنان.

تلاحظ المنظمة عدم كفاية الإجراءات الوقائيـة التـي تمتع التعذيب وسوء المعاملة. وضعف الأجهـزة الخاصـة بالتحقيق في الشكاوي والادعاءات.

كذلك فإن سلطات العدو الإسرائيلي تحاكم المجنـدين من أبناء إسرائيل الذين يرفضون الخدمة في جـيش الـدفاع الإسرائيلي ضد أبناء شعب فلطسين وأبناء الـدول العربيـة المجاورة لإسرائيل وذلك بدافع الضمير الإنساني فقط.

ويقدم التقرير حالة سجن ثلاثة مـن مجنـدات جـيش الدفاع الإسرائيلي لمجرد أنهن رفضن أداء الخدمة العسكرية بسبب الضمير الإنساني فقط.

ويورد التقرير وقائع سجن بعض الفلسطينيين وتحديـد إقامتهم بسبب معلومات لم يتم التحقيق فيها بأنهم ينتمون إلى منظمة التحرير الفلطسينية، وقد تم هذا دون أي تحقيق عـن علاقة هؤلاء السجناء بالمنظمة ونشاطاتها، حيث لـم تكـن هناك أي أدلة موجهة ضدهم كذلك لم تكن هناك أية قـرائن

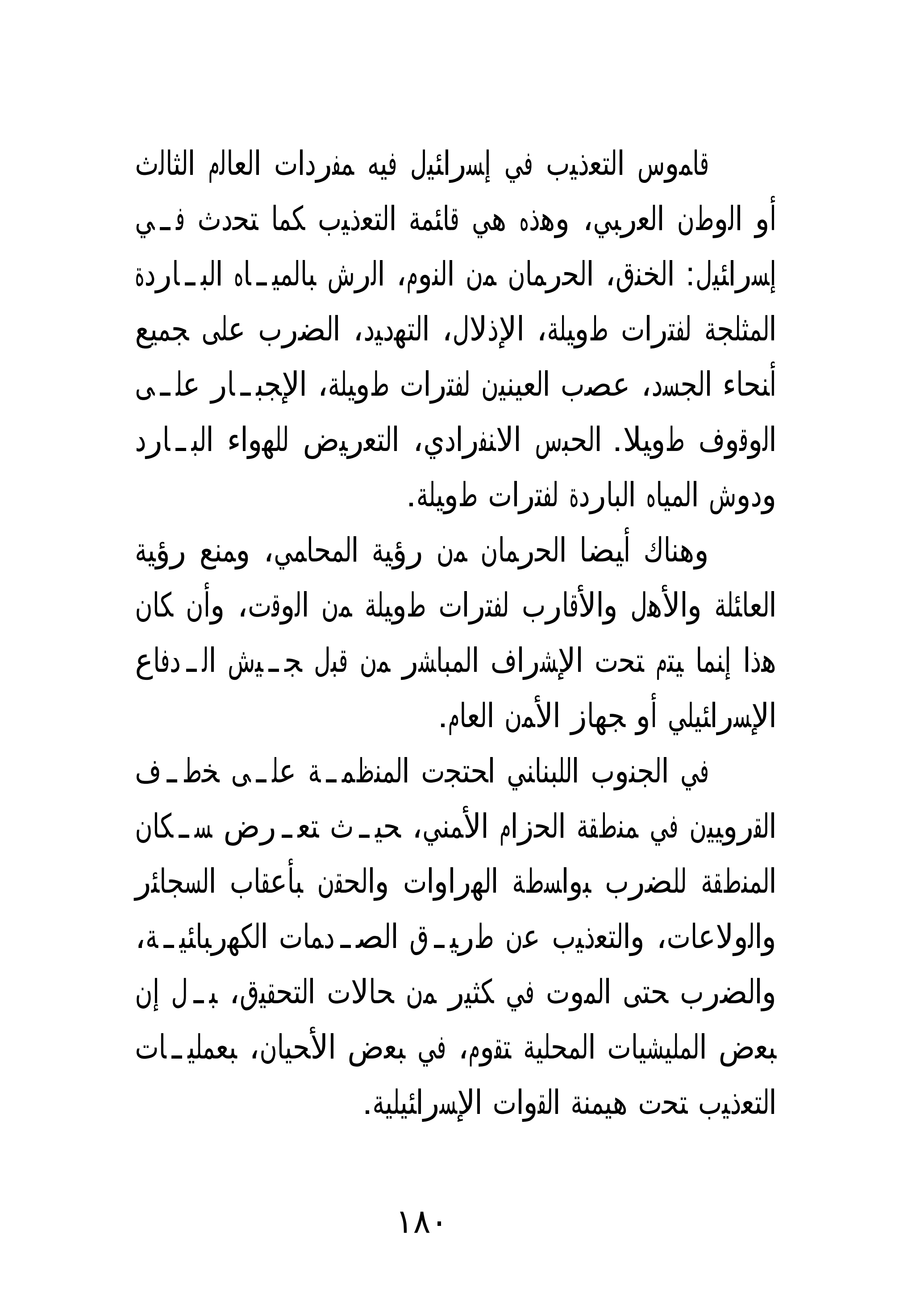


تقول بأن المتهم نفسه قد مارس العنف شخصيا أو حـرض الآخرين على استخدامه.

خصوصا – يقول التقرير – أن السلطات الإسـرائيلية تمنع قيام أية أحزاب سياسية بصورة مشروعه في فلسـطين المحتلة، وعلاوة على أن الأفعال التي أقـدم عليهـا هـؤلاء الناس تعد مشروعة في ظروف الاحتلال الصهيوني.

ويورد التقرير أن بعض الفلسطينيين قـد تـم سـجنه بفترات تصل إلى الستة أشهر دون أبداء أي أسـباب، وقـد حصلت المنظمة على أسماء ١٤٤ شخصا وأودعوا السجون دون أبداء أي أسباب ومعظمهم من الطلاب ومـن أعضـاء النقابات العمالية .

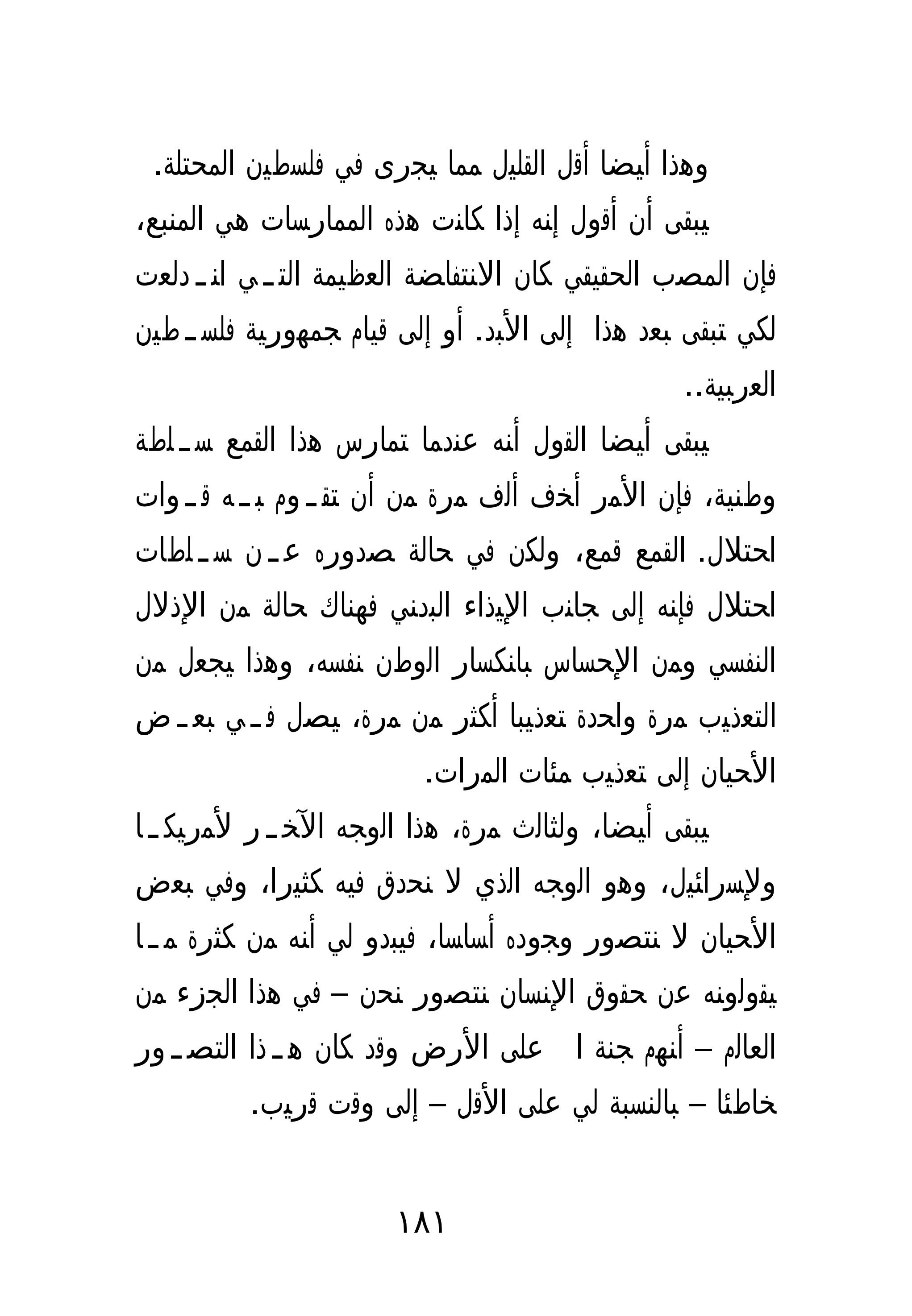
يبدي التقرير قلقه الشديد بسبب عمليات الترحيل مـن الأراضي المحتلة دون أي سند قانوني، واستنادا إلى قـوانين الطوارئ وحالة الحرب ووضع الاحتلال، وهي من الأمـور العامة التي لا يمكن الاستناد إليها في مثل هذه الإجـراءات، وقبل الترحيل والإبعاد وبعدهما، هنـاك قـرارات الإقامـة الجبرية، أي تحديد الإقامة.



قاموس التعذيب في إسرائيل فيه مفردات العالم الثالث أو الوطن العربي، وهذه هي قائمة التعذيب كما تحدث في إسرائيل: الخنق، الحرمان من النوم، الرش بالمياه الباردة المثلجة لفترات طويلة، الإذلال، التهديد، الضرب على جميع أنحاء الجسد، عصب العينين لفترات طويلة، الإجبار على الوقوف طويلا. الحبس الانفرادي، التعريض للهواء البارد ودوش المياه الباردة لفترات طويلة.

وهناك أيضا الحرمان من رؤية المحامي، ومنع رؤية العائلة والأهل والأقارب لفترات طويلة من الوقت، وأن كان هذا إنما يتم تحت الإشراف المباشر من قبل جيش الدفاع الإسرائيلي أو جهاز الأمن العام.

في الجنوب اللبناني احتجت المنظمة على خطف القرويين في منطقة الحزام الأمني، حيث تعرض سكان المنطقة للضرب بواسطة الهراوات والحقن بأعقاب السجائر والولاعات، والتعذيب عن طريق الصدمات الكهربائية، والضرب حتى الموت في كثير من حالات التحقيق، بل إن بعض المليشيات المحلية تقوم، في بعض الأحيان، بعمليات التعذيب تحت هيمنة القوات الإسرائيلية.



وهذا أيضا أقل القليل مما يجرى في فلسطين المحتلة.

يبقى أن أقول إنه إذا كانت هذه الممارسات هي المنبع، فإن المصب الحقيقي كان الانتفاضة العظيمة التـي انـدلعت لكي تبقى بعد هذا إلى الأبد. أو إلى قيام جمهورية فلسـطين العربية..

يبقى أيضا القول أنه عندما تمارس هذا القمع سـلطة وطنية، فإن الأمر أخف ألف مرة من أن تقـوم بـه قـوات احتلال. القمع قمع، ولكن في حالة صدوره عـن سـلطات احتلال فإنه إلى جانب الإيذاء البدني فهناك حالة من الإذلال النفسي ومن الإحساس بانكسار الوطن نفسه، وهذا يجعل من التعذيب مرة واحدة تعذيبا أكثر من مرة، يصل فـي بعـض الأحيان إلى تعذيب مئات المرات.

يبقى أيضا، ولثالث مرة، هذا الوجه الآخـر لأمريكـا ولإسرائيل، وهو الوجه الذي لا نحدق فيه كثيرا، وفي بعض الأحيان لا نتصور وجوده أساسا، فيبدو لي أنه من كثرة مـا يقولونه عن حقوق الإنسان نتصور نحن – في هذا الجزء من العالم – أنهم جنة ا على الأرض وقد كان هـذا التصـور خاطئا – بالنسبة لي على الأقل – إلى وقت قريب.

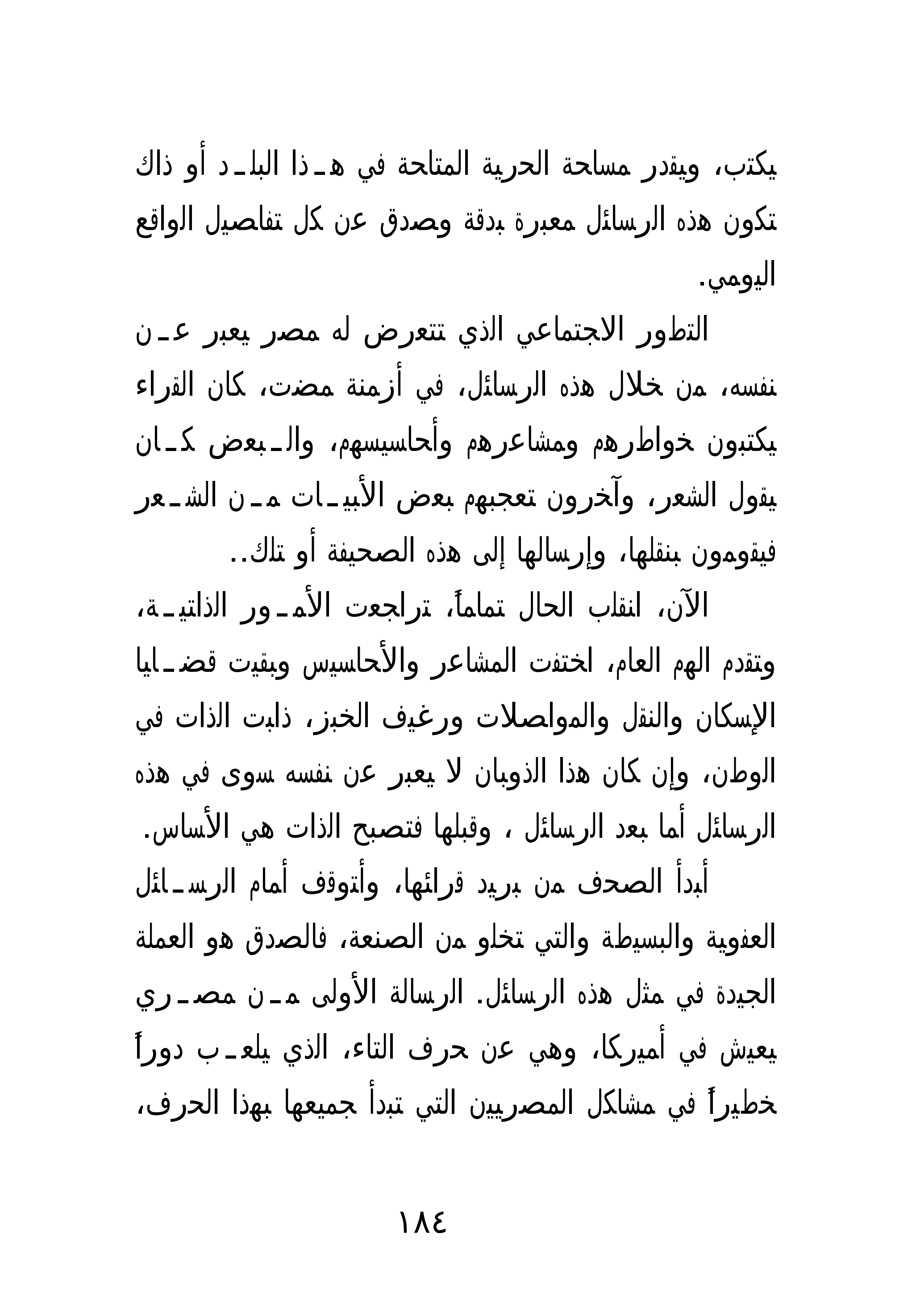
٤ فبراير ١٩٨٩

برلمان القراء

قبل أن أكون كاتباً، وقبل أن امتهن الصحافة، فأنا مدمن قراءة، وبقدر ما تسعدني لحظات الكتابة. فإن قراءة نص جيدا تصل بي – في بعض الأحيان – إلى حدود النشوة الخلاقة. وفي تصوري إن الذين يكتبون فقط تكون تجاربهم قصيرة العمر مكررة الوجه، تعيد وتزيد في القضايا نفسها، فالكتابة الجيدة إذن لا بد أن تواكبها قراءة بالدرجة نفسها من الجودة.

والقراءة ليست قراءة الكتب فقط، بل هناك قراءات أخرى قد تكون أهم من الكتب في بعض الأحيان، أتحدث عن قراءة الصحف، والصحف المصرية على وجه التحديد. ذلك إنني عند قراءتها. أبدا دائما بالباب المخصص «لبريد القراءة» وبعده مباشرة «الحوادث» التي تجرى كل يوم. وبعد البريد والحوادث كل الباقي سواء دون أي تمييز بين هذا وذاك.

بريد القراء هو «برلمان القراء» أكثر الأجزاء في الصحف صدقاً، يكتبه أناس هم في الأصل بالنسبة لنا جنود مجهولون تماماً، لكل منهم دافع ما دفعه لأن يمسك بالقلم لكي


يكتب، ويقدر مساحة الحرية المتاحة في هـذا البلـد أو ذاك تكون هذه الرسائل معبرة بدقة وصدق عن كل تفاصيل الواقع اليومي.

التطور الاجتماعي الذي تتعرض له مصر يعبر عـن نفسه، من خلال هذه الرسائل، في أزمنة مضت، كان القراء يكتبون خواطرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم، والـبعض كـان يقول الشعر، وآخرون تعجبهم بعض الأبيـات مـن الشـعر فيقومون بنقلها، وإرسالها إلى هذه الصحيفة أو تلك..

الآن، انقلب الحال تماماً، تراجعت الأمـور الذاتيـة، وتقدم الهم العام، اختفت المشاعر والأحاسيس وبقيت قضـايا الإسكان والنقل والمواصلات ورغيف الخبز، ذابت الذات في الوطن، وإن كان هذا الذوبان لا يعبر عن نفسه سوى في هذه الرسائل أما بعد الرسائل ، وقبلها فتصبح الذات هي الأساس.

أبدأ الصحف من بريد قرائها، وأتوقف أمام الرسـائل العفوية والبسيطة والتي تخلو من الصنعة، فالصدق هو العملة الجيدة في مثل هذه الرسائل. الرسالة الأولى مـن مصـري يعيش في أميركا، وهي عن حرف التاء، الذي يلعـب دوراً خطيراً في مشاكل المصريين التي تبدأ جميعها بهذا الحرف،

مثل: تضخم، تحريك الأسعار، توظيف الأموال، تهليب الأموال، تجريف الأرض الزراعية، تصحيح الأوضاع تطرف ديني، تعصب بدون داع، وتركات، وما دمنا قد بدأنا بمصري يعيش في الخارج، فها هي رسالة أخرى من مصري عائد من الخارج يقول في رسالته:

- عدت بعد غياب طويل من الخارج، وأبحث عن فانلات صوف ماركة «جيل» مقاس ٤ نصف كم، حيث أني معتاد على هذا النوع بالذات، وليس أي نوع آخر، فكان الرد في جميع المحلات «مفيش» فهل تتكرم الشركة المنتجة بإفادتي أين أجد طلبي قبل أن أتجمد من البرد.

ومن مصر الداخل يكتب شاب:

- أنا شاب عمري الآن ٣١ سنة، تخرجت من كلية التجارة سنة ١٩٨٣. وحتى اليوم لم أعمل، لا في عمل حكومي أو في قطاع خاص، هذه هي السنة السادسة وأنا جالس هكذا، منتهى الصحة، منتهى النشاط، منتهى الحيوية، لكني جالسا هكذا مثل المحالين إلى المعاش، لا بد من الوساطة، لا بد

من مكالمة تليفونية أو كارت يحمـل اسـم أحـد الشخصيات الهامة.

ولأنني من الطبقة الوسطى، وليست لدي واسطة فقـد سدت كل الأبواب في وجهي، لقد تقاعـدت قبـل أن أعمـل وأسأل: ماذا نفعل».

وتلك رسالة أخرى من أهالي قرية ميـت نمـا فـي محافظة القليوبية. يقولون أنهم تقدموا – منذ عامين – إلـى وزير الكهرباء المصري يطلب دخول الكهرباء إلى القريـة: ومع هذا لم تدخل الكهرباء، وهم يسترحمون الوزير بإدخال الكهرباء رحمة بأبنائهم الطلاب، الذي ما زالـوا يسـتعملون لمبة الجاز في عصر الكهرباء.

ويكتب مواطن سكندري من عروس البحـر الأبـيض المتوسط، يوماً بعد يوم، بدأت مقابر الإسكندرية تستقبل سكاناً جدداً من الأحياء، وبدأت تنتشر فيها عشش الصفيح، وكانت الإسكندرية خالية من هذه المشاكل ونرجو أن نتخلص منها.

وعن الاهتمام الذي قد يلقاه الحيوان ولا يحصل علـى الإنسان نقرأ:

- حضر خبير فرنسي بطائرة خاصة إلى القاهرة لنقل درفيلين من حمام سباحة أحد الفنادق لعلاجها، ويموت الإنسان جوعاً ولا تهتم به القلوب المرهفة التي تنفطر من الحزن على الحيوانات.

وهذه رسالة أخرى، يقول كاتبها:

لمناسبة عيد رأس السنة بعث إلى أصدقائي من ألمانيا هدية هي عبارة عن طرد بريد مكون من ٥ كيلو جرامات من الحلوى والبن «النسكافيه» وكانت صدمتي بالغة عندما طالبني المسؤولون في مكتب بريد طرود رمسيس بمبلغ ٤٣ جنيهاً قيمة الجمارك المستحقة، وناهيك عن سوء المعاملة الذي تعرضت له، وما يزعجني هو عدم وجود قواعد دائمة ومعلنة لمصلحة الجمارك، وبالتالي فإن مصالح الناس تترك عرضة للتقدير العشوائي من جانب الموظفين.

الطريف في الرسالة أنها موقعة من زوجة وبعد تدقيقها مكتوب أنها من طرف زوجها فلان الفلاني وعنوانه كذا،

وتلك موظفة مصرية عثرت في الطريق العام على مبلغ من المال ظهيرة اليوم الأول من هذا العام في شارع

الساحة بالقرب من محكمة عابدين «أرجو من صاحبه الحضور لتسلمه بعد أن يدلي بأوصافه، ويحضر إلى في مقر عملي».

رجل شركة يشكو:

- أقيم أنا وأسرتي في محافظة كفر الشيخ وأعمل – أمين شرطة – في مديرية أمن القاهرة، قسم المعادي، واضطر إلى السفر يومياً من كفر الشيخ إلى مقر عملي في القاهرة أناشد المسئولين في وزارة الداخلية نقلي إلى مكان قريب من منزلي.

شكوى من قانون جديد، هو قانون الإسكان، حيث تنص إحدى مواده على أن كل المساكن المؤجرة لغير غرض السكن يمكن هدمها بعد ٣٠ سنة من البناء، وذلك مقابل تعويض المستأجر، وتنفيذ هذه الفقرة سيكون له آلاف من الضحايا من مستأجري المحلات التجارية لأن التعويض المالي الذي سيحصلون عليه لن يمكنهم من شراء مكان آخر.

وتحت عنوان «عيون زمان» يكتب أحد الأطباء:

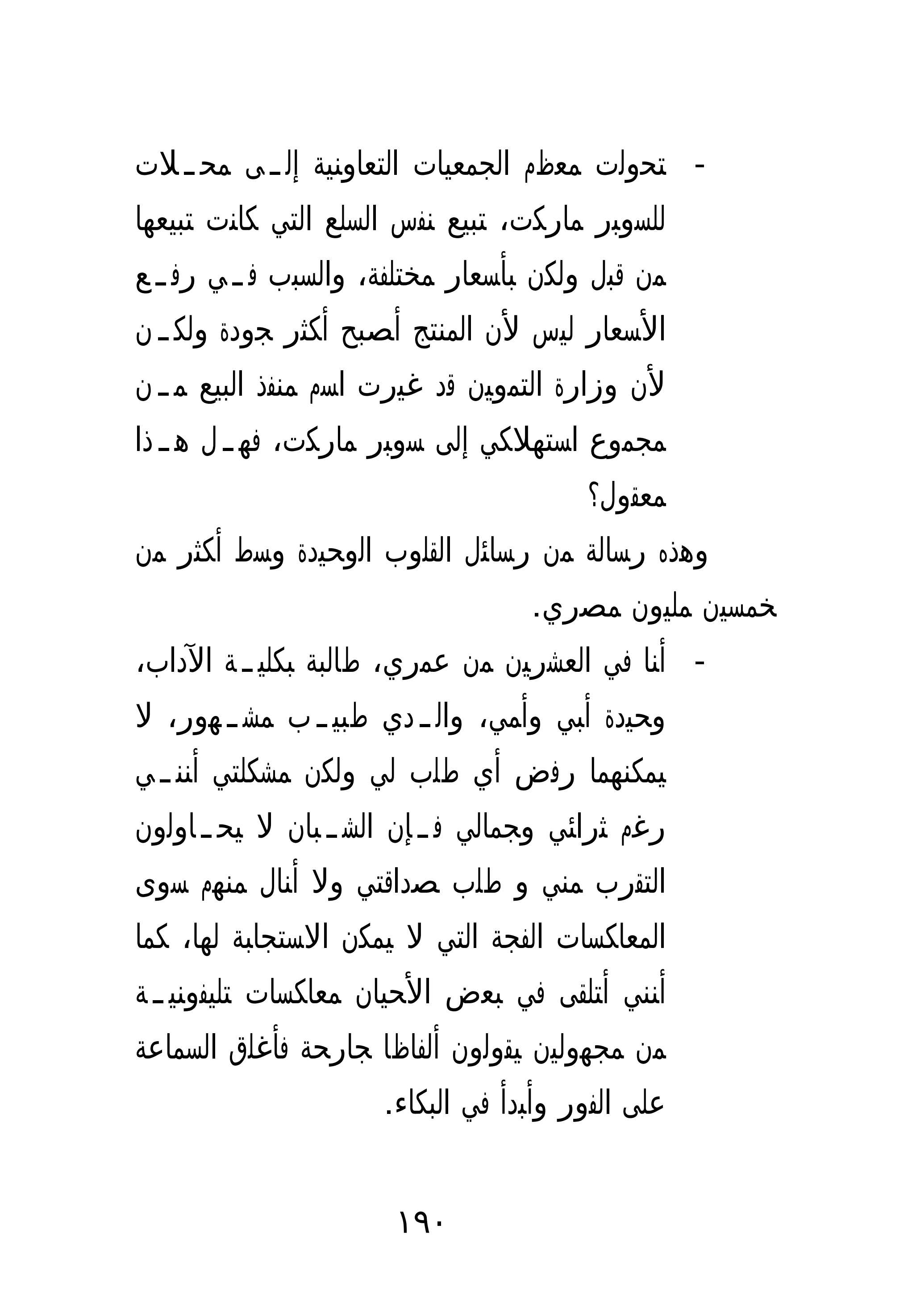
- هل نتذكر الخمسة عين التي كانت أمل كل طبيب في العصور التي ولت وهي: عزبة وعربية

وعمارة وعروسة وعيادة، لقد تذكرت أماني الزمن الجميل وأنا أشهد مؤتمر نقابة الأطباء الذي عقـد مؤخراً، وكان الموضوع الذي يناقشه هـو حـال الأطباء في مصر الذين يعانون من شظف العيش والفقر الآن، حيث يتعرض لهذه المعاناة ١٠% من أبناء المهنة في حين أن الـ ٢٠% الكبار فقط هم الذين بدون مشاكل، أما الباقون، فيمكن القول أنهم من الفقراء الآن.

وتلك أزمة مواطن مع غسالة اشتراها يقول:

- اشتريت غسالة بمبلغ ١٢٧٥ جنيهاً مصـرياً مـن صيدناوي فرع مصر الجديـدة، وبعـد الاسـتلام فوجئت بوجود كسر في مجموعـة الـدرج مـن الداخل، ذهبت إلى الشركة، فأفادوني بـأن هـذا الكسر من مسـئولية الشـركة الموزعـة، ومـن الواضح أن الأمر أصبح مسؤوليتي أنا، لم أستعمل الغسالة حتى الآن، وهكذا ضاعت فلوسي هباء.

مواطن يكتب عن الجمعيات التعاونية الاستهلاكية:



- تحولت معظم الجمعيات التعاونية إلـى محـلات للسوبر ماركت، تبيع نفس السلع التي كانت تبيعها من قبل ولكن بأسعار مختلفة، والسبب فـي رفـع الأسعار ليس لأن المنتج أصبح أكثر جودة ولكـن لأن وزارة التموين قد غيرت اسم منفذ البيع مـن مجموع استهلاكي إلى سوبر ماركت، فهـل هـذا معقول؟

وهذه رسالة من رسائل القلوب الوحيدة وسط أكثر من خمسين مليون مصري.

- أنا في العشرين من عمري، طالبة بكليـة الآداب، وحيدة أبي وأمي، والـدي طبيـب مشـهور، لا يمكنهما رفض أي طلب لي ولكن مشكلتي أننـي رغم ثرائي وجمالي فـإن الشـبان لا يحـاولون التقرب مني و طلب صداقتي ولا أنال منهم سوى المعاكسات الفجة التي لا يمكن الاستجابة لها، كما أنني أتلقى في بعض الأحيان معاكسات تليفونيـة من مجهولين يقولون ألفاظا جارحة فأغلق السماعة على الفور وأبدأ في البكاء.

وها هو من يكتب عن أموال المودعين فـي شـركات توظفي الأموال.

- نتمنى أن تفيدنا الجرائد أولاً بأول عـن مصـير أموال المودعين لدى شركات الأموال. بدلاً من أن تعرفنا على عدد الزوجات ونوع الطعـام وعـدد مرات الطلاق، من تلك الفضائح التي تعودنـا أن نقرأها لأصحاب هذه الشركات، فـإن المـودع لا يهمه ولا يعنيه إلا موعد استرداد أمواله وكيفيـة استرداده لها، أما باقي التفاصيل من عدد السيارات والملابس والزوجات وغير ذلك فلا يعني أحداً.

والرسائل لا تنتهي أبداً، إنها إبداع يتجدد كـل يـوم، ويحول هموم الناس إلى كلمات مكتوبة بلغة سهلة وبسـيطة، وتقول كل الحقيقة عن الضنى والعذاب وكل ما يتعرض لـه المواطن العادي.

لقد حان الوقت لأن أقول أن كافة هذه الرسـائل إنمـا جئت بها وقرأتها في بريد الصحف الرسمية المصـرية، أي أنها ليست من بريد صحف المعارضة، فهذا البريد لم اقترب منه بعد، حتى الآن على الأقل.

١١ فبراير ١٩٨٩م

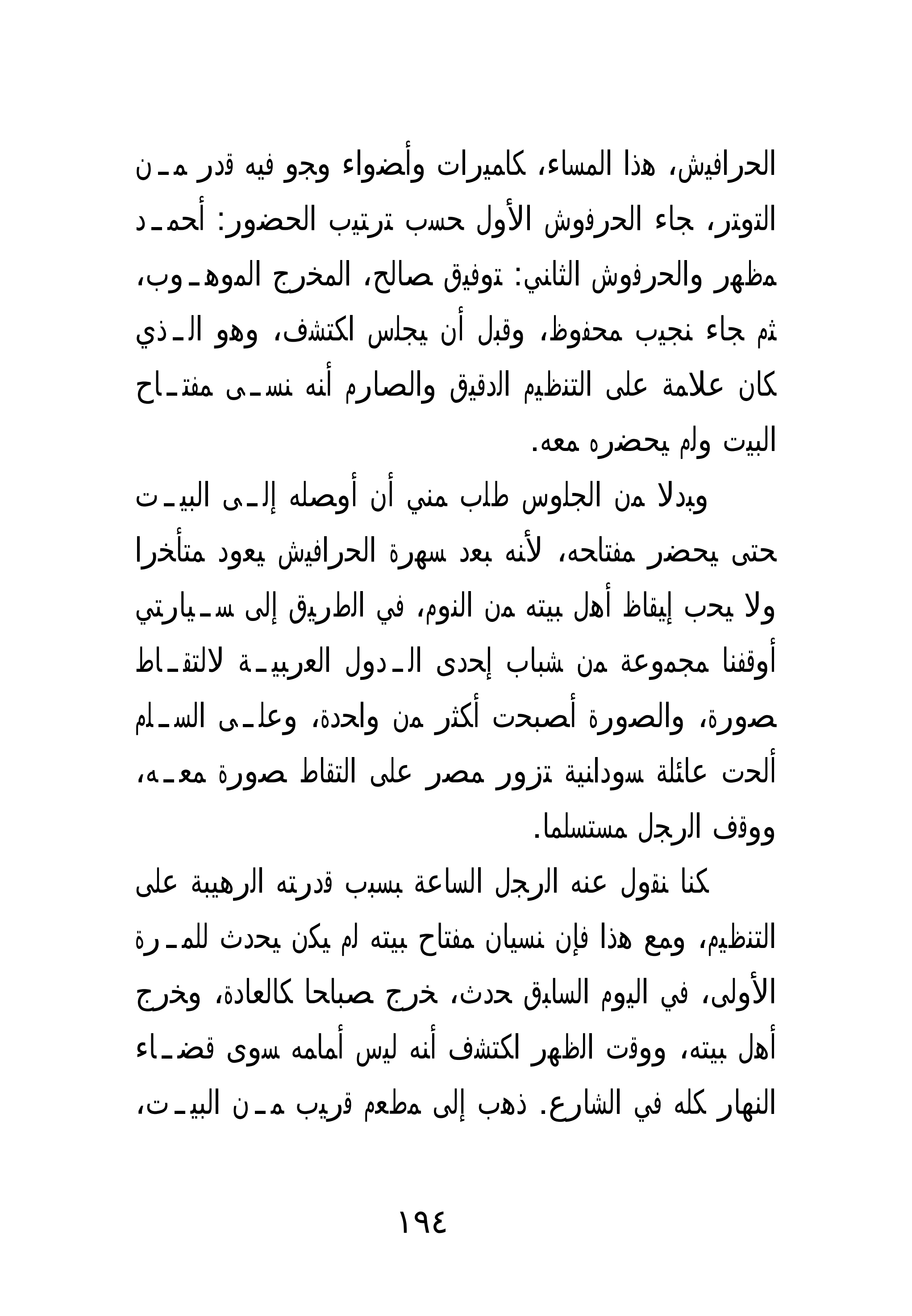
إزالة آثار عدوان نوبل

...«إن المطلوب الآن وبشكل سريع وحاسم هو إزالة آثار العدوان النوبلي عن نجيب محفوظ».. كان هذا ما قاله كاتب سكندري شاب هو سيد القناوي، الذي لم يتمكن من لقاء نجيب محفوظ منذ حصوله على نوبل، ولكي يلقاه تحايل وحضر من الإسكندرية هو وزوجته وابنه إلى كازينو قصر النيل واختار يوم الخميس مساء، حيث يلتقي نجيب عادة مع شلة الحرافيش فقط في هذا الوقت من كل أسبوع.

ورغم أن نجيب يعلن القاصي والداني أن هذا لقاء خاص، إلا أن من يذهبون إليه كثيرون.

كنا ثلاثة، كان معي الشاعرة والكاتبة الكويتية فوزية الشويش، التي ستكون خلال السنوات القادمة واحدة من مفاجآت تجديد الإبداع الشعري العربي والخروج حتى على المجددين أنفسهم، والروائية والقاصة المصرية عائشة أبو النور، التي حولت قصصها إلى أبيات جميلة من الشعر، وكنا في مقهى قصر النيل مساء الخميس بالصدفة.

اكتشفنا أن المكان مغلق لأن التليفزيون البريطاني أجره بمقابل مالي لكي يصور لقاء محفوظ مع مجموعة



الحرافيش، هذا المساء، كاميرات وأضواء وجو فيه قدر مـن التوتر، جاء الحرفوش الأول حسب ترتيب الحضور: أحمـد مظهر والحرفوش الثاني: توفيق صالح، المخرج الموهـوب، ثم جاء نجيب محفوظ، وقبل أن يجلس اكتشف، وهو الـذي كان علامة على التنظيم الدقيق والصارم أنه نسـى مفتـاح البيت ولم يحضره معه.

وبدلا من الجلوس طلب مني أن أوصله إلـى البيـت حتى يحضر مفتاحه، لأنه بعد سهرة الحرافيش يعود متأخرا ولا يحب إيقاظ أهل بيته من النوم، في الطريق إلى سـيارتي أوقفنا مجموعة من شباب إحدى الـدول العربيـة لالتقـاط صورة، والصورة أصبحت أكثر من واحدة، وعلـى السـلم ألحت عائلة سودانية تزور مصر على التقاط صورة معـه، ووقف الرجل مستسلما.

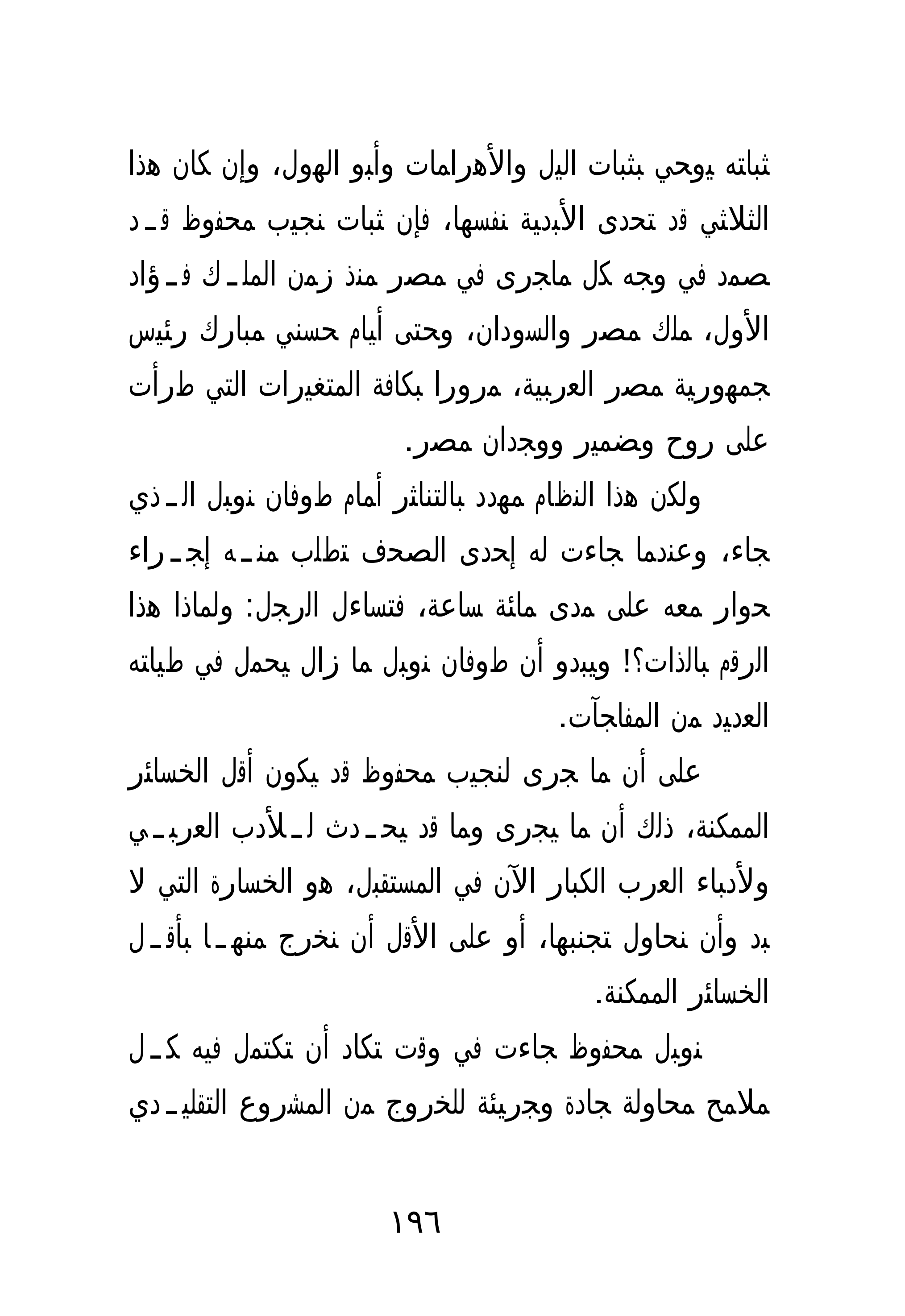
كنا نقول عنه الرجل الساعة بسبب قدرته الرهيبة على التنظيم، ومع هذا فإن نسيان مفتاح بيته لم يكن يحدث للمـرة الأولى، في اليوم السابق حدث، خرج صباحا كالعادة، وخرج أهل بيته، ووقت الظهر اكتشف أنه ليس أمامه سوى قضـاء النهار كله في الشارع. ذهب إلى مطعم قريب مـن البيـت،

تناول غذاءه، مع أن النوم بعد الغذاء من أهم الأمور له، في هذا السن، ولأنه يخشى الخروج إلى الشارع حتـى لا تبـدأ المطاردة الرهيبة، ولذلك ظل جالسا في مكان منزوي وبعيدا عن الأنظار حتى آخر النهار.

يقول نجيب محفوظ بمرارة: كنت أتصور أنـه لكـل فرحة ثمنها، وأن المطلوب مني من أجل فرحة نوبل شـهر من العمر يمضي من أجل الناس، ولكن ثلاثة أشـهر مـرت ونحن الآن في الرابع والحال يزداد سوءا يوما بعد يـوم، لا قراءة، والكتابة أصبحت حلما بعيد المدى، وحتى راحة البال لم يعد لها وجود في هذه الأيام.

قلت لنفسي، أخشى أن تكون قد كسبنا نوبل وخسـرنا أنفسنا وأول الخسائر هذا الرجل الذي صمد أكثر من سبعين عاما، في وجه كل المتغيرات والإغـراءات الرهيبـة التـي تعرضت لها مصر، كان نظام حياته هو حصنه الأمين الذي تكسرت عليه كل الأعاصير والمفاجآت.

منذ أن بدأ هذا الرجـل فـي الكتابـة فـي أواخـر العشرينيات من هذا القرن، وحتى الثالث عشر من تشـرين «أكتوبر» الماضي، وهو ثابت في مواجهة كافة المتغيـرات،



ثباته يوحي بثبات النيل والأهرامات وأبو الهول، وإن كان هذا الثلاثي قد تحدى الأبدية نفسها، فإن ثبات نجيب محفوظ قد صمد في وجه كل ماجرى في مصر منذ زمن الملك فؤاد الأول، ملك مصر والسودان، وحتى أيام حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية، مرورا بكافة المتغيرات التي طرأت على روح وضمير ووجدان مصر.

ولكن هذا النظام مهدد بالتناثر أمام طوفان نوبل الذي جاء، وعندما جاءت له إحدى الصحف تطلب منه إجراء حوار معه على مدى مائة ساعة، فتساءل الرجل: ولماذا هذا الرقم بالذات؟! ويبدو أن طوفان نوبل ما زال يحمل في طياته العديد من المفاجآت.

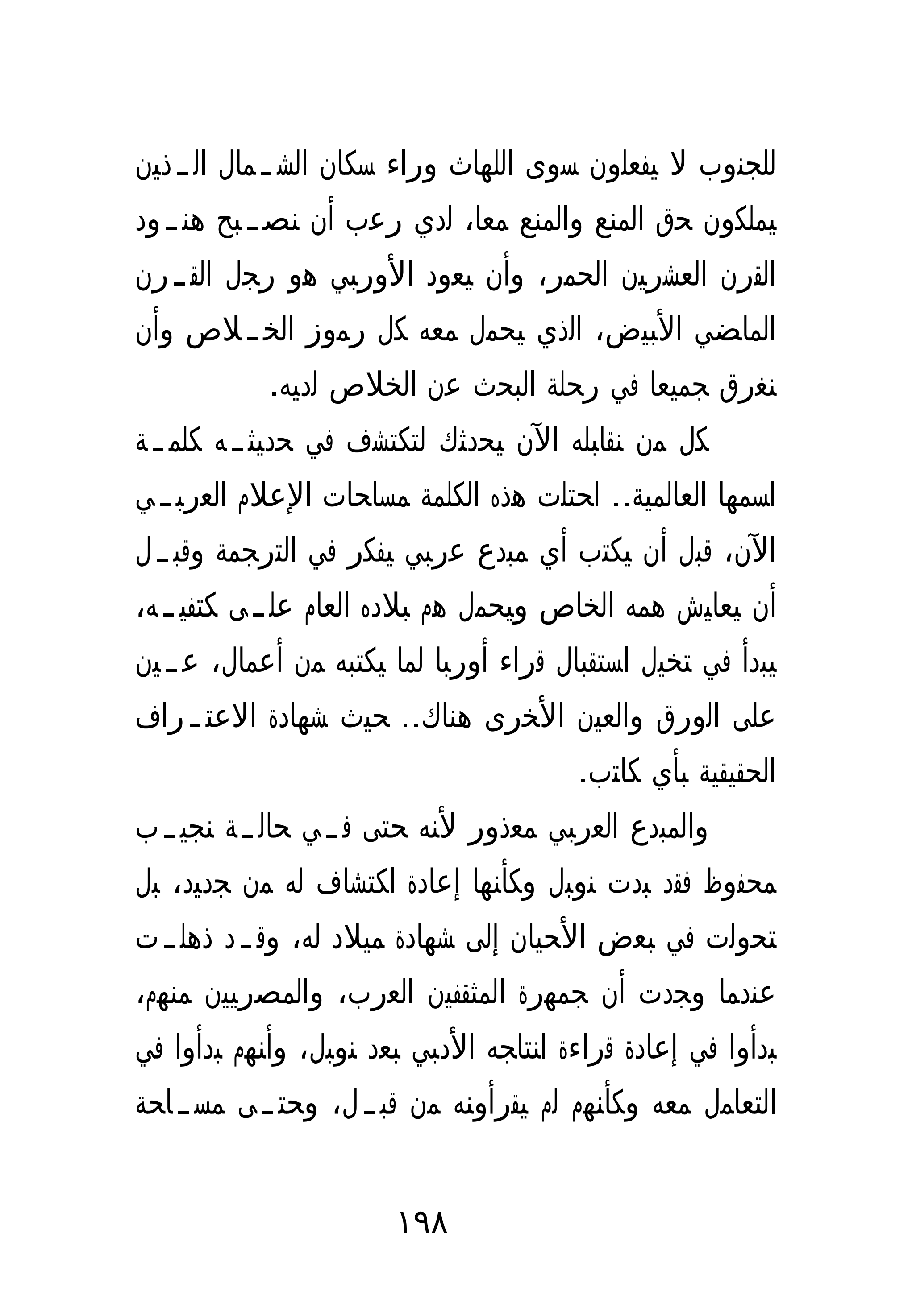
على أن ما جرى لنجيب محفوظ قد يكون أقل الخسائر الممكنة، ذلك أن ما يجرى وما قد يحدث للأدب العربي وللأدباء العرب الكبار الآن في المستقبل، هو الخسارة التي لا بد وأن نحاول تجنبها، أو على الأقل أن نخرج منها بأقل الخسائر الممكنة.

نوبل محفوظ جاءت في وقت تكاد أن تكتمل فيه كل ملامح محاولة جادة وجريئة للخروج من المشروع التقليدي

في الكتابة الروائية العربية، وهي المحاولة التي بـدأت بعـد زلزال ١٩٦٧وحتى الآن، فعلا هناك جهد خارق للخروج من تحت عباءة المشروع الكلاسيكي في الكتابة الروائية العربية كلها، وأخشى ما أخشاه أن تشكل نوبل هذه انتكاسـة لهـذا المشروع كله، لدي حالة من الرعب أن نفكر جميعا بأسلوب، ما دامت هذه الطريقة قد جاءت بنوبل، فلا بد مـن الكتابـة بنفس الطريقة، حتى تكون هناك نوبل ثانية وثالثة ورابعة في الزمن القادم، وأي كتابة تبدأ وفق شروط تأتي مـن خـارج العملية الإبداعية نفسها، تبدو مثل عمليات الإجهاض.

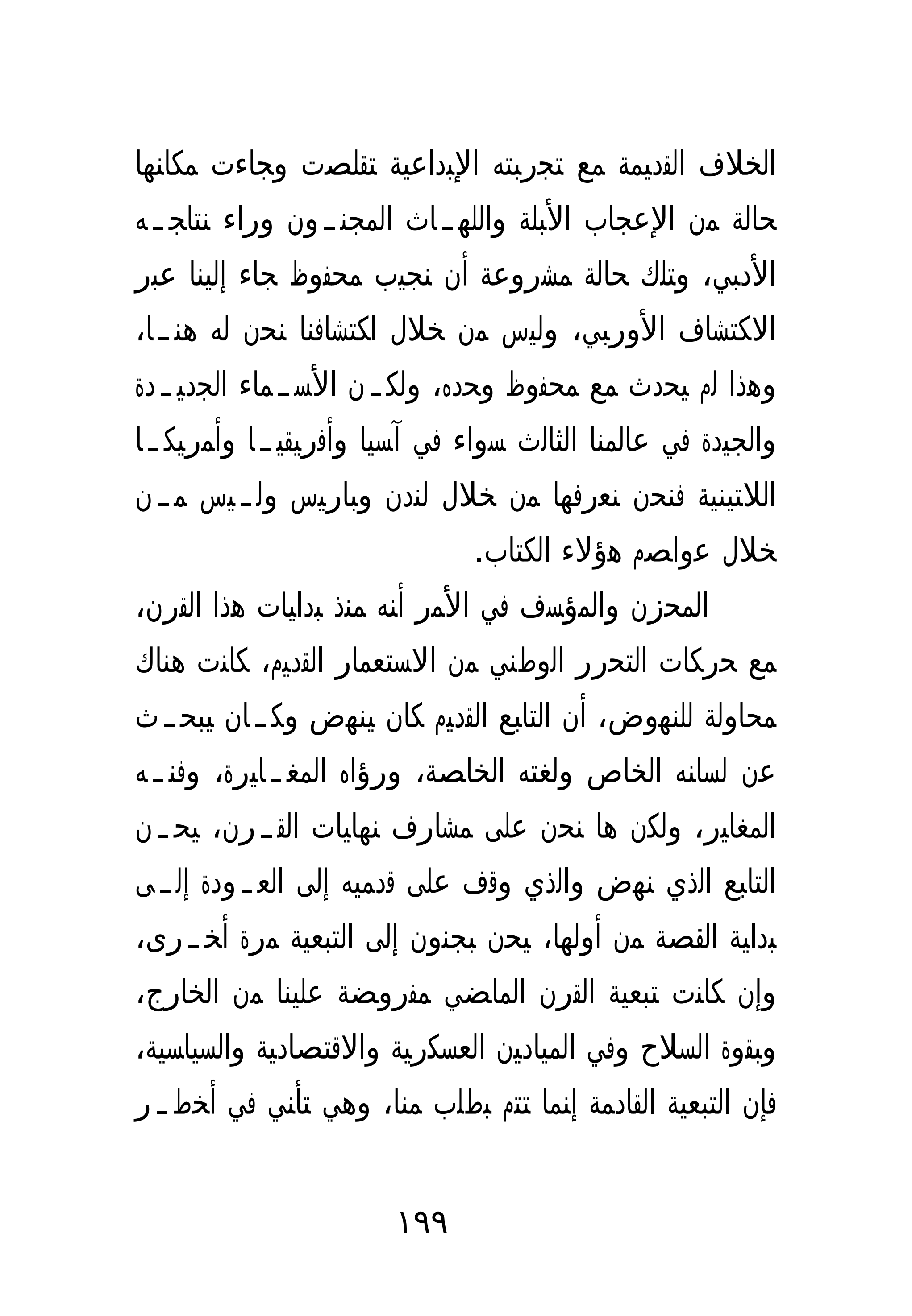
كانت لنا جميعا تحفظات سياسية سابقة علـى نوبـل وجائزته، ولكن ما أن جاءت لنا، حتى عقدنا معها صـلحا، كل واحد جعله صلحه المنفرد معها، وحولناها إلى أول كلمة في الكون وآخر مفردات قواميسنا جميعا، وكان هذا التحول مأساويا بالنسبة لنا جميعا وهو لصالح نوبل ولكن ضد كـل المبدعين العرب ولا أستثنى منهم أحدا، بما في ذلك كاتـب هذه السطور نفسه.

جاءت نوبل إلى مصر بعد أن أصبحت مصر غربية، أو هكذا يحاولون لها، وأخشى أن نتحول جميعا إلى سـكان


للجنوب لا يفعلون سوى اللهاث وراء سكان الشمال الذين يملكون حق المنع والمنع معا، لدي رعب أن نصبح هنود القرن العشرين الحمر، وأن يعود الأوربي هو رجل القرن الماضي الأبيض، الذي يحمل معه كل رموز الخلاص وأن نغرق جميعا في رحلة البحث عن الخلاص لديه.

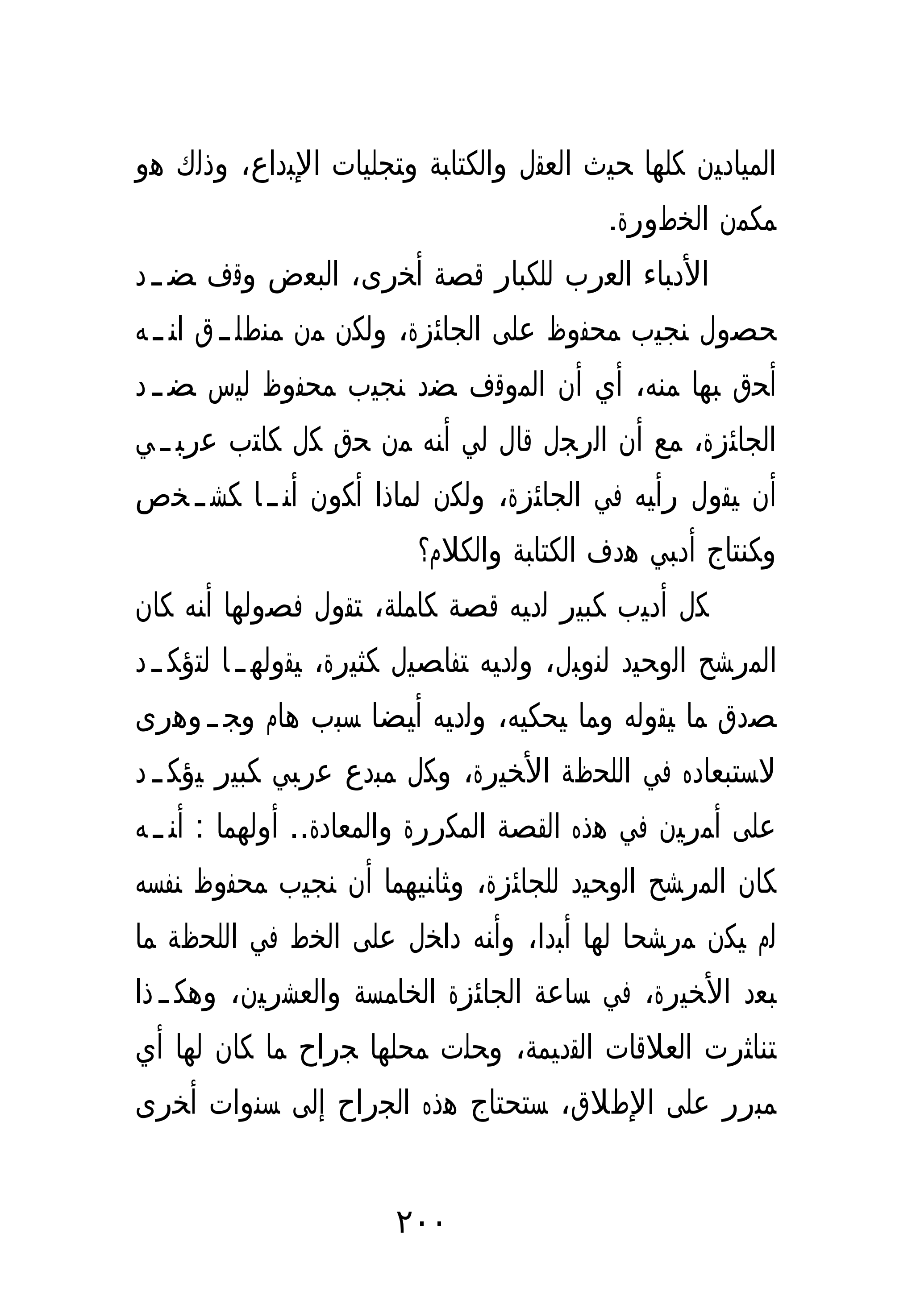
كل من نقابله الآن يحدثك لتكتشف في حديثه كلمة اسمها العالمية.. احتلت هذه الكلمة مساحات الإعلام العربي الآن، قبل أن يكتب أي مبدع عربي يفكر في الترجمة وقبل أن يعايش همه الخاص ويحمل هم بلاده العام على كتفيه، يبدأ في تخيل استقبال قراء أوربا لما يكتبه من أعمال، عين على الورق والعين الأخرى هناك.. حيث شهادة الاعتراف الحقيقية بأي كاتب.

والمبدع العربي معذور لأنه حتى في حالة نجيب محفوظ فقد بدت نوبل وكأنها إعادة اكتشاف له من جديد، بل تحولت في بعض الأحيان إلى شهادة ميلاد له، وقد ذهلت عندما وجدت أن جمهرة المثقفين العرب، والمصريين منهم، بدأوا في إعادة قراءة انتاجه الأدبي بعد نوبل، وأنهم بدأوا في التعامل معه وكأنهم لم يقرأونه من قبل، وحتى مساحة



الخلاف القديمة مع تجربته الإبداعية تقلصت وجاءت مكانها حالة من الإعجاب الأبلة واللهـاث المجنـون وراء نتاجـه الأدبي، وتلك حالة مشروعة أن نجيب محفوظ جاء إلينا عبر الاكتشاف الأوربي، وليس من خلال اكتشافنا نحن له هنـا، وهذا لم يحدث مع محفوظ وحده، ولكـن الأسـماء الجديـدة والجيدة في عالمنا الثالث سواء في آسيا وأفريقيـا وأمريكـا اللاتينية فنحن نعرفها من خلال لندن وباريس ولـيس مـن خلال عواصم هؤلاء الكتاب.

المحزن والمؤسف في الأمر أنه منذ بدايات هذا القرن، مع حركات التحرر الوطني من الاستعمار القديم، كانت هناك محاولة للنهوض، أن التابع القديم كان ينهض وكـان يبحـث عن لسانه الخاص ولغته الخاصة، ورؤاه المغـايرة، وفنـه المغاير، ولكن ها نحن على مشارف نهايات القـرن، يحـن التابع الذي نهض والذي وقف على قدميه إلى العـودة إلـى بداية القصة من أولها، يحن بجنون إلى التبعية مرة أخـرى، وإن كانت تبعية القرن الماضي مفروضة علينا من الخارج، وبقوة السلاح وفي الميادين العسكرية والاقتصادية والسياسية، فإن التبعية القادمة إنما تتم بطلب منا، وهي تأتي في أخطـر


الميادين كلها حيث العقل والكتابة وتجليات الإبداع، وذلك هو مكمن الخطورة.

الأدباء العرب للكبار قصة أخرى، البعض وقف ضد حصول نجيب محفوظ على الجائزة، ولكن من منطلق انه أحق بها منه، أي أن الموقف ضد نجيب محفوظ ليس ضد الجائزة، مع أن الرجل قال لي أنه من حق كل كاتب عربي أن يقول رأيه في الجائزة، ولكن لماذا أكون أنا كشخص وكنتاج أدبي هدف الكتابة والكلام؟

كل أديب كبير لديه قصة كاملة، تقول فصولها أنه كان المرشح الوحيد لنوبل، ولديه تفاصيل كثيرة، يقولها لتؤكد صدق ما يقوله وما يحكيه، ولديه أيضا سبب هام وجوهرى لاستبعاده في اللحظة الأخيرة، وكل مبدع عربي كبير يؤكد على أمرين في هذه القصة المكررة والمعادة.. أولهما : أنه كان المرشح الوحيد للجائزة، وثانيهما أن نجيب محفوظ نفسه لم يكن مرشحا لها أبدا، وأنه داخل على الخط في اللحظة ما بعد الأخيرة، في ساعة الجائزة الخامسة والعشرين، وهكذا تناثرت العلاقات القديمة، وحلت محلها جراح ما كان لها أي مبرر على الإطلاق، ستحتاج هذه الجراح إلى سنوات أخرى

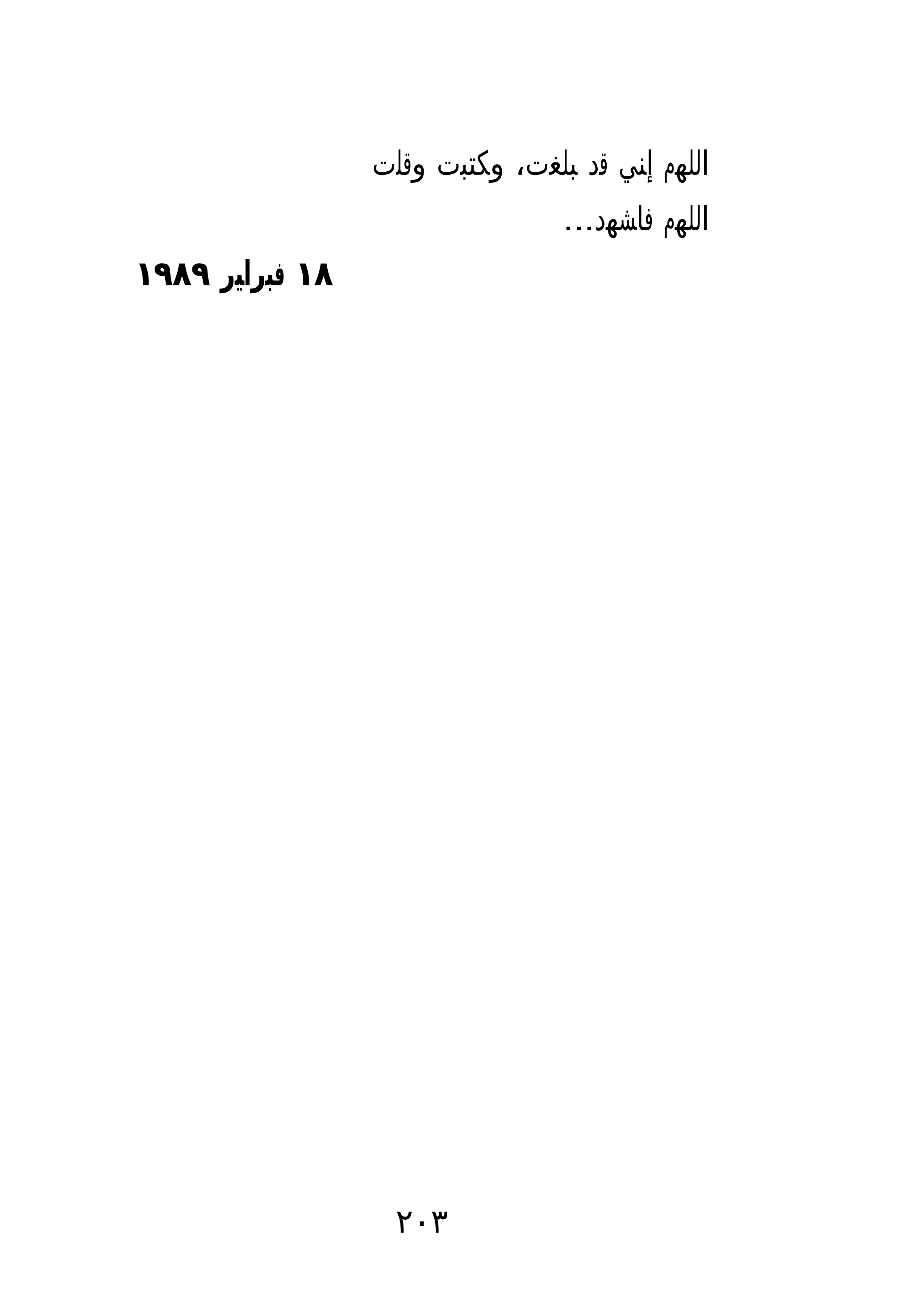
قادمة حتى تندمل، وقد جاءت هذه الجراح في فترة من أحلك فترات الشعور العربي العام بالانتماء والارتباط والمشاركة.

يبدو أنه لم يكن هناك مفر من دخول جماهير القـراء ساحة اللعبة، وهذه الجماهير التي أحبـت نجيـب محفـوظ، وعرفت رواياته من السينما والتليفزيون والمسرح، وفرحـت بدون حدود بالجائزة باعتبارها انتصاراً جـاء فـي أزمنـة الانكسار العربية الرهيبة، هذه الجماهير بدأت – ولأول مرة – تقرأ نجيب محفوظ، وإن كانت البداية هي الأعجب ولكـن في ظل تيار سلفي قوي، فإن عملية القراءة قد تحولت بقدرة قادر إلى محاولة للبحث عن أسباب أخرى لمنح الجائزة لهذا الرجل، السلفيون في مصر يكتبون ويقولون في الليل والنهار أن الغرب الصليبي أعطى نوبل لكاتـب يعـادي الإسـلام، وأصبح هناك موقف من أدبه يرفضه حتى دون قراءتـه، أو الاقتراب منه، وتلك – في حد ذاتها – جبهة أخـرى جديـدة كانت مغلقة من قبل، ولكنها فتحت مؤخرا.

هذه ثالث مرة أكتب في هذا المكان عن نوبل نجيـب محفوظ، أكتب هذه المرة، بعد أن راحت السـكرة وجـاءت الفكرة كما يقولون في الأمثال الشعبية، وأنا أكتب هذه المرة

احذر نفسي والآخرين من الإصابة بهذا المرض الفتاك الذي أسمه «أعراض نوبل» .. قبل أن يأخذنا الطوفان جميعا ولا يبقى لنا من نوبل في النهاية سوى خسائرها بعد أن فشلنا في الحصول على مكسب واحد منها.

بعد هزيمة ٦٧ المدوية رفع عبد الناصر العظيم في مصر والأمة العربية شعاره الوطني «إزالة آثار العدوان» وهو الشعار الذي ما زال صالحا حتى هذه اللحظة، باعتبار أن العدوان الغربي والأمريكي والصهيوني ما زال مستمر حتى هذه اللحظة، وهدفه الجوهري الحلم العربي المشروع، والآن لا بد من استعادة شعار عبد الناصر العظيم ولكن من أجل إزالة آثار عدوان نوبل على الأدب العربي، أكتب هذا الكلام الذي يحمل في طياته العديد من المتاعب، قبل أن يفوت الوقت.. وتبدأ كل الجمل العربية بكلمة «يا ريت» كلمة «يا ريت» أو «ليتنا» قد ثبت لنا جميعا أنها لم تعمر بيتا واحدا من بيوتنا العربية المهدمة، والتى ما زالت تعانى من آثار العدوان عليها، هذا العدوان الذي استمر مع تراجع شعار – مجرد شعار – إزالة آثاره، حتى لو كانت هذه الإزالة في نفوسنا فقط، وذلك هو أضعف الإيمان.



اللهم إني قد بلغت، وكتبت وقلت

اللهم فاشهد...

١٨ فبراير ١٩٨٩

الحزن المقيم

للضحك في حياة الفلاح المصري طقوس خاصة، مـا أن يضحك حتى يتوقف في منتصف الضحكة، ثـم يمسـح وجهه بيديه وينظر إلى السماء قائلا: اللهم أجعله خيرا.. في طفولتي البعيدة، سألت والدي عن السر في ذلك.. فقال لـي: إن الفلاح عندما يفرح، يتوقع الحزن بعد الفرح، ولذلك فهـو يطلب الخير، خوفا من الأحزان القادمة.

في طفولتي كنت أرى الحزن صـديقا دائمـا للنـاس والفرح غريبا عابراً، الحزن هو القاعدة، والفرح اسـتثناء لا يتوقف طويلا من الوقت.

علمتني حياة القرية المصرية أن الدنيا عندما تعطـي باليمين فلا بد وأن تأخذ بالشمال ، وعلى الرغم من كل مـا تعلمناه، وكل عشقنا للعلم، فإن هذا الميراث القـديم يشـكل المناطق الخضراء في حبات قلوبنا.

منذ زمن القرية وأنا أعيش نفس هـذه الحالـة مـن التوجس، ما أن تقبل الدنيا حتى أنتظر الأدبار، ما أن تـأتي حتى أتوقع ما بعد هذا على الفور، لدرجة أن الأمرين معـا صارا متلازمين معي بصورة غريبة..

هذا الأسبوع صدر الجزء الأول من أعمالي الكاملة وهو عبارة عن ثلاثية: «شكاوي المصري الفصيح» الجزء الأول منها عنوانه: نوم الأغنياء، والثاني المزاد، والثالث أرق الفقراء، والرواية عن مؤلف مأزوم، يقف بين الرئيس الذي باع الوطن كله في مزاد علني وبين الناس نفسها، التي عرضت للبيع.

الرواية عن الوضع المصري الرهيب الذي اسمه: سكان القبور، في تلك الأيام الفاصلة من حياة الأمة العربية عندما قرر أنور السادات أن يسافر إلى القدس.

وعندما صدرت الأجزاء الثلاثة في السنوات الثماني الماضية، إنما صدرت عن أكثر من دار، وفي أكثر من دولة عربية، وكان حظها بالغ السوء، إذا صدر الجزء الأول منها عشية إجراءات سبتمبر التى سبقت اغتيال السادات مباشرة، فتاه العمل تماما.. في ظلال هذا الحدث العام.

وعندما دعانا الصديق - أنا وجمال الغيطاني - إبراهيم المعلم، صاحب دار الشروق، إلى وليمة فاخرة وعرض علينا معا، بشكل قريب من المفاجأة أن يصدر لنا

أعمالنا الكاملة، فوجئت في البداية لدرجة أنني طلبت مهلة ، من أجل التفكير.

كنت أخشى من العرض، لأنني – وكذاك جمال – لـم نقل كل ما لدينا، ما زال أمامنا متسع من الوقت وربما كـان ما قدمناه حتى الآن مدخلا إلى عالم كل منـا الروائـى، إن الأعمال الكاملة، من المفروض ألا تصدر إلا بعد أن يصمت الكاتب تماماً، ويكون لديه يقين بهذا الصمت، أو أن يرحـل عن عالمنا، أي أن الأعمال الكاملة تصـدر عنـدما يكـون الكاتب قد قال الكلمة الأخيرة.

على الجانب الآخر، كانت هنـاك إغـراءات كثيـرة فأعمالي وكذلك أعمال رفيق رحلتي وشقيق دربي، متنـاثرة، صدرت في حالة من الشتات المحزن.

عمل هنا، وآخر هناك، وبعض هذه الأعمال نفذت ولم يعد لها وجود أبدا، والبعض الثالث صـدر خـارج مصـر وهكذا.

ثم إن أبناء جيلنا من الشعراء يبدون أكثر حظا منا، ما أن يصدر الشاعر أربعة دواوين أو خمسة حتى نجد مجلـدا

ضخما أنيقا عليه صورة مبتسمة له، وفوق الصـورة اسـمه وتحتها عبارة: الأعمال الكاملة.. فلم لا نفعل هذا؟!!

كان في الموضوع قدر من المغامرة، ولكننا قبلنا معـا – أنا وجمال – وبعد أشهر من توقيع العقد، جاء من بيروت مجلة فخم وأنيق، يقع في أكثر من ألف صفحة عبـارة عـن ثلاثيتي: شكاوي المصري الفصيح، لها جلد جميل وغـلاف فني رائع صممه عبقري الأغلفة في المكتبة العربية: حلمـي التوني، وفي نفس الوقت كان الجزء الأول من أعمال جمال الغيطاني هو رائعته الفريدة: كتاب التجليات.

ولأن إبراهيم المعلم ليس تاجرا ولكنه ناشر يحب عمله ويعشق الكتاب، ويعتبر أن الكتاب الجديد عزيز عليـه مثـل ابنه تماماً، ما أن وصلت النسخة الأولى من المجلـد، حتـى سارع يبحث عنى في أرجاء القاهرة، إلى أن وجـدني مـع الشاعر العربي الكبير عبد الوهاب البياتي حيـث أعطـاني النسخة.

الفرح غريب على، واللحظات التي سعدت فيها نادرة الحدوث، ولكن سعادتي في هذه الليلة كـان مـن الصـعب وصفها فيها. هي لحظة تقول إن عرق العمر لم يذهب هباء،

وأنه لن يصح سوى الصحيح، وأننا قد نظلم بعض الوقـت، لكن الإنصاف في انتظار من يعمل، مهما تأخر عنه.

ومن كثرة الفرح الطارئ نسيت أن أتوقف لكي أقول: اللهم أجعله خيرا.. تذكرت هذا في اليوم التالي عندما جـاء إلى مصر من فلسطين المحتلة، الصديق، الناقد الأدبي نبيـه القاسم وهو ابن شاعر السجن الفلسطيني سميح القاسم، كـان يحمل معه روايتي: «الحرب في بر مصر» مترجمـة إلـى العبرية/ وقد صدرت عن دار «مفراس» للنشر في تل أبيب.

كانت هذه اللحظة هي أول علاقة لـي بـالأمر، ولـم يتوقف الأمر عند هذا الحد، ولكنه قال لي، أن نفـس الـدار تترجم الآن روايتي: «يحدث في مصر الآن» إلى العبريـة، لكي تنشرها بنفس الطريقة، تذكرت على الفور الليلة السابقة، وتذكرت أنني نسيت ترديد الجملة التي يرددونها في قريتـي البعيدة اللهم أجعله خيرا.

كانت أمي تقول دائما: آه من الدنيا إن أقبلت، إنها في أدبارها تأخذ معها أكثر مما جاءت بـه، وهـا هـو العـدو الإسرائيلي يحاول أن يغتصب التطبيع، في ميدان الثقافة، لم يكفـه اغتصـاب الأرض ومحاولـة اغتصـاب العـرض،

واغتصاب الهواء العربي، الذي أصبح معفر بـالهوان، ولأن هذا العدو يدرك ويعرف جيدا، أن الثقافة هي السلاح الأخير الباقي لأمة العرب، فقد قرر الدخول عليها.

ما حدث معي لم يكن الحادث الأول، ولن يكون الأخير أبدا، عمليات سطو منظمة تتم على أدبنـا، والهـدف مـن الترجمة ليس التعريف بأدبنا ولا تقديمه للعالم، ولكن فقط أخذ هذا الأدب كعينة من أجل معرفتنا، فإسرائيل تعرف جيدا أن كل عربي صميم هو بالنسبة لهـا خصـم سياسـي وعـدو حضاري، على الرغم من كافة مظاهر السلام.

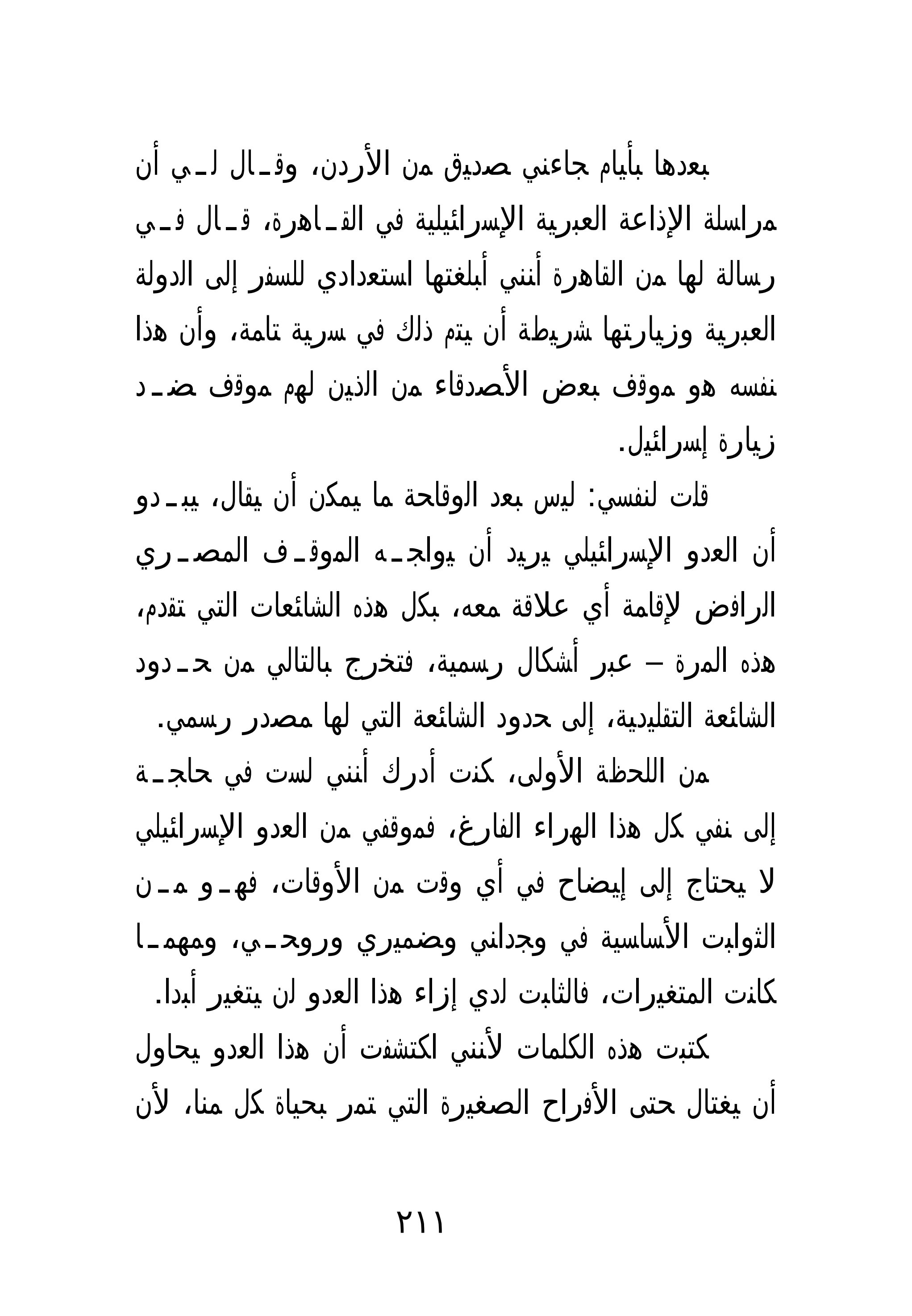
وعندما أرادت «الأهالي» صوت كل المواطنين فـي مصر، وصحيفة اليسار المصري أن تقف معي، كتبـت أن العدو الإسرائيلي ترجم روايتي دون إذن مني، وقد حزنـت في نفسي من هذه الصياغة، لأنني أرفض أي تعامل مع هذا العدو – مهما كانت الظروف والمبررات – وحتى لو قامـت دولة فلسطين العربية وتعامل كل العرب وكل الفلسطينيين مع هذا العدو، وحتى لو وجدت نفسي أننى الرافض الوحيد لـه، فسأظل الرافض الوحيد إلى الأبد.

لقد رجاني سميح القاسم وإميل حبيبي ألا أحول الأمـر إلى مشكلة وقد نظرت إلى هذا الرجاء في سياق موقفهما في الداخل، الذي يختلف تماما عن الموقف في مصر، بعد جرح كامب ديفيد.

ففي مصر لا بد من التنديد بهذا الموقف الإسـرائيلي الذي يتساوى في نظري مع احتلال الجنوب اللبناني وضرب الانتفاضة ونسف المفاعل النووي العراقي ونهب خيـرات – سيناء ومحاولات تهويد الضفة وقطاع غزة.

في نفس الأسبوع أبلغني صديق أن إذاعـة اسـرائيل العربية أذاعت أنني عينت مراسلا لمجلة «٤٨» في القاهرة، وهي مجلة فلسطينية يصدرها اتحاد الكتـاب العـرب فـي فلسطين المحتلة ويرأس تحريرها سميح القاسم.

وعلى الرغم من أن التعامل مع الفلسطينيين في الداخل شرف وطني قبل أي اعتبار آخر، إلا أن الجميـع يعـرف، أنني قد أقطع يدي قبل أن تخط على أي خطاب اسم الدولـة العبرية، وأن يبتر لساني، قبل أن يرفـع سـماعة التليفـون ويطالب رقما مسبوقا بالرقم الدولي، لعاصمة الدولة العبرية.



بعدها بأيام جاءني صديق من الأردن، وقـال لـي أن مراسلة الإذاعة العبرية الإسرائيلية في القـاهرة، قـال فـي رسالة لها من القاهرة أنني أبلغتها استعدادي للسفر إلى الدولة العبرية وزيارتها شريطة أن يتم ذلك في سرية تامة، وأن هذا نفسه هو موقف بعض الأصدقاء من الذين لهم موقف ضـد زيارة إسرائيل.

قلت لنفسي: ليس بعد الوقاحة ما يمكن أن يقال، يبـدو أن العدو الإسرائيلي يريد أن يواجـه الموقـف المصـري الرافض لإقامة أي علاقة معه، بكل هذه الشائعات التي تقدم، هذه المرة – عبر أشكال رسمية، فتخرج بالتالي من حـدود الشائعة التقليدية، إلى حدود الشائعة التي لها مصدر رسمي.

من اللحظة الأولى، كنت أدرك أنني لست في حاجـة إلى نفي كل هذا الهراء الفارغ، فموقفي من العدو الإسرائيلي لا يحتاج إلى إيضاح في أي وقت من الأوقات، فهـو مـن الثوابت الأساسية في وجداني وضميري وروحـي، ومهمـا كانت المتغيرات، فالثابت لدي إزاء هذا العدو لن يتغير أبدا.

كتبت هذه الكلمات لأنني اكتشفت أن هذا العدو يحاول أن يغتال حتى الأفراح الصغيرة التي تمر بحياة كل منا، لأن

هذه الأفراح البسيطة والمشـروعة تقـف ضـد مشـروعه الأساسي في تدمير كل أشكال الفرح العربي، حتى لو كـان هذا الفرح زائراً غريباً، لإنسان عربي بسيط.

منذ أن كتبت الكلمة الأولى، وحتى كلمة الختام وفـي الذهن يدور خاطر محدد، على شكل سؤال يقول: هـل مـن حقي أن أشغل القارئ بهذا الهم الخاص بي؟! أليس في ذلـك عدوان على حق القارئ؟! ولكني اكتشفت أن ما كتبت عنـه هم خاص، نعم، ولكنه هم عام لأنه يتصل بمواجهة عـدو لا بد من مواجهته في كل لحظات الصحو والنوم، وإن كانـت هذه المواجهة لا بد وأن تبدأ منا كأفراد، فلا بد وأن تمتد لكي تشمل المجموع العربي كله، أيضاً فإن هذا الذي يحدث معي، إنما يتم مع كثير من المبدعين العـرب، خاصـة أصـحاب المواقف ضد العدو، فكما أنني لم أكن الأول، فمـن المؤكـد أنني لن أكون الأخير.

علينا أن ندرك جيدا، أن العدو الإسرائيلي يحاول الآن أن يدير ظهره لمن أرتموا على أبوابه، وأن يحـاول جاهـدا اختراق صفوف من رفضوه، وتلك هي معركتنا القادمة مـع

هذا العدو، الذي أثبت أنه عدو الماضي والحاضر والمستقبل معا..

وتلك هي مهمتنا الأولى والخيرة في الزمن القادم..

٢٥ فبراير ١٩٨٩

قصص تبحث عن مؤلف

تستهويني قصص الحياة الواقعية، تصل دهشتي إلـى مداها عندما أجد نفسي في مواجهة إبداع يومي لا مؤلف له، يؤلفه في بعض الأحيان أبطال هذه القصص أنفسـهم عـن أنفسهم.

أتوقف أمام حدث ما أحيانا، لا أستطيع انتزاع نفسـي منه بسهولة، ذلك أنه مثلما يقال ليس كل ما يلمع ذهباً، يمكن القول أيضا وبالمنطق نفسه ليس كل ما يجرى أمـام أعيننـا يصلح لأن يكون قصصا، ومع هذا يلتصـق بعـض هـذه القصص بالنفس ولا يمكن الخروج منها بعد ذلك أبدا.

أحاول الخروج من قصص الحياة التـي تحمـل كـل إغراءات الحياة اليومية الواقعية ، أصـاب بالدهشـة مـن المؤلفين الذين يعيشون لحظات غسقية من حياتهم، يشـكون لي من أنهم لا يجدون القصص التي يكتبونها، وأن الواقع قد أصابه الجفاف.

أعرف أن المسألة لا تسير في خط مستقيم بين حادث الواقع الذي يصلح لأن يكون قصة تبحث عن مؤلف، وبـين المؤلف الذي يشكو من ندرة القصص، وإن تلك قضية وهذه

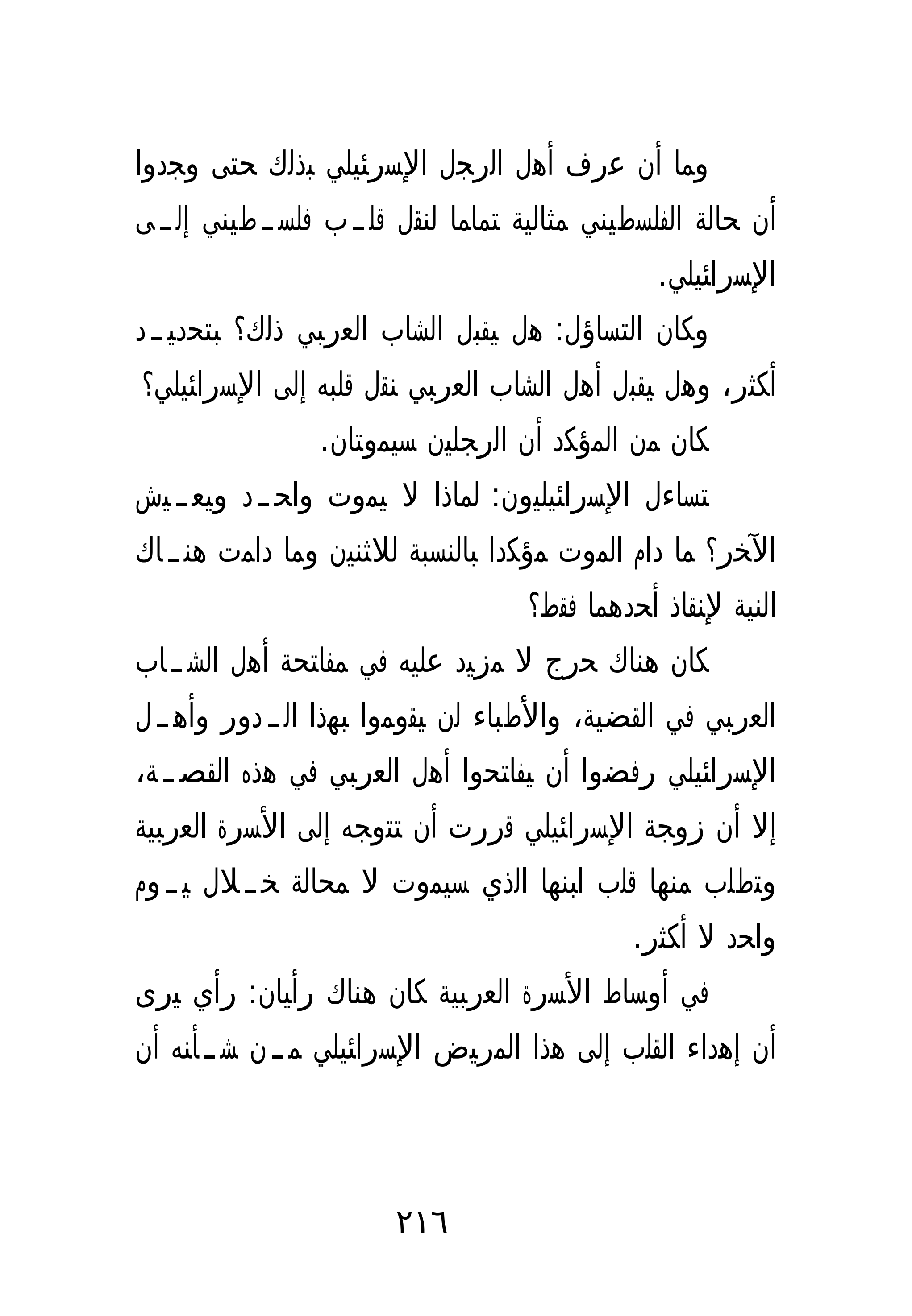
قضية أخرى تماما، ولكن توقفي أمام حادثين وقعا في أرض الواقع آثارا القضيتين في نفسي.

إنهما حادثان مما يجرى في أرض الواقع كل يوم، كل منهما يصلح لأن يكون قصصا قصيرة ، وهمـا معـا فـي انتظار المؤلف.

الحادث الأول جرى في فلسطين المحتلة، وبالتحديد في أحد مستشفياتها.

كان هناك شخص إسرائيلي تعدى الأربعين من العمر وكان مريضا بالقلب ورأي الأطباء بأنه سيموت خلال يومين إذا لم تتم عملية نقل قلب له، وكان لابد من قلب وهذا القلـب المطلوب يؤخذ عادة من شخص مات لتوه حيث ينقل القلـب الميت إلى الشخص الذي يحتاج إلى قلب.

وعلم الأطباء أن في المستشفى نفسه شاباً فلسطينياً في الثامنة عشرة من عمـره، أطلـق عليـه جنـود الاحـتلال الإسرائيلي رصاصة في الرأس وفشلت كل أشـكال العـلاج وجلس الأطباء ينتظرون وفاته وحدود لذلك أربعاً وعشـرين ساعة لا بد وأن يموت خلالها.



وما أن عرف أهل الرجل الإسرئيلي بذلك حتى وجدوا أن حالة الفلسطيني مثالية تماما لنقل قلـب فلسـطيني إلـى الإسرائيلي.

وكان التساؤل: هل يقبل الشاب العربي ذلك؟ بتحديـد أكثر، وهل يقبل أهل الشاب العربي نقل قلبه إلى الإسرائيلي؟

كان من المؤكد أن الرجلين سيموتان.

تساءل الإسرائيليون: لماذا لا يموت واحـد ويعـيش الآخر؟ ما دام الموت مؤكدا بالنسبة للاثنين وما دامت هنـاك النية لإنقاذ أحدهما فقط؟

كان هناك حرج لا مزيد عليه في مفاتحة أهل الشـاب العربي في القضية، والأطباء لن يقوموا بهذا الـدور وأهـل الإسرائيلي رفضوا أن يفاتحوا أهل العربي في هذه القصـة، إلا أن زوجة الإسرائيلي قررت أن تتوجه إلى الأسرة العربية وتطلب منها قلب ابنها الذي سيموت لا محالة خـلال يـوم واحد لا أكثر.

في أوساط الأسرة العربية كان هناك رأيان: رأي يرى أن إهداء القلب إلى هذا المريض الإسرائيلي مـن شـأنه أن

يحدث أثرا نفسيا طيبا بين اليهود ويلين مـوقفهم ويشـعرهم بإنسانية الفلسطينيين والعرب، وأنه لا مانع من ذلك.

ولكن الرأى الآخر رأي في الطاب الإسرائيلي وقاحـة وأنه يفوق حتى طاقة البشر على التسـامح وقـدرتها علـى الاحتمال، فكيف يقدم قلب شاب فلسطيني قتله جنود الاحتلال الإسرائيلي هدية لكي ينقذ حياة إسرائيلي يمد في عمر الدولة الإسرائيلية ويبعد إمكانية الحل القادم؟

انتصر الرأي الآخر ومات الاثنان في وقت واحد معاً، الإسرائيلي الذي الم يجد قلبا ينقد حياته والفلسـطيني البطـل الذي قتله جنود الاحتلال الإسرائيلي برصاصة في مـؤخرة الرأس وفشل الأطباء الإسرائيليون في إنقاذه، مات الأول في الأربعين من العمر ومات الثاني في الثامنة عشر من عمره.

الحادث الثاني من مصر.

عندما وجد صبي ميكانيكي حقيبة بها مبلغ كبير مـن المال في السيارة، أخذ المبلغ الضخم وأخفاه، مرت أيام ولـم يبلغ صاحب السيارة التي كان بها المبلغ عنه، فقال الصـبي الميكانيكي في نفسه لا بد وأن صاحب السيارة كان قد سرق المبلغ ولذلك خشى أن يبلغ عنه، كان الصبي الميكانيكي يحب

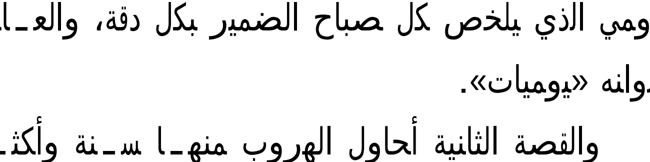
امرأة متزوجة فأخذ المال وذهب إليها، سافر مع الزوجة التي يحبها لحد الجنون وزوجها وأولادها من زوجها إلى مصيف رأس البر، وهو مصيف من مصايف الطبقة الوسـطي فـي مصر، وفي المصيف عرض عليه الزوج بأن يبيع له زوجته لقاء ثمانية آلاف جنيه، دفع الشاب المبلغ على الفور وأطلـق الرجل زوجته وجلس الشاب ينتظر مرور فترة العدو حتـى يكتب كتابه عليها ويحقق حلمه الذي لم يكن يجرؤ علـى أن يحلم به قبل أن يجد المال.

عاد الزوج السابق ومعه أولاده من زوجته إلى القاهرة وترك زوجته مع صديقها في المصيف، وفي القاهرة طرأت له فكرة: لماذا لا يبيع الأطفال الثلاثة لهذا الذي يحب زوجته واشتراها منه؟

عاد الزوج مرة أخرى إلى المصـيف حيـث توجـد زوجته السابقة التي أصبحت مطلقته الآن مع الصبي الـذي وقع غرامها وعرض عليهما أن يشتريا منه أطفال هذه المرأة الثلاثة، ووافق الشاب من أجل عيون حبيبته التـي اشـتراها قبل أن يشتري أيضا أبناءها، وهكذا دفع ألفي جنيه أخـرى وأصبح ثمن الأم وأولادها عشرة آلاف جنيه، وتمت الصفقة،

حصل الصبي الغض الطري المراهق على امرأة يحبها وأبنائها الثلاثة لقاء مبلغ من المال، أما زوجها السابق وأب الأولاد الثلاثة فقد حصل على عشرة آلاف جنيه وضعها في جيبه وسافر إلى القاهرة.

وعلى الرغم من أن القصة تسربت إلى الصحف المصرين ونشرت بشكل موسع، إلا أن صاحب الأموال الضائعة لم يتقدم إلى الدولة ليقول أن الأموال أمواله مما يؤكد الظن أنه سرقها، وإلا كان قد تحرك من أجل هذه الأموال.



الحادث الأول نشرته صحف العدو الصهيوني ولخصه بخفة قلم، يحسد عليه، هو قلم أحمد بهاء الدين في عموده اليومي الذي يلخص كل صباح الضمير بكل دقة، والعامود عنوانه «يوميات».

والقصة الثانية أحاول الهروب منها سنة وأكثر، تطاردني في كل لحظة حيث أقف أمام بشاعتها ولا إنسانيتها، قصة رجل باع زوجته ثم عاد يبيع أولاده. قصة الفتى المراهق الذي قرر أن يشتري الحب بمبلغ من المال، قصة صاحب حقيبة المال الذي ضاعت منه ولم يبلغ عنها.. أحاول

ويبدو أن محاولاتي ستفشل وإنني سأجلس ذات يوم لأكتـب قصة لصوص مصر.

حدثان يؤكدان من جديد أن الواقع الحي أصدق أنبـاء من الكتب.

والحادثان لا ينقصهما سوى المؤلـف ليتحـولا إلـى قصتين مؤثرتين في زمن نعاني فيه من خطر التكرار الممل لكل ما في الحياة من بهجة ولكل ما فيها أيضا من أحزان.

المهاجرون

لكل زمان آيته. وآية هذا الزمان المصري العصيب هي الهجرة.

لقد أصبح المصريون – ولأول مرة في تاريخهم – شعبا من المهاجرين.

والمصري معروف بالارتباط بالأرض، وعندما ينتقل من قرية إلى أخرى، يصبح الأمر حكاية تتطلب استعدادات نفسية هائلة، فما بالك بالسفر من دولة إلى أخرى.

وابن مصر هو الذي اخترع الاستقرار في مكان واحد والبناء فيه والزراعة والصناعة وكل ما له صلة بالعمران.

كانت هناك استثناءات لذلك، أعرف أنه حدثت بعض الهجرات في تاريخ مصر، ولكنها كانت مرتبطة بظرف معين وكانت تقوم بها فئة أو جماعة من المصريين، ولعل آخر هذه الهجرات، ما جرى في مصر بعد الاحتلال البريطاني في الثلث الأخير من القرن الماضي.

الذين هاجروا هذه المرة كانوا المثقفين، إما بقرارات النفي من المحتل الأجنبي، وإما بقرارات خاصة منهم، هروبا من هذا الواقع الجديد الذي فرض نفسه على مصر.

لكن عقد السبعينات جاء إلى مصر ومعه نوعان من الهجرة، هجرة أولى من الريف إلى المدن، وفي المدينة لا يحقق أحد ذاته ولا يشبع من يومه ولا يصل إلى ما يريد الوصول إليه، فيقرر الهجرة من الهجرة نفسها، أي يشد الرحال من المدينة إلى بلاد البترول.

في بداية السبعينات رحل عن مصر بعض المثقفين الذين اختلفوا مع الطريقة التي كانت تحل بها قضايا الوطن، وتصور البعض يومها أنه ترف يمارسه المثقفون. لأن مصر كانت لا تزال متمسكة حتى بالأمثلة الشعبية التي ترفض الترحال والسفر والهجرة.

لكن الطوفان جاء، وطفش وهج حتى الفلاح الذي يبدو في بعض الأحيان وكأنه مزروع في الأرض مثل النباتات والأشجار، جذوره في الأرض وقامته في عنان السماء.

أصبحت الهجرة أنواعا وأشكالا وألوانا. الحاصلون على شهادات عليا وأكثر، حتى الدكتوراه، أمامهم أميركا وكندا واستراليا وأوروبا الغربية، مع أن الحاصل على شهادة جامعية في مصر يكلف الدولة أكثر من عشرين ألف دولار.

والشباب يتجهون إلى الدول العربية، والفلاح والعامل يجرى وراء رزقه في بلاد الأشقاء العرب.

كنت وما زلت أذهب إلى قريتي فيكبش الهم في قلبي، لا أجد في الحقول سوى الأطفال والنساء والرجال العواجيز والمرضى، أما الفلاح التقليدي، الرجل الذي كان طولا بعرض، الذي تفوح منه رائحة الصحة والعافية والفتوة والرغبة في العمل، فلم يعد له وجود، أمسك في قلبه مرض السفر والترحال، في جيبه جواز سفره، وفي يده الدولارات، وعندما يسألك، فإن سؤاله لا يكون أبدا عن مواعيد مياه الري، أو حال الأرض والزراعة، ولكن عن سعر الدولار في السوق السوداء ومواعيد الطائرات من أجل السفر إلى الدول العربية.

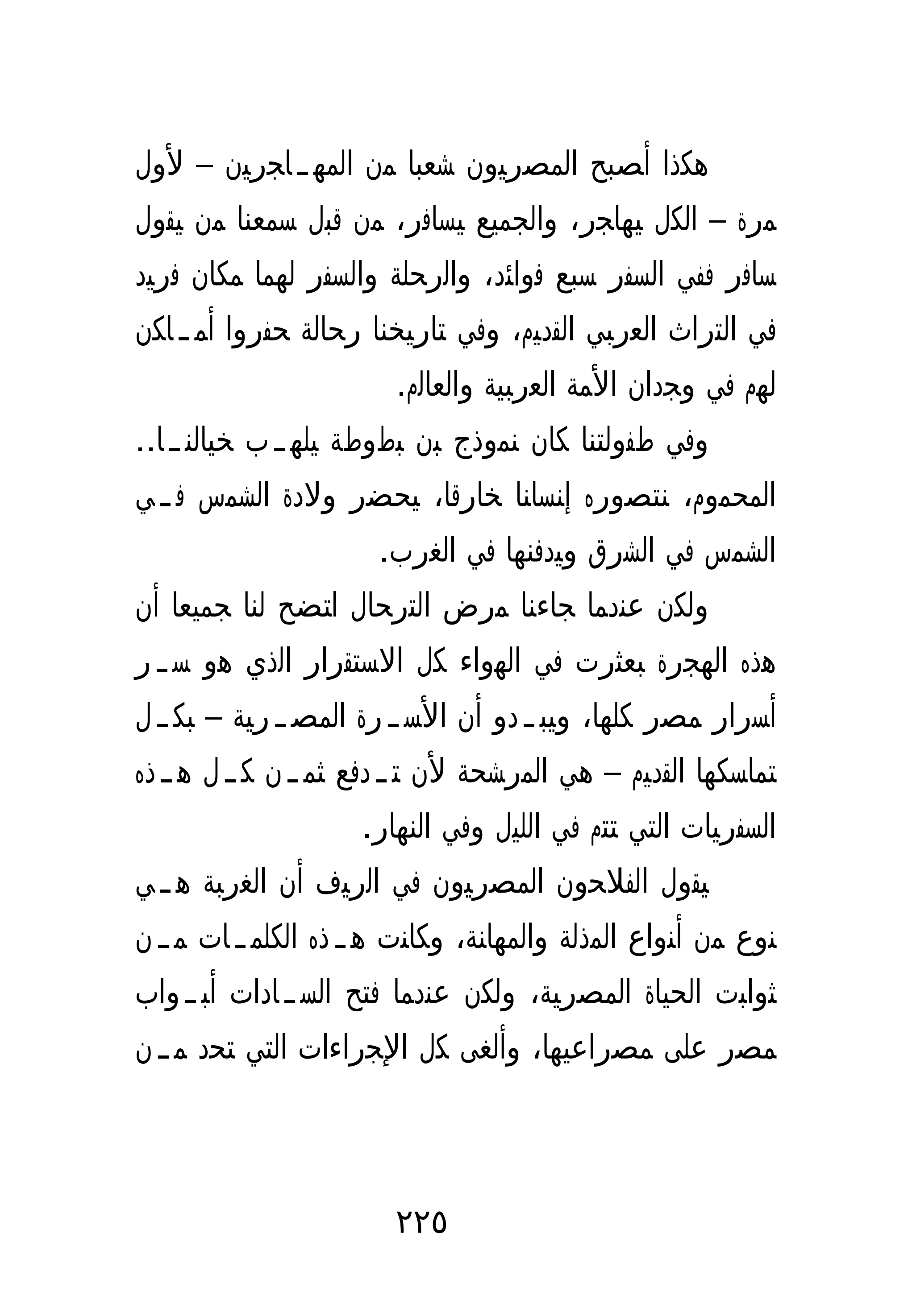
يسافر الفلاح، فيترك مكانه خاليا ويعود من الدولة العربية معه الأموال، ويكون أول ما يقوم به هو الزواج من زوجة أخرى، غير زوجته القديمة، ويبني بيتا جديدا، على الرغم من وجود بيت قديم له، والبيت الجديد يبني على الأرض الزراعية، أي أنه يأكل أرضه بدلا من أن يزرعها

ومن هنا تنشأ أزمة حقيقية من أزمات مصر الاقتصادية الآن.

ثم يجلس في المقهى، ينفق ما معه من المال الذي عاد به من الدول العربية، يلعب الورق. يعاقر القمار، حتى تنتهي أمواله، فيسافر من جديد وهكذا.

في المدن تختلف الصورة تماما، أمشي في المدن فأشاهد امرأة تسحب أطفالها، تلف وتدور في الشوارع امرأة وأطفال بدون رجل. إذن زوجها مسافر في الدول العربية، وكل امرأة دون رجل في نظر الآخرين هي امرأة سهلة ومتاحة للجميع، تتعرض للمضايقات والمعاكسات التي تصل في بعض الأحيان إلى حدود الخطف والاغتصاب. وعندما تعود إلى البيت يكون عليها أن تلعب دور الأب والأم للأسرة في الوقت نفسه.

أطفال بدون أب، ينشأون فيجدون أن الأم هي الأم والأب معا، ونساء بدون رجال، وعائلات نسائية مائة في المائة، وهذا الوضع سنجد أثره في انتظارنا في السنوات المقبلة، والسبب الوحيد في هذا هو الهجرة من مصر إلى الدول العربية بحثا عن الرزق.



هكذا أصبح المصريون شعبا من المهـاجرين – لأول مرة – الكل يهاجر، والجميع يسافر، من قبل سمعنا من يقول سافر ففي السفر سبع فوائد، والرحلة والسفر لهما مكان فريد في التراث العربي القديم، وفي تاريخنا رحالة حفروا أمـاكن لهم في وجدان الأمة العربية والعالم.

وفي طفولتنا كان نموذج بن بطوطة يلهـب خيالنـا.. المحموم، نتصوره إنسانا خارقا، يحضر ولادة الشمس فـي الشمس في الشرق ويدفنها في الغرب.

ولكن عندما جاءنا مرض الترحال اتضح لنا جميعا أن هذه الهجرة بعثرت في الهواء كل الاستقرار الذي هو سـر أسرار مصر كلها، ويبـدو أن الأسـرة المصـرية – بكـل تماسكها القديم – هي المرشحة لأن تـدفع ثمـن كـل هـذه السفريات التي تتم في الليل وفي النهار.

يقول الفلاحون المصريون في الريف أن الغربة هـي نوع من أنواع المذلة والمهانة، وكانت هـذه الكلمـات مـن ثوابت الحياة المصرية، ولكن عندما فتح السـادات أبـواب مصر على مصراعيها، وألغى كل الإجراءات التي تحد مـن

السفر، عندما حدث هذا، أصبح جـواز السـفر هـو سـيد الموقف.

إن الشباب المصري يكمل تعليمه الآن ويـذهب إلـى القوات المسلحة حتى يتمكن من السفر إلى الخارج، إن حلـم السفر إلى الخارج هو سـيد الأحـلام كلهـا فـي أذهـان المصريين، وأكثر الكتب مبيعا وتوزيعا في مصر الآن، هي تلك الكتب التي تتحدث عن السفر إلـى الخـارج وتشـرح إجراءات السفر وكيفية التغلب على العقبات في هذه الرحلة.

لقد جاء زمان الهجرة وأصبح المهاجرون هم أبطـال العصر ويا ويلنا من زمن الهجرة.

١١ مارس ١٩٩٢

اكتشاف مصر

هذا كتاب طريف، أخذته من مكتب الدكتور سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب المصرية، قبل أن يصدر، وعدت إلى بيتي، فكان لا بد وأن أنحي الكتب التي كانت تحت القراءة، وهكذا نحيت جانبا: «قشتمر» لنجيب محفوظ و«أطفال منتصف الليل» لسلمان رشدي «وفاتحة لنهايات القرن» لأدونيس، كانت التنحية لبعض الوقت فقط.

والكتاب له مؤلف مصري ومكتشف انكليزي، ولذلك صدر أولا بالانكليزية في لندن وأخيرا ترجم إلى العربية لكي يصدر في القاهرة، وهكذا نعرف أنفسنا ونقرأ تراثنا من خلال لندن.

والمؤلف هو شرف الدين بن أسد المصري، الذي عاش في مصر في القرن الثامن عشر الميلادي.

يقال عنه في كتب التراث الأدبي: «شيخ ماجن متهتك، طريف، ضليع، يصحب الكتاب ويعاشر الندماء ويشيب في المجالس على القيان»، نصوصه الأدبية التي تركها تقول أنه كان فقيرا ومعسرا وعاصر المجاعات الرهيبة التي مرت على مصر وعاصر غزوات التتار.

وقد أهتم شرف الدين بالطوائف والأزجال والموشحات، كان أسلوبه عاميا مطبوعا وخلط نوادره وأمثاله بأشعاره، إنه يمثل تيار مزج الأجناس الأدبية بعضها ببعض، وقدمها بأسلوب شعبي، وقد جذبت مؤلفاته «لطفاء المصريين» وهكذا اتجه في مؤلفاته إلى ما يهم الناس كالنوادر والأمثال والأشعار ويكتب كتابا عن المهن التي اشتهرت بها النساء. كان كل ما يهمه يدور حول الشخصية المصرية، ولذلك قيل المصري في آخر اسمه.

أما مكتشف الكتاب وناشره ومترجمه والذي أعاد كتابته فهو جون لويس بوركهارت، وهو رحالة سويسري عشق الشرق وجاء إليه وكرس سنوات عمره القليلة لدراسته جغرافيا وبشريا واجتماعيا.

عاش هذا الرحالة ما بين سوريا والعراق ولبنان وفلسطين ومصر وبلاد النوبة ثم الجزيرة العربية، وقد دفن في مصر على ضفاف النيل حسب رغبته في احتفال إسلامي مهيب.

وصل إلى حلب سنة ١٨٠٩، ومرض ومات سنة ١٨١٧ وكان قد ولد سنة ١٧٨٤ لأسرة تعاني من اضطهاد

الحكم الفرنسي فتكونت لديه قناعة في سن عمره المبكرة لأن يقضي عمره في خدمة الدول التي تعادي فرنسـا، وكانـت إنكلترا هي المكان المناسب.

في حلب تعلم اللغة العربية. ودون العديد من الرسائل والدراسات عن حياة الشرق، هي جزء هـام مـن التـاريخ الاجتماعي للشرق الأوسط في هذه الفترة، كتب عن تـاريخ حلب والقبائل العربية في بادية الشام، وكتب عـن جغرافيـة الصحراء وعادت البدو وشمائلهم، وله دراسات عن النوبـة وجزيرة العرب وفي سنة ١٨١٦ أرسل إلى أوروبا وصـفا للحجاز ومكة والمدينة.

آخر رحلاته كانت إلى سيناء وسانت كاترين، وكتـب وصفا للرحلة، وفي هذه الفترة القصيرة كتب أبحاثا عن بدو الجزيرة العربية، وكتب مذكرات عـن رحلتـه الحجازيـة، وترجم ما كتبه المقريزي عن جغرافية بلاد النوبة وتاريخها، ثم يعاود الكتابة عن سـيناء ليؤكـد أن سـيناء ذات أهميـة تاريخية بالغة في تاريخ البشرية كله، ويلحق بهذه الدراسـة تعليقا عن طريق بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، ولعل أهم ما في رسائل بوركهارت ملاحظاته عن أحوال مصـر

وحكوماتها، وقد كان بوركهارت صديقا للجبرتـي وذكـره الجبرتي في تاريخه الشهير في حوادث سنة ١٢٣١ من بعد هجرة الحبيب المصطفى، ويذكره باسمه الذي كان يعرف به في ذلك الوقت سيدي إبراهيم المهدي الانكليزي.

وقد تعرف على محمد علي باشا وكان له منه موقـف عندما أراد محمد علي أن يمتحن إسلامه فدفع بـاثنين مـن علماء الحجاز الكبار في ذلك الوقت لكي يختبرا مدى علمـه بالقرآن، وانتهى الأمر باقتناع الجميع بصحة إسلامه وحمـل بوركهات وقتها لقب «حاج».

أما الكتاب فقد عثرو بوركهارت على مخطوط من ١٩ كراسة في مكتبة أحد الشيوخ في القاهرة، هي عبـارة عـن الأمثال الشعبية المصرية، وأهتم بها ونشـرها فـي لنـدن، والغريب أن أحدا لم يهتم بهذا الأمثال رغم أن الكتاب طبـع مرتين في انكلترا وترجم إلى الألمانية.

ويقول بوركهارت في مقدمة الكتاب أنه حذف إعـداد من هذه الأمثال بعضها مقبول والآخر غير مهذب، لقد حذف البعض لأنه لا يتفق مع روح العصر، والآخر لأنـه غيـر مهذب ويخدش الحياء وقد بلغ الذي حذفه منها ١٢٩ مـثلا،

ويقول أنه سدس الأمثال كلها، فالأمثلة المنشورة ٧٨٢ مـثلا شعبيا مصريا قيلت في أزمنة سابقة ولكنها دونت فـي أيـام محمد علي، لست في حاجة إلى القول أن هذه الأمثـال لهـا أهمية علمية نادرة، وتعتبر ذاكرة هامة لهذه الفترة في تاريخ مصر الاجتماعي والسياسي كله.

بقى أن أقول أن عنوان الكتاب الكامل هو: «الأمثـال العربية» أو «شمائل وعادات المصـريين المحـدثين» كمـا تصورها الأمثال العربية في القاهرة، وهو آخر ما نشر مـن آثار الرحالة جون لويس بوركهارت.. أما عنـوان الكتـاب العربي الذي بين يدي فهم: «العادات والتقاليد المصرية فـي الأمثال الشعبية في عهد محمد علي» ومترجمة إلى العربيـة هو الدكتور إبراهيم أحمد شعلان، والكتاب يحمل رقم ٧٣ في سلسلة الآلف كتاب «الثاني» والتـي تصـدر عـن الهيئـة المصرية العامة للكتاب في مصر.

تلك هي حكاية الكتاب نفسـه، أمـا الأمثـال نفسـها فموعدنا معها الأسبوع المقبل...

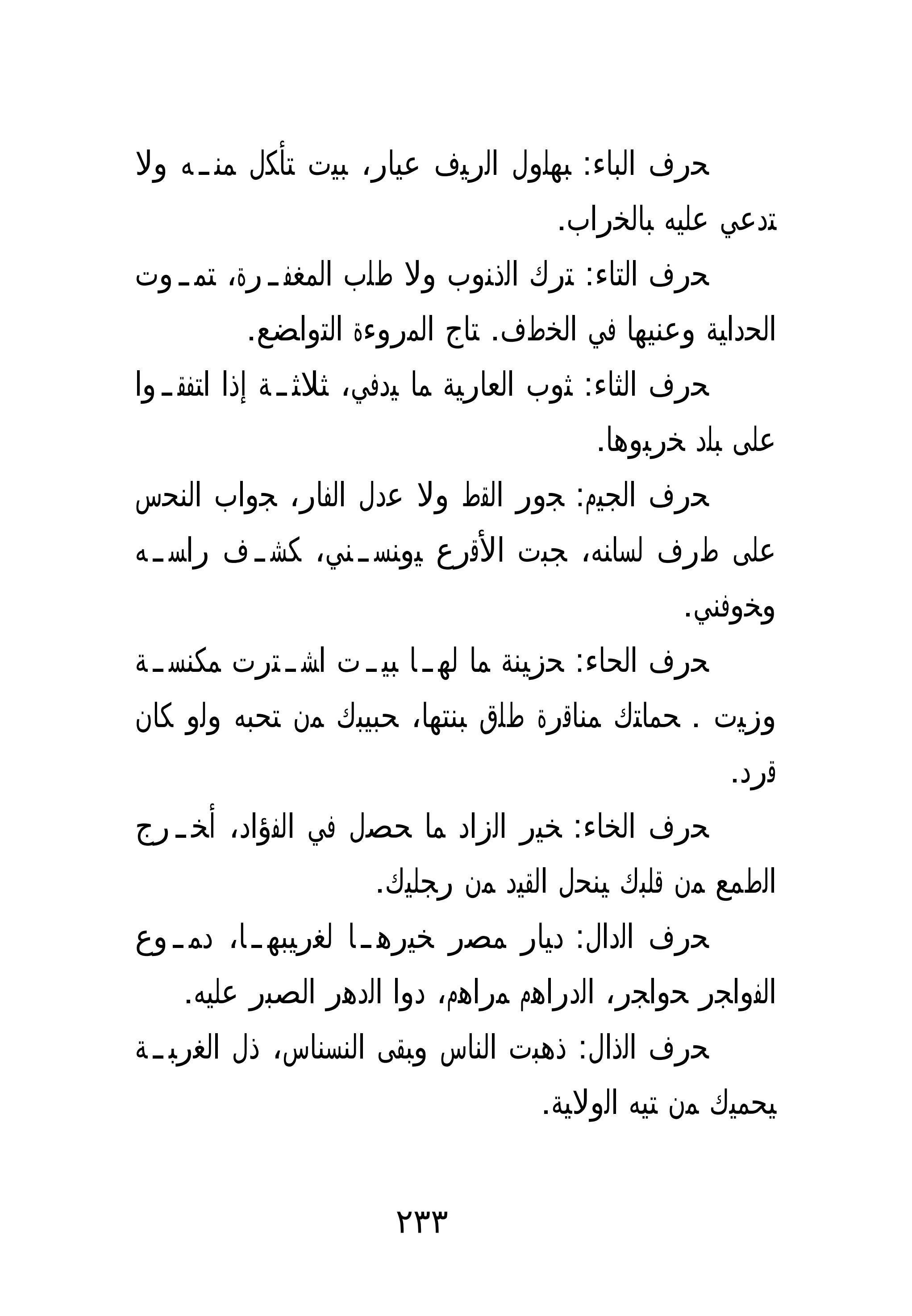
١٨ مارس ١٩٩٢

على رأي المثل

...والأمثلة الشعبية في كتـاب «العـادات والتقاليـد المصرية ومن الأمثال الشعبية في عهد محمد علـى» وهـو الكتاب الذي ألفه شرف الدين بن أسد المصـري واكتشـفه ونشره المستشرق جون لويس بوركهـارت. هـذه الأمثلـة موجودة في الكتاب حسب الترتيب الأبجدي، والمثل الشـعبي جزء من ضمير الشعب، وهو يلخص حكمة الأجيـال فـي تعبير موجز وملخص عن الخبرة البشرية المقطـرة بشـكل شديد التركيز، وأهمية المثل الشعبي أن مؤلفه مجهـول، وأن شرعية المثل الشعبي تأتي من ترديده وانتشاره في أوسـاط الجماهير، واللجوء إليه وقت الشدة كنوع من المخرج الذي لا بد منه.

نقرأ الآن هذه الأمثلة، وهي نفسها تكفـي بـدون أي تعليق عليها.

في حرف الألف: الصبر على الحبيب ولا فقده، الدين سواد الحزين، العادة طبع خامس، احتاجوا لليهـودي، قـال اليوم عيدي. ألف عشيق ولا مستحل، أم الجبان ما تحزن.



حرف الباء: بهلول الريف عيار، بيت تأكل منـه ولا تدعي عليه بالخراب.

حرف التاء: ترك الذنوب ولا طلب المغفـرة، تمـوت الحداية وعنيها في الخطف. تاج المروءة التواضع.

حرف الثاء: ثوب العارية ما يدفي، ثلاثـة إذا اتفقـوا على بلد خربوها.

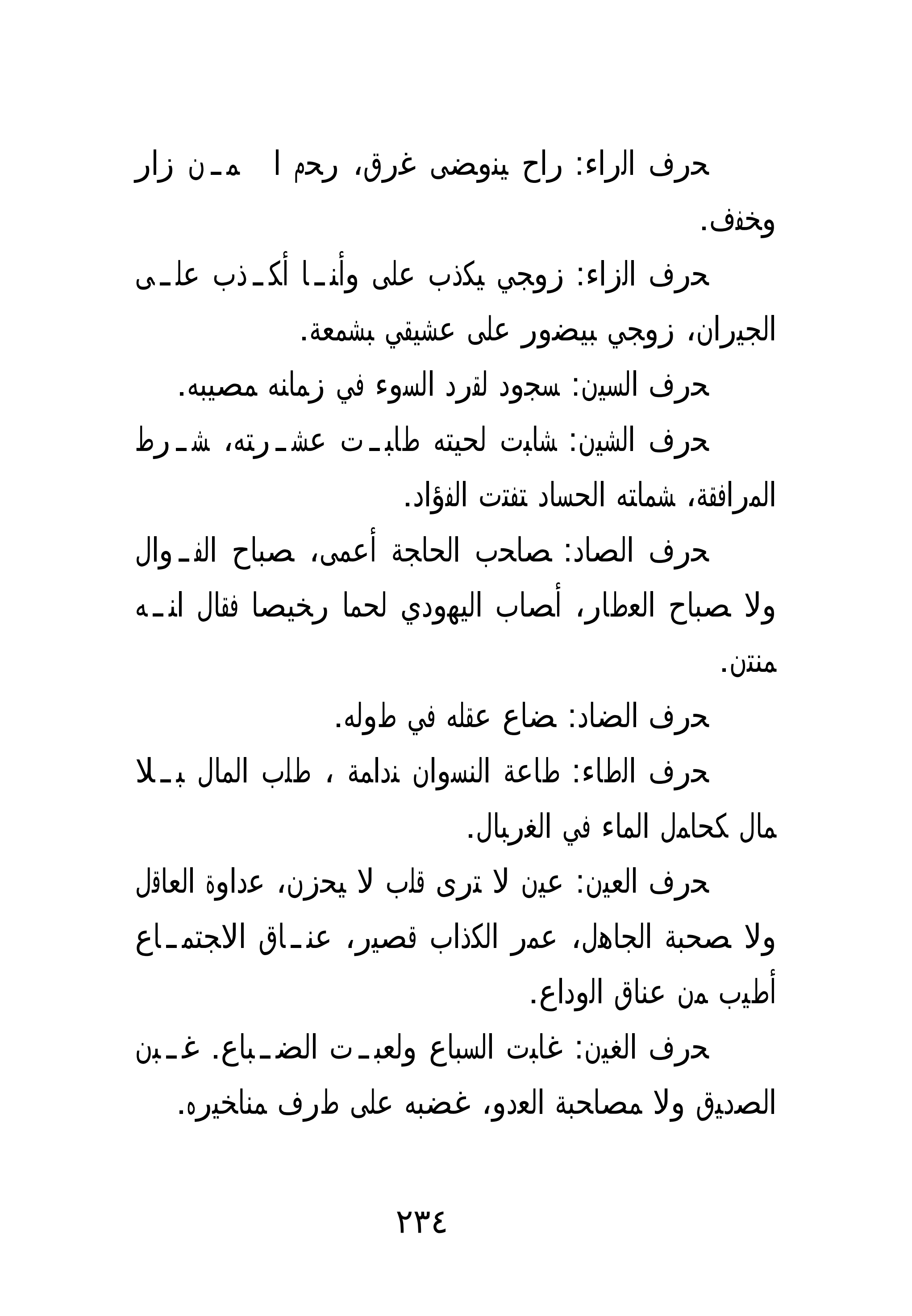
حرف الجيم: جور القط ولا عدل الفار، جواب النحس على طرف لسانه، جبت الأقرع يونسـني، كشـف راسـه وخوفني.

حرف الحاء: حزينة ما لهـا بيـت اشـترت مكنسـة وزيت . حماتك مناقرة طلق بنتها، حبيبك من تحبه ولو كان قرد.

حرف الخاء: خير الزاد ما حصل في الفؤاد، أخـرج الطمع من قلبك ينحل القيد من رجليك.

حرف الدال: ديار مصر خيرهـا لغريبهـا، دمـوع الفواجر حواجر، الدراهم مراهم، دوا الدهر الصبر عليه.

حرف الذال: ذهبت الناس وبقى النسناس، ذل الغربـة يحميك من تيه الولاية.


حرف الراء: راح ينوضى غرق، رحم ا مـن زار وخفف.

حرف الزاء: زوجي يكذب على وأنـا أكـذب علـى الجيران، زوجي بيضور على عشيقي بشمعة.

حرف السين: سجود لقرد السوء في زمانه مصيبه.

حرف الشين: شابت لحيته طابـت عشـرته، شـرط المرافقة، شماته الحساد تفتت الفؤاد.

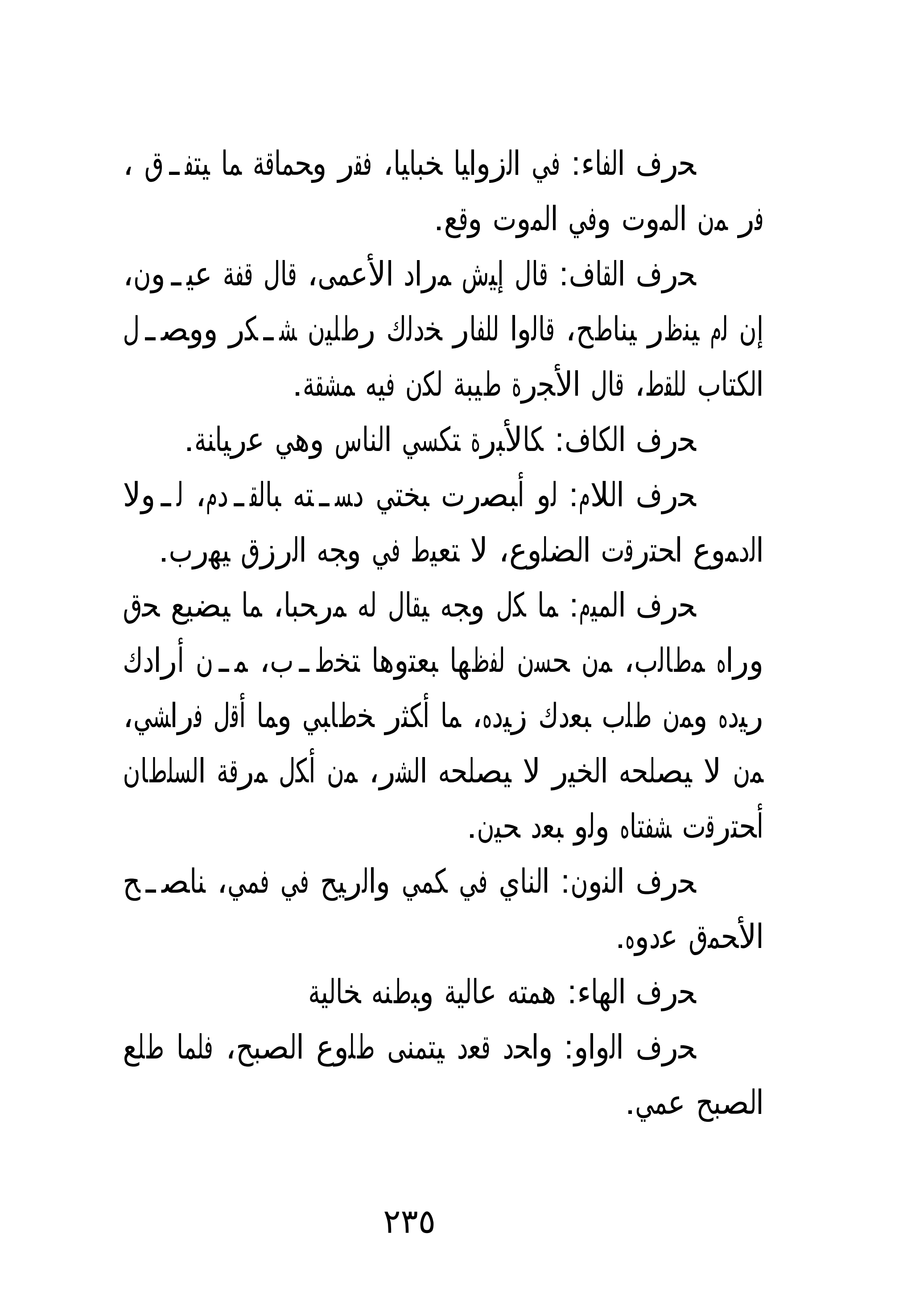
حرف الصاد: صاحب الحاجة أعمى، صباح الفـوال ولا صباح العطار، أصاب اليهودي لحما رخيصا فقال انـه منتن.

حرف الضاد: ضاع عقله في طوله.

حرف الطاء: طاعة النسوان ندامة ، طلب المال بـلا مال كحامل الماء في الغربال.

حرف العين: عين لا ترى قلب لا يحزن، عداوة العاقل ولا صحبة الجاهل، عمر الكذاب قصير، عنـاق الاجتمـاع أطيب من عناق الوداع.

حرف الغين: غابت السباع ولعبـت الضـباع. غـبن الصديق ولا مصاحبة العدو، غضبه على طرف مناخيره.



حرف الفاء: في الزوايا خبايا، فقر وحماقة ما يتفـق ، فر من الموت وفي الموت وقع.

حرف القاف: قال إيش مراد الأعمى، قال قفة عيـون، إن لم ينظر يناطح، قالوا للفار خداك رطلين شـكر ووصـل الكتاب للقط، قال الأجرة طيبة لكن فيه مشقة.

حرف الكاف: كالأبرة تكسي الناس وهي عريانة.

حرف اللام: لو أبصرت بختي دسـته بالقـدم، لـولا الدموع احترقت الضلوع، لا تعيط في وجه الرزق يهرب.

حرف الميم: ما كل وجه يقال له مرحبا، ما يضيع حق وراه مطالب، من حسن لفظها بعتوها تخطـب، مـن أرادك ريده ومن طلب بعدك زيده، ما أكثر خطابي وما أقل فراشي، من لا يصلحه الخير لا يصلحه الشر، من أكل مرقة السلطان أحترقت شفتاه ولو بعد حين.

حرف النون: الناي في كمي والريح في فمي، ناصـح الأحمق عدوه.

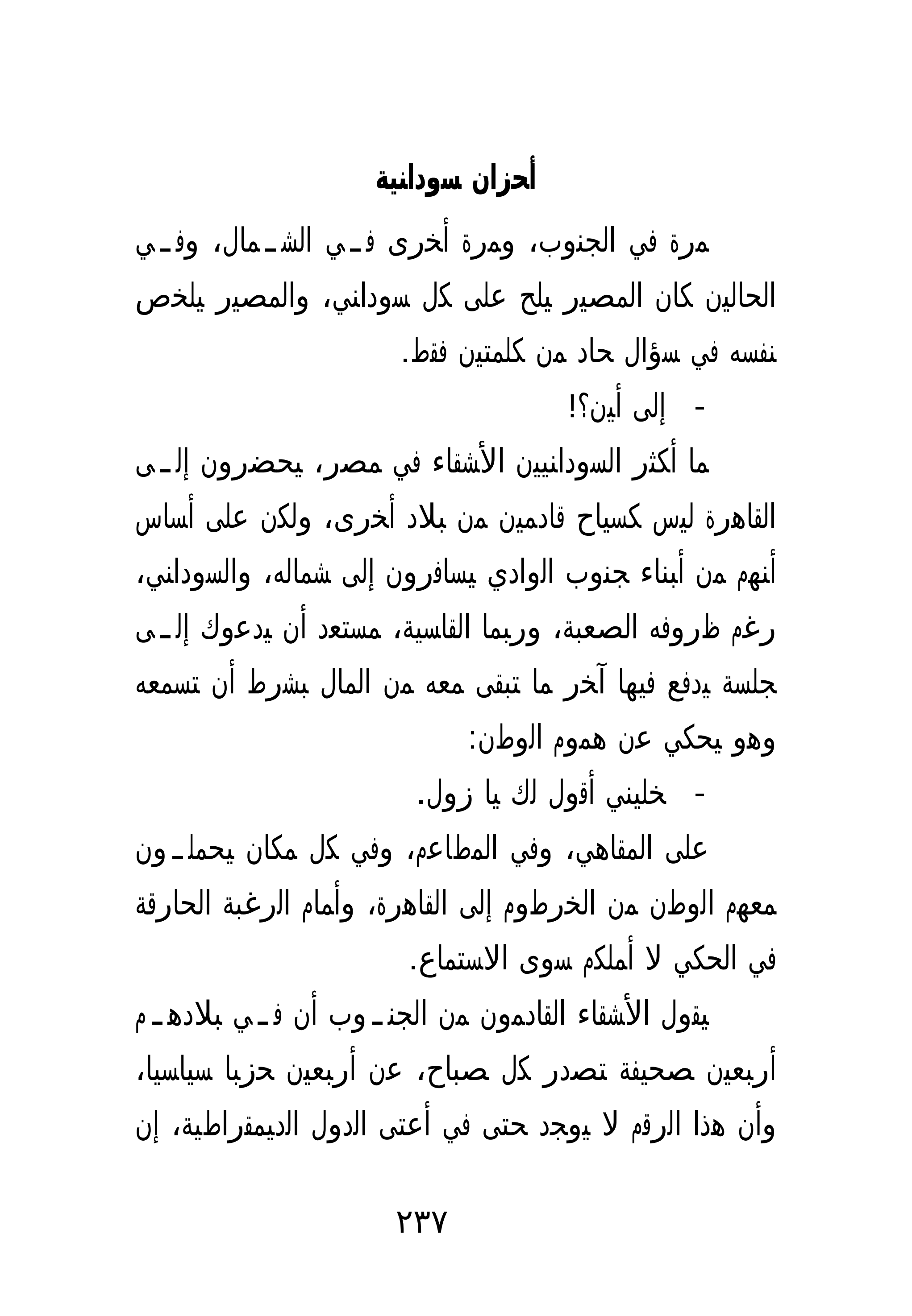
حرف الهاء: همته عالية وبطنه خالية

حرف الواو: واحد قعد يتمنى طلوع الصبح، فلما طلع الصبح عمي.

حرف الياء: يوم لا هو لك لا تحسـبه مـن عمـرك، يكذب على الموتى ويكابر الأحياء، يا مشغول بهـم النـاس، همك لمن خليته، يشتهي الحرب ويكره اللقـاء، يامـا علـى القلوب دروب.

يبقى القول الأخير أن هذه الأمثلة مجرد اختيارات من الكتاب الملئ بالأمثال الشعبية.

٣٥ مارس ١٩٨٩



أحزان سودانية

مرة في الجنوب، ومرة أخرى فـي الشـمال، وفـي الحالين كان المصير يلح على كل سوداني، والمصير يلخص نفسه في سؤال حاد من كلمتين فقط.

- إلى أين؟!

ما أكثر السودانيين الأشقاء في مصر، يحضرون إلـى القاهرة ليس كسياح قادمين من بلاد أخرى، ولكن على أساس أنهم من أبناء جنوب الوادي يسافرون إلى شماله، والسوداني، رغم ظروفه الصعبة، وربما القاسية، مستعد أن يدعوك إلـى جلسة يدفع فيها آخر ما تبقى معه من المال بشرط أن تسمعه وهو يحكي عن هموم الوطن:

- خليني أقول لك يا زول.

على المقاهي، وفي المطاعم، وفي كل مكان يحملـون معهم الوطن من الخرطوم إلى القاهرة، وأمام الرغبة الحارقة في الحكي لا أملكم سوى الاستماع.

يقول الأشقاء القادمون من الجنـوب أن فـي بلادهـم أربعين صحيفة تصدر كل صباح، عن أربعين حزبا سياسيا، وأن هذا الرقم لا يوجد حتى في أعتى الدول الديمقراطية، إن

الإنسان لو رغب في متابعة هذا العدد المهول من الصحف فإنه لا يجد المال أو الوقت الكافيين لذلك مساحات لانهائية من الورق الأبيض لا بد وأن تمتلئ بحكايات وأخبار ومقالات ومعارك.

والصادق المهدي يقول: «أنا أو الفوضى».

والعسكر تغاضوا عن جرح الجنوب الذي يتسع كل يوم، حيث تسقط المدن في أيدي من يحملون السلاح، وولوا وجوههم شطر العاصمة المثلثة ولديهم قول جديد: «الجيش هو الحل..».

والصادق المهدي يطلب من الجيش احترام الدستور والقانون، والجمعية التأسيسية تجتمع لتنفض، ومجلس رأس الدولة ينفض ليجتمع، والنقابات المهنية تحولت إلى جماعات ضغط تحاول الحصول على أي جزء من التورته، والأحزاب السياسية تتصارع ونميرى في منفاه بالقاهرة يتحرك لدرجة أنه أصبح يبحث عن أي صحفي لكي يدلي له بأي حديث عن ألأوضاع في السودان الآن.

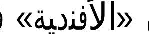
خلفية كل هذه الأحداث معروفة، وهي مثل موج البحر، الجايات أكثر من الرائحات فيه، حرب الجنوب،

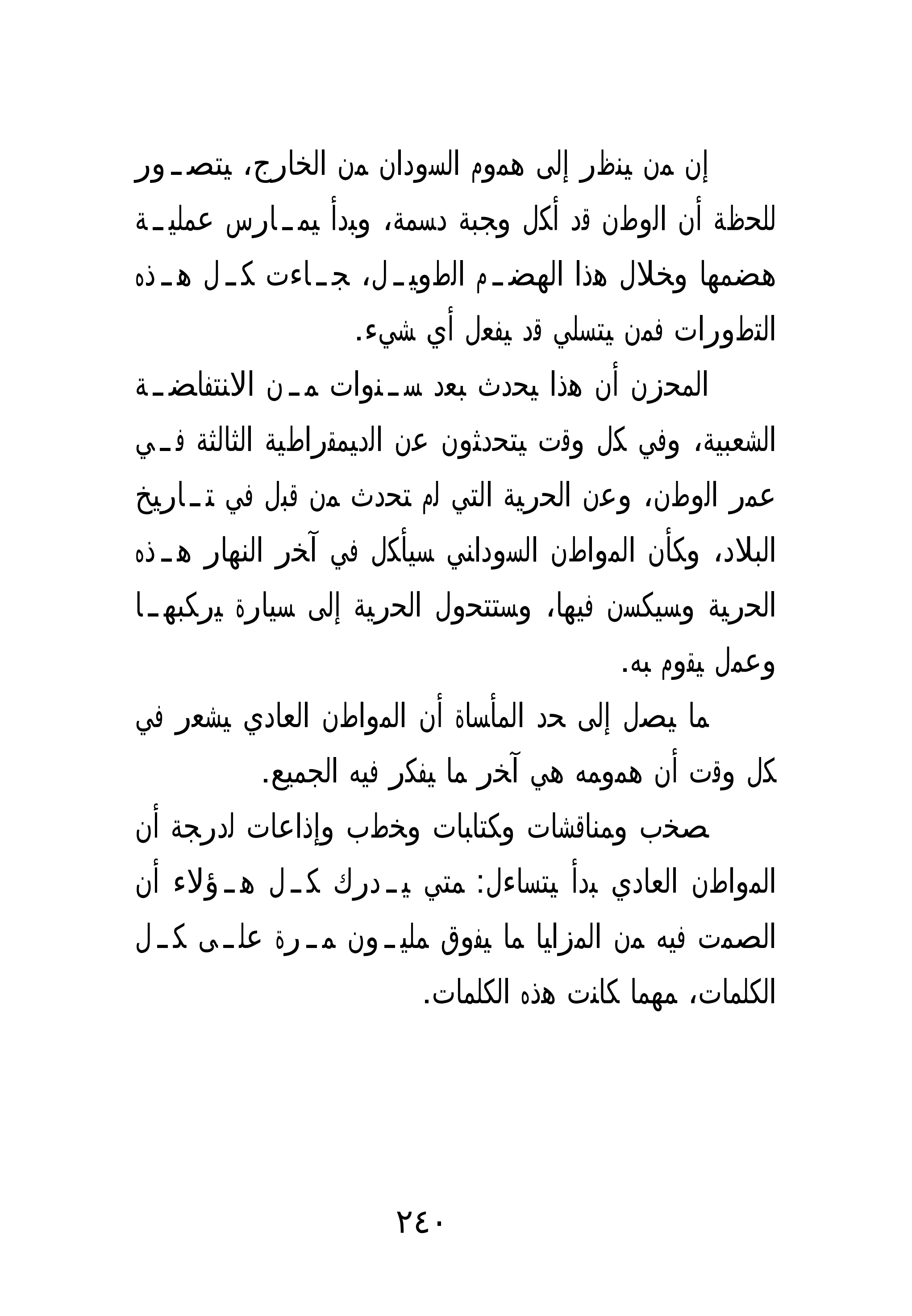
سنوات الجفاف والقحط التسع انتهت، لتبدأ السيول والأمطار الغزيرة والفيضانات التي أسلمت البلاد لكارثة بكل المقاييس.

وقبل أن تتوقف السيول والفيضانات جاء الجراد يحمل معه نذر كثيرة، يهدد الأخضر واليابس، ويبحث عن المحاصيل التي لم يعد لها وجود في الأرض.

جاء الجراد من الجو. وفي الوقت نفسه كان يزحف على الأرض، آلاف، وربما الملايين من المهاجرين، والهجرة أنواع، هناك من يهاجر من مدن وأماكن أخرى في السودان هربا ، الحرب أو هربا من الجفاف أو السيول، وهناك من هربوا إلى السودان من بلاد محيطة بها، تمر هي الأخرى بظروف صعبة وقاسية.

الجنيه السوداني يسجل تراجعات رهيبة، ورقم الديون هو الرقم الوحيد المرشح لأن يتضخم حتى الانفجار.

كل هذا يعاني منه الجسد السوداني المتعب الذي يتطلب من أجل علاجه جهودا أكثر من حكومة واحدة، ومع 
هذا فإن «الأفندية» في العاصمة المثلثة يمارسون كل يوم ترف وطن حل كل مشاكله ولم يبق له سوى الصراعات السياسية.



إن من ينظر إلى هموم السودان من الخارج، يتصور للحظة أن الوطن قد أكل وجبة دسمة، وبدأ يمارس عملية هضمها وخلال هذا الهضم الطويل، جاءت كل هذه التطورات فمن يتسلي قد يفعل أي شيء.

المحزن أن هذا يحدث بعد سنوات من الانتفاضة الشعبية، وفي كل وقت يتحدثون عن الديمقراطية الثالثة في عمر الوطن، وعن الحرية التي لم تحدث من قبل في تاريخ البلاد، وكأن المواطن السوداني سيأكل في آخر النهار هذه الحرية وسيكسن فيها، وستتحول الحرية إلى سيارة يركبها وعمل يقوم به.

ما يصل إلى حد المأساة أن المواطن العادي يشعر في كل وقت أن همومه هي آخر ما يفكر فيه الجميع.

صخب ومناقشات وكتابات وخطب وإذاعات لدرجة أن المواطن العادي بدأ يتساءل: متي يدرك كل هؤلاء أن الصمت فيه من المزايا ما يفوق مليون مرة على كل الكلمات، مهما كانت هذه الكلمات.

إنه زمن الكلام، وعندما تهـل أزمنـة الكـلام علـى الأوطان تتراجع أيام الفعل، مع أن السودان في أمس الحاجة لمن يفعله، ومن الأفضل أن يكون هذا الفعل في صمت.

وما يريده الإنسان العادي في السودان هو العمل ولكن بدون كل هذه الكلمات والأقوال.

١ أبريل ١٩٩٢

العواطلية

... «والعواطلي» مفرد «العواطلية» وهي من قاموس العامية المصرية الجميلة، وهي تطلق على من ليس له عمل يقوم به، يقولون: «آكل ومرعا وقلة صنعا» وقد شاعت هذه الكلمة في مصر الخمسينات والستينات، عندما كـان الكـل يعمل، والجميع يعرق، وكان العمل هو شرف الإنسان نفسه.

لم تكن الكلمة تطلق في هذا الزمـان الجميـل، علـى الإنسان الذي بدون عمل، ولكن على من لا يسعى إلى عمل ولا يبحث عنه ولا يرغب فيه.

كان يقال «العاطلون بالوراثة» وكان هذا التعبير يطلق على فلول الطبقات الاجتماعية، التي كانت عنوانا علـى مـا قبل يوليو، وعندما جاءت الثورة. حاولت القضاء على هـذا العصر، وإن كانت بعض علامات ورموزه ما زالت كما هي في الواقع لفترة من الوقت.

كانوا يقولون : «الإيـد البطالـة نجسـة» أي أن يـد الإنسان لا تتطهر سوى بالعمل والعرق، وفي هذا القول أكثر من دلالة على موقف الإنسان المصري من العمـل وفكـرة العمل نفسها.

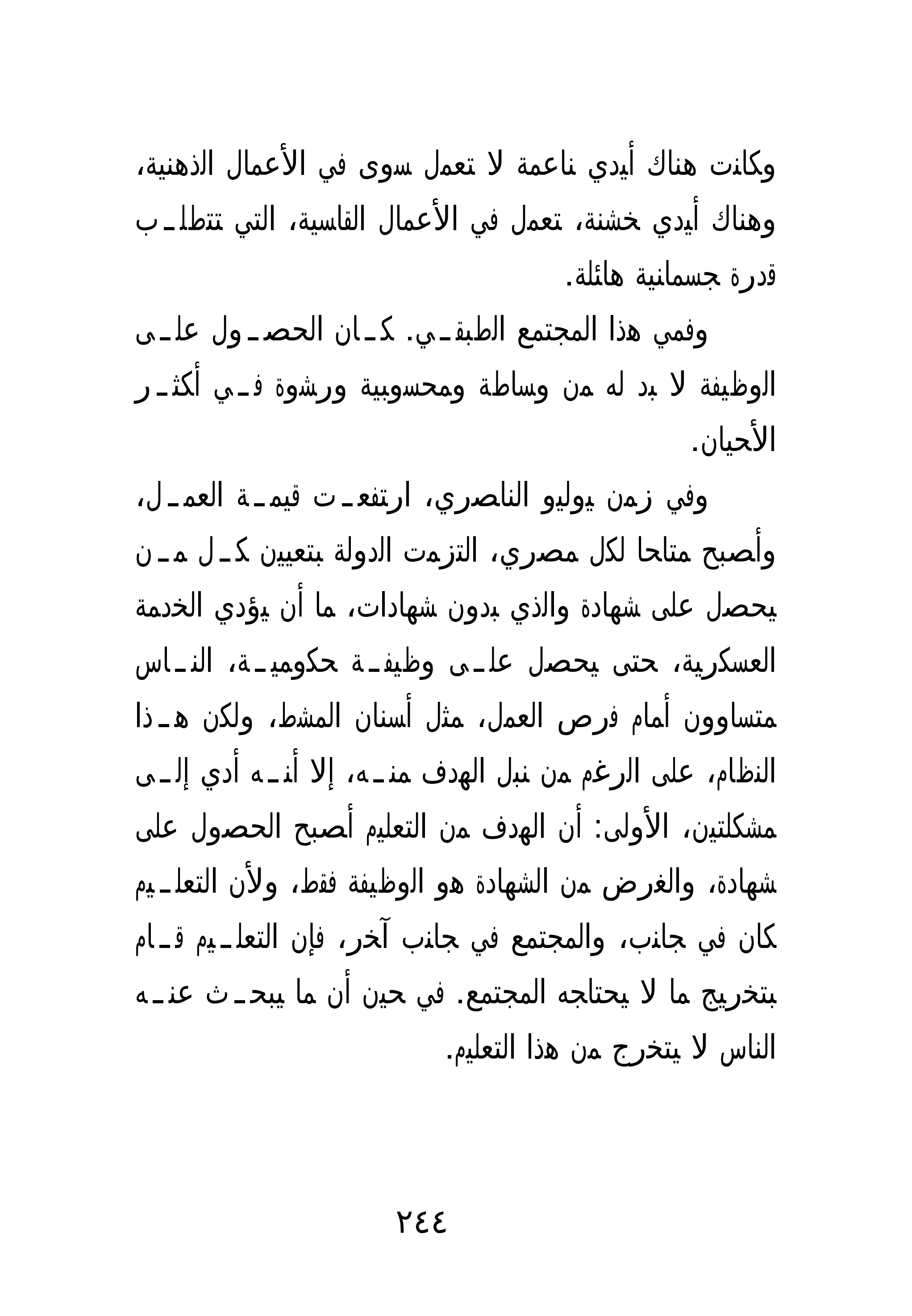
تطل هذه التعابير من جديد على مصر الآن مرة أخرى، وإن كان الأمر قد اختلف تماما عن الخمسينات، والستينات.

علماء الاجتماع السياسي يقولون: إن البطالة هي قنبلة مصر الموقوتة، والتي أوشك فتيلها على الاشتعال.

الأرقام تقول أن خريجي الجامعات والمعاهد والمدارس الذين بدون عمل، يصل رقمهم إلى المليونين، أما الذين بدون شهادات فمن المستحيل حصر رقمهم، وأن في مصر مائة ألف خريج جديد كل سنة يبحثون عن فرص عمل ولا يجدونها.

نفس الأرقام تقول أنه في عصر عبد الناصر لم تكن توجد بطالة أصلاً وإن وجدت في بعض الحالات النادرة فهي لا تتعدي ٢% ولكنها في سنة ١٩٧٦ وصلت إلى ٧% أما مع مقدمات عقد الثمانينات فقد وصلت إلى ٣٠% من المصريين.

حكاية المصريين مع الحصول على العمل قصة أخرى، في مصر ما قبل يوليو، كان لا بد من وساطة وكانت هناك أعمال تناسب أولاد الذوات وأخرى لأولاد «الإيه»



وكانت هناك أيدي ناعمة لا تعمل سوى في الأعمال الذهنية، وهناك أيدي خشنة، تعمل في الأعمال القاسية، التي تتطلب قدرة جسمانية هائلة.

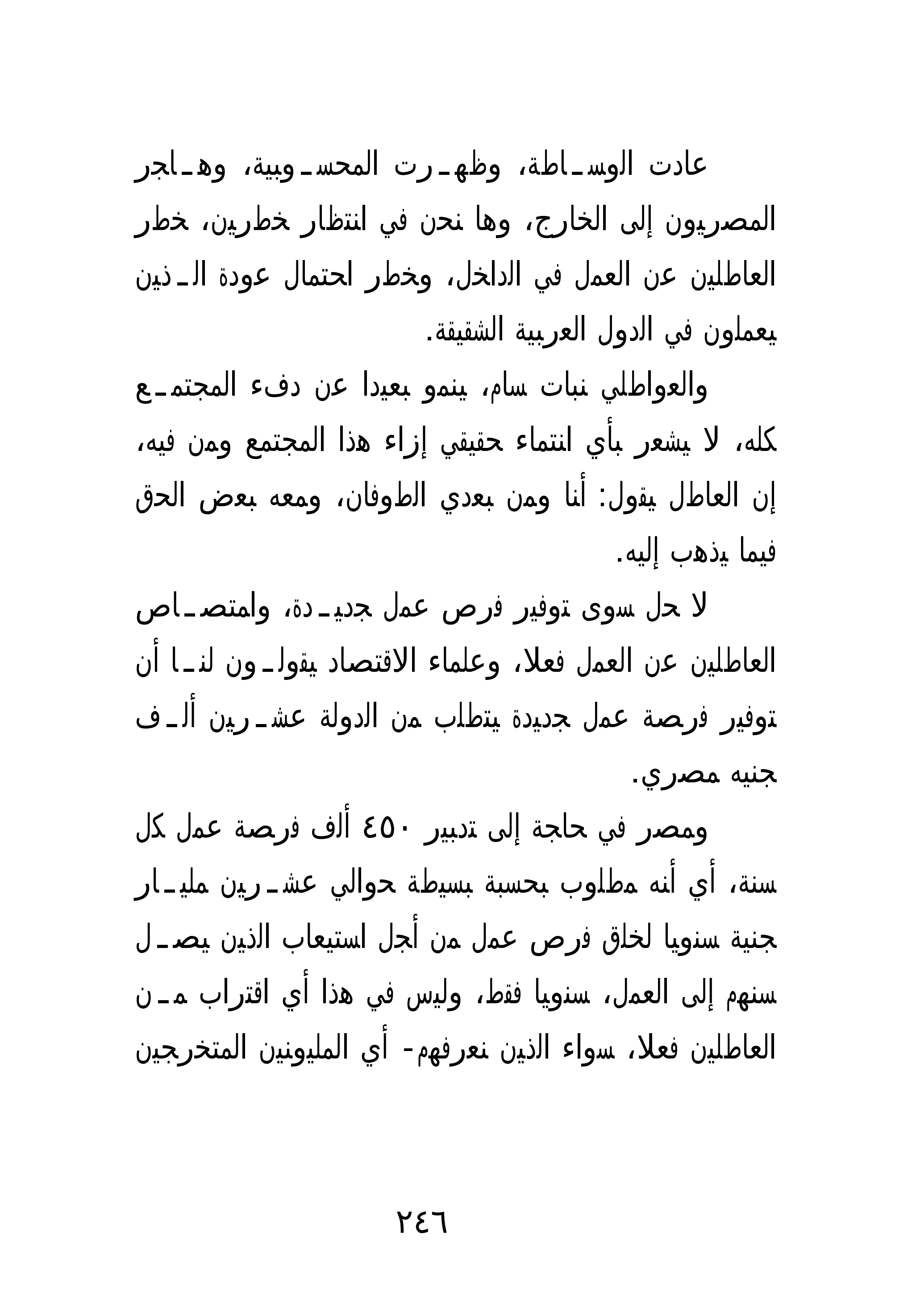
وفمي هذا المجتمع الطبقي. كان الحصول على الوظيفة لا بد له من وساطة ومحسوبية ورشوة في أكثر الأحيان.

وفي زمن يوليو الناصري، ارتفعت قيمة العمل، وأصبح متاحا لكل مصري، التزمت الدولة بتعيين كل من يحصل على شهادة والذي بدون شهادات، ما أن يؤدي الخدمة العسكرية، حتى يحصل على وظيفة حكومية، الناس متساوون أمام فرص العمل، مثل أسنان المشط، ولكن هذا النظام، على الرغم من نبل الهدف منه، إلا أنه أدي إلى مشكلتين، الأولى: أن الهدف من التعليم أصبح الحصول على شهادة، والغرض من الشهادة هو الوظيفة فقط، ولأن التعليم كان في جانب، والمجتمع في جانب آخر، فإن التعليم قام بتخريج ما لا يحتاجه المجتمع. في حين أن ما يبحث عنه الناس لا يتخرج من هذا التعليم.

المشكلة الثانية: أن البطالة التي اختفت من الشـارع، ظهرت من جديد، ولكن في دواوين الحكومة هـذه المـرة، المتخصصون قالوا عن الظاهرة الجديدة «البطالة المقنعـة» وحتى أقرب المسألة من الأذهان، فإن المصـلحة الحكوميـة التي توجد فيها مقاعد تكفي لخمسة من الموظفين، فإن الذين يعملون فيها يصل عددهم إلى خمسمائة من الموظفين ، حيث لا يوجد مجرد مكان للجلوس، فضلا عـن فـرص العمـل، لدرجة أنه كان يطلب من الموظفين عدم الحضـور إلا فـي أول الشهر من أجل الحصول على المرتب فقط.

وجاء زمن السادات، حيث كان يجـرى فـك مصـر وإعادة تركيبها من جديد، وارتفعت الأصوات تطالب بإلغـاء التعيين عن طريق القوى العاملة، كان من الصعب الإلغـاء الفوري، وكان مطلوب بعض التدريج خوفا مـن الغضـب الشعبي العام.

ظهرت إعلانات تطلب وظـائف، وأعفيـت بعـض المصالح من قبول التعيين عن طريق القوى العاملة، وهكـذا وصلنا إلى الحال الذي يمكن القول فيه أنه لم يعين أحد منـذ بداية عقد الثمانينات وحتى الآن.



عادت الوساطة، وظهرت المحسوبية، وهاجر المصريون إلى الخارج، وها نحن في انتظار خطرين، خطر العاطلين عن العمل في الداخل، وخطر احتمال عودة الذين يعملون في الدول العربية الشقيقة.

والعواطلي نبات سام، ينمو بعيدا عن دفء المجتمع كله، لا يشعر بأي انتماء حقيقي إزاء هذا المجتمع ومن فيه، إن العاطل يقول: أنا ومن بعدي الطوفان، ومعه بعض الحق فيما يذهب إليه.

لا حل سوى توفير فرص عمل جديدة، وامتصاص العاطلين عن العمل فعلا، وعلماء الاقتصاد يقولون لنا أن توفير فرصة عمل جديدة يتطلب من الدولة عشرين ألف جنيه مصري.

ومصر في حاجة إلى تدبير ٤٥٠ ألف فرصة عمل كل سنة، أي أنه مطلوب بحسبة بسيطة حوالي عشرين مليار جنية سنويا لخلق فرص عمل من أجل استيعاب الذين يصلون سنهم إلى العمل، سنويا فقط، وليس في هذا أي اقتراب من العاطلين فعلا، سواء الذين نعرفهم- أي المليونين المتخرجين

من الجامعات أو المدارس – أو الذين لا نعرفهم وهم غير المتعلمين، وما أكثرهم.

المهم الآن، والعاجل في نفس الوقت، ألا تحمل كل سنة أعدادا جديدة، إلى أرقام العاطلين عن العمل في مصر.

فالعواطلي مشروع جديد لكل المتاعب التي يمكن أن يتعرض لها الوطن.

إن العواطلي وهو «اللامنتمي» الذي يبني موقفه من المجتمع على أساس من ظروفه الشخصية أولا وأخيرا.

٨ أبريل ١٩٨٩

رؤية الهلال

..«وفي رمضان، كان مستهل الشهر يـوم الثلاثـاء، فجلس السلطان في الميدان، وطلع الخليفة والقضاة الأربعـة، وهنئوا السلطان بالشهر، ثم طلع الـوزير يوسـف البـدري والزيني بركات بن موسى المحتسب، فطلعوا بالخبز والسكر والدقيق وهو على رؤوس الحمالين مزفوفا، فطلعوا بأغنـام وأبقار، كما جرت به العادة، فأخلع السلطان علـى الـوزير وناظر الدولة شرف الدين الصغير والمحتسب، وكان يومـا مشهودا»..

هذا ما يقوله بالحرف المؤرخ المصـري المعـروف محمد بن أحمد إياس الحنفي في تاريخـه الشـهير: «بـدائع الزهور في وقائع الدهور» عن مجئ رمضان سنة ٩٢٠ من بعد هجرة الحبيب، إلى بر مصر:

وعن ليلة رؤية الهلال يقول:

- وأما في ليلة رؤية الهلال، حضر القضاة الأربعـة بالمدرسة المنصورية وحضر الزيني بركات بـن موسى المحتسب، فلما ثبتت رؤية الهلال وانفـض المجلس، ركب الزيني بركات بـن موسـى مـن

هناك، فتلقتـه الفـوانيس الأكـره والمنـاجنيق، والمشاعل والشموع الموقده، فلـم يحـص ذلـك لكثرته، وأوقدوا له الشموع الدكاكين، وعلقوا لـه التنانير والأحمال الموقده بالقناديل، فارتجعت لـه القاهرة في تلك الليلة وكانت من الليالي المشهورة.

هكذا كان يجري الاحتفال برؤية هلال رمضان وقـد كان الرسول - ﷺ لا يأمر بصوم رمضان، إلا بعـد رؤيـة هلاله على التحقيق أو بشهادة الواحد العدل، فصـامه مـرة بشهادة أعرابي ومرة أخرى بشهادة بن عمر مكتفيا بمجـرد الإخبار.

فإن لم ير الهلال، ولم يشهد أحد رؤيته أكمل شـعبان ثلاثين يوما، ثم صام وأمر الناس بالصوم.

ذهب جعفر الصادق، وأبو حنيفة رضي ا عنهمـا ، إلى أنه تقبل شهادة الواحد في الغيم لاحتمال الهلال، أما فـي الصحو فلا يقبل إلا من جماعة لبعـد خفائـه، والأصـل أن تكون الرؤية بعد غروب الشمس، وبلا واسطة لأن الشـرع أناط الحكم بالرؤية بعد الغروب.

وقد نهى عن بدء الصيام في رمضـان قبـل رؤيـة الهلال، أي أنه يجب التماس هلال رمضان، وهلال شوال في ليلة الثلاثين من شعبان وليلة الثلاثين من رمضان، فإن رأوا هلال رمضان صاموا، وإن لم يروه أكملـوا عـدة شـعبان ثلاثين يوما.

وإن رأوا هلال شوال أفطروا، وإن لم يـروه أكملـوا رمضان ثلاثين يوما.

وإن تعذرت الرؤية بسبب الغيم والسحاب، فلا بأس من الاعتماد على قوله المنجمين، الذين يقيمون حساباتهم علـى منازل القمر وطرق الحساب المعروفة.

قال القشيري:

- ليست حقيقة الرؤية مشروطة في اللزوم. إذا علـم بإكمال العدة أو بالاجتهاد. إن اليوم من رمضـان، وجب الصوم.

وإن كان العلماء قد أختلف رأيهم في الاعتمـاد علـى الفلك، هناك من يرى إمكانية الاعتماد على الفلك، خاصة بعد أن كان العلم قد تقدم في زمانهم وصنعت المناظر المعظمة.

لكن الذين رأوا عدم الرجوع إلى الفلـك، كـانوا يخشـون احتمالات الغلط.

ورؤية الهلال في بلد إسلامي ما تلزم بـاقي البلـدان الأخرى.

وقد اختلف المؤرخون في أول من خرج لرؤية هـلال رمضان من قضاة مصـر، ذكـر السـيوطي فـي حسـن المحاضرة إن أول من خرج إلى رؤية الهلال فـي مصـر، كان القاضي، غوث بن سليمان الذي توفي في سـنة ثمـان وستين ومائة، وقيل إن أول من خرج من الناس إلى مسـجد محمود، بالقرافة لرؤية هلال رمضان، كان القاضي إبراهيم بن محمد بن عبد ا .

الرحالة المعروف بن بطوطة يصف لنا فـي رحلتـه الأولى إلى مصر وذلك في سنة ٧٢٧ يوم ارتقـاب هـلال رمضان:

- وعادتهم فيه، أن يجتمع فقهاء المدينة، ووجهاؤهـا بعد العصر، من اليوم التاسع والعشرين لشـعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممـين وهو ذو شارة وهيئة حسنة.

ثم يركب القاضي ويركب من معه أجمعون، ويتـبعهم من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، وينتهـون إلـى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فينزل فيه القاضي ومن معه، يترقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعـد صـلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهـل الحوانيت بجوانبهم الشمع وتصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون، هكذا فعلهم في كل سنة.

وأنا أقول عند قراءة هذا الكلام، في كتاب قرة العـين في رمضان والعيدين لعلي الجندي، كانت أيام.

١٥ أبريل ١٩٨٩.

قرة العين في رمضان والعيدين

.. رمضان شهر الصوم والقراءة، وأحب قراءة في رمضان هي ما تكون عادة عن رمضان نفسه، وفي كل عام، ما أن يأتي رمضان، حتى أبدأ بالبحث عن كتب عنه، وأدهش لأن معظمة متناثر في بطون كتب الدين والتاريخ.

هذا العام لم أواجه الحيرة نفسها، لأنني وقعت على كتاب ضخم من جزأين هو «قرة العين في رمضان والعيدين» لمؤلفه على الجندي، وهذا الكتاب، يصلح أوراق اعتماد علاقة قارئ بكاتب فعلا.

فالكتاب موسوعة نادرة عن رمضان والعيدين في التاريخ الاجتماعي والأدب والشعر والفن والدين، منذ يوم الرسالة وحتى الآن.

ورمضان لا يذكر إلا ويقال معه الصوم، كأنه الجزء الثاني من اسمه.

قال الخليل: «الصوم قيام بلا عمل والإمساك عن الطعام..» .

وأكد أبو عبيدة: «كل ممسك عن طعام أو كلام فهـو صائم».

والصيام لا يقال فقط عن الامتناع عن الطعام.

صام قضية يعني فراقها، والريح صامت أي ركـدت وصامت الشمس، أي استوت في منتصـف النهـار، أرض صوام، أي أرض يابسة لا ماء فيها، وصام الفرس، أي قـام على غير اعتلاف، صام النهـار، أي قـام قـائم الظهيـرة واعتدل.

والكلمة لها أشكال مختلفة: صائم، صـومان، صـوم، صوام، صيام، صيم.

والصيام في الشرع: إمساك مخصـوص فـي زمـن مخصوص بشرائط مخصوصة. وقد فـرض الصـوم فـي المدينة على المسلمين في شعبان في السنة الثانية من الهجرة.

ومن المحبب صيام الأيام الثلاثة الأولى مـن رجـب والخامس عشر من شعبان، فلما جرى تمرين المسلين علـى الصيام، وخالطت بشاشته قلوبهم وتفتحت صدورهم لقبولـه، فرض صيام رمضان ونسخ كل مـا كـان قبلـه ، أشـكال الصيام..

ومدة الصيام شهر، والشهر مـدة مشـهورة، بـإهلال الهلال والقمر، أو إذا ظهر وقارب الكمال واشتقاق الشـهر من الأشهار، لأنه مشتهر ويشهر بالقمر.

وفيه علامة ابتدائه وعلامة انتهائـه، وجمعـه أشـهر وشهور، والأول جمع قلة والثاني جمع كثرة.

وكلمة رمضان تعني الشهر الحر والرمض من شـدة الحر، ويقال رمض يومنا أي اشتد حره، والرمض شده وقع الشمس على الرمل وغيره، وحر الحجارة من شدة الشمس.

والرمضاء: شدة الحر والأرض الشـديدة الحـرارة، وأرمضته الرمضاء: أي أحرقتـه ورمضـت قدمـه مـن الرمضاء: أي احترقت ورمضت الغنم: رعت من شدة الحر فقرحت أكبادها.

قال الزمخشري: «رمضان مصدره رمض، إذا احترق من الرمضاء، فأضيف إليه الشهر وأصبح علما».

وقال الخليل بن أحمد :«هو مأخوذ من الرميض وهـو السحاب والمطر ما كان في آخر القيظ وأول الخريف».

وقال إنه الرمض وهو مطر يأتي قبل الخريف يطهـر وجه الأرض من الغبار.

وقيل: «يـرمض الـذنوب، أي يحرقهـا بالأعمـال الصالحة».

وقيل «لأن القلوب تأخذ من حرارة الموعظة والتفكير في أمر الآخر».

ومن المعروف أن أسم رمضـان يعـود إلـى زمـن الجاهلية، قبل مجئ الإسلام.

ويقال إن أول من سماه بهذا الاسم: هو قلاب بن مرة من قريش.

ولرمضان ستون اسما في الإسلام: يقال شـهر ا – سبحانه وتعالى – وشهر الآلاء شهر القرآن، شـهر النجـاة، شهر الصبر، وشهر المواساة وكان يسمى المرزوق، واسمه من أسماء ا الحسنى وهو مشتق من معنى الغافر، أي يمحو الذنوب ويمحيها.

وهو التاسع من الشهور القمرية، ولا يقال رمضان إلا مقترنا بكلمة شهر، ومن أدب الكتاب، عندما وضعوا التاريخ الهجري في زمن عمر بـن الخطـاب – رضـي ا عنـه وأرضاه – وجعلوا أول السنة المحرم كانوا لا يكتبـون فـي تواريخهم شهرا إلا مع رمضان والربيعين.

وجمع رمضان: رمضانات ورمضانون ورمضـانين نصبا وجرا.

قال القزويني في «عجائب المخلوقات» نقلا عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إن خامس رمضان الماضـي، هو أول رمضان الآتي».

ويقول: «إنهم امتحنوا ذلك خمسـين سـنة فوجـدوه صحيحا».

و   في شهوره شئون..

العدد الأخير من مجلة المستقبل

السنة ١٣ العدد ٦٣٥ السبت ٢٢

أبريل (نيسان) ١٩٨٩ من بعد ميلاد

السيد المسيح.